التبشير والاستعمار

في البلاد العربية

عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى إخضاع الشرق للاستعمار الغربي

تأليف

الدكتور مصطفى خالدي
رئيس مدرسة التمريض الوطنية في بيروت
أستاذ فن التوليد سابقاً في جامعة بيروت الأمركية

الدكتور عمر فروخ
عضو المجمع العلمي العربي بدمشق
عضو جمعية البحوث الإسلامية في بومباي

منشورات
المكتبة العلمية ومطبعتها
شارع المعرض - بيروت

١٣٧٢ ﻫ — ١٩٥٣ م

١/٣٠٠٠/٣/٥٣

الطبعة الاولى

بيروت

جمادى الثانية ١٣٧٢

آذار ١٩٥٣

اهداء الكتاب

الى كل شاب مسلم والى كل شاب مسيحي

الى كل شاب وشابة في الشرق

تقدم هذا الكتاب

لنبسط لهم فيه وسائل المبشرين في بلادنا العزيزة وانهم لم يرموا من وراء تبشيرهم الا خدمة الاستعمار الغربي .

فالى الجيل الناشيء

الى القيادة العاقلة الكامنة في العالم الاسلامي والعالم العربي

تقدم كتابنا هذا مرشداً ومنهاجاً

المؤلفان

٢٣ جمادى الاولى ١٣٧٢

٨ شبـــاط ١٩٥٣

فهرست الكتاب

الكلمة الاولى

منهاج هذا الكتاب

لعل كتابنا هـذا يصلح ان يكون دليلا في يد الجيل الناشىء يتتبع فيه جهود المبشرين وسعيهم الى زعزعة عقيدة الناشئة الشرقية عامة والاسلاميـة خاصـة ، ثم تهيئة هذه الناشئـة لقبول النفوذ الغربي والاستكانة الى الاستعمار .

لقد كنا دائماً نعتقد أن المدارس الاجنبيـة والمؤسسات الاجنبيـة — حتى الجمعيات الخيريـة والعلميـة الـتي ينشئها الاجانب في بلادنا على اختلاف الاسماء، والنزعات ، والاديان والدول — انما هي في الحقيقـة سبلٌ تتشعب عند الانطلاق ولكنها تلتقي عند غايـة قصوى واحـدة : السيطرة على الشرق ، السيطرة الثقافية والدينيـة والسياسيـة . ولقد تبين لاصحاب هذه المؤسسات ان المسلمين خاصـة اصلب الناس عوداً في تقبُّل هذا النفوذ الاجنبي فراحوا يوجهون جهـودهم الى المسلمين خاصـة ، مع الاهتمام بغير المسلمين من الشرقيين ، على ما يبدو جلياً في ثنايا هذا الكتاب.

ولقد اتفق لكثير من النـــاس ان اعتقدوا مثلنا ان المدارس والمستشفيات ومؤسسات الاحسان انما هي مؤسسات منظمـة للتبشير في الدرجـة الاولى. ولـكن القليلين فقط يدركون ان هـذه المؤسسات نفسها، وان كثيراً من البيوت التجاريـة الاجنبيـة والهيئات الرسميـة الاجنبيـة ، كانت ولا تزال وسائل للتبشير الممهد لبسط النفـوذ الاجنبي.ومن منا كان يعتقد ان الفتن الطائفية كان ينفخ فيها رجال اتوا الى هذه البلاد يضعون على اجسامهم ثياب التقوى وينتحلون مظـاهر العلم ؟ ومن منا كان يصدق ان رجالا جاءوا الى بلادنا ليرأسوا مؤسسات

علميـة مشهورة بالعلم كانوا مبشرين في الدرجـة الاولى ؟

لقد حرصنا نحن على ان نثبت هذه التهم الـ كبرى بشواهد من كـتب المبشرين انفسهم. اننا لم نلجـأ الى خيالنا ولا الى قوة اسلوبنا و براعـة تعبيرنا ، بل رجعنا الى ما كـتبه الاجانب تلميحاً او تصريحاً ، ولقد فضلنا في الاستشهاد التصريح على التلميح .

اما الـكتب التي رجعنا اليها ودرسناهافانها تعيا على الحصر ، إنها تعد بالمئات ، ولـكننا نحن لم نثبت الشواهد الا من نوعين من هذه الـكتب الـكثيرة : كـتب المبشرين المعروفين، والكتب التي تصرح بغاياتها تصريحاً لا التواء فيه ولا غموض .

وكـذلك لم نثبت نحن كـل شيء ورد في هذه الكتب ، فان كـثيراً مما ورد فيها مكرر فيها جميعها ، ثم ان بعض الآراء والحقائق تتفرع من اصول معروفـة . ولذلك اكـتفينا نحن باصـول الحقائق والآراء واعتقدنا ان القارىء الكريم يستطيع ان يدرك الفروع التفصيليـة باهون نظر .

على اننا في هذا الـكتاب سنتناول الـكلام على الامـة الاسلامية ، وسنخص بالـكلام بلاد الشرق الادنى العربيـة من مراكش غرباً الى العراق شرقاً ، ومن اعالي الشام شمالا الى اليمن جنوباً.

* لم يحاولْ احدٌ بعدُ وضعَ مثلَ هذا الـكتابِ في اللغة العربيـة. ولقد رأينا نحن أن واجبنا الديني والقومي والوطني يدعونا الى أداء هذا الواجب وحمل هذه الرسالة على بعدها عن مباحث اختصاصنا وعلى طول الوقت الذي تتطلبه . إلا اننا ادركـنا ان السكوت عن هذا الخطر اشدضرراً على قومنا من إهمال موضوعات اختصاصنا. ونحن نعتقد ان القارىء بعدأن يبدأ قرأة هذا الـكتاب سيرى صواب ما نقوله. ان التبشير اشد ضرراً على بلادنا من الاستعمار، لأن الاستعمار لم ينفذ الى بلادنا إلا تحت ستار التبشير .

*

فحبذا ان يصل كتابنا هذا الى الايدي التي تستطيع ان تستفيد مما فيه من درس ومن حقائقه المجموعة ، ثم تضع هي مناهجها الخاصة لمتابعة الرسالة: مقاومة التبشير من الناحية العملية في البيئات المختلفة بكل سبيل ممكنة .

ان الاسلام صلب الشرق . فاذا وهن الاسلام وهن الشرق كله. فعسى ان نكون فعلا قد أدينا خدمة للفئة المختارة من قومنا وفي امتنا من اؤلئك الذين يتطلعون الى اصلاح قريب لانهاض العرب وايقاظ المسلمين .

المؤلفان

٢٣ جمادى الاولى ١٣٧٢

٨ شبـــاط ١٩٥٣

مصادر هذا الكتاب

•

مصادر هذا الكتاب كثيرة جداً ، ولكننا نجتزىء هنا بذكر نحو مائة مصدر ومرجع ، ثم بعدد آخر يجده القارىء في ثنايا الحواشي . ويلاحظ القارىء اننا اهملنا في هذا الفهرس انواعاً من الكتب : اولها الكتب العربية بانواعها ، لأن المهم ان ترى ما يقول الاجانب لانفسهم عنا ، لا ان نرى ما نقول نحن عن انفسنا . ثم إننا أهملنا الكتب التي تبحث في الاسلام بحثاً موضوعياً ، إذ لا صلة لها بموضوعنا البتة. وكذلك اهملنا كتب الردود والمهاترات ، والكتب التي ألفها اصحابها للتحامل على الاسلام فقط ، ذلك لانها كتب لا قيمة له في شيء . ونحن نحب ان يلاحظ القارىء انواع هذه الكتب واتجاهها وما تدل عليه عناوينها ، فإنها وحدها دراسة تامة . ثم ان القارىء يستفيد من هذه الكتب إذا اراد ان يتابع الموضوع لنفسه.

Addison — The Christian Approach to the Moslem, By James Thayer Addison, N. Y. 1942.

All - Persia intermission Conference. Teheran 1926, Mission problems in New Persia, London 1926.

The American Mission in Egypt 1854 - 1896. Pittsburg 1896.

Becker — Islamstudien, von C. H. Becker, zwei Bände, Leipzig 1924 und 1932.

Bianquis—Les nouveaux dévoires du protestantisme français en Syrie, Paris 1926

Bliss — Reminiscences of Daniel Bliss, London 1920.

Bliss (E) — Ecumencial Missionary Conference, By Edwin M. Bliss, N. Y. 1900.

Bliss (En)—The Encyclopedia of Missions, by Edwin M. Bliss (Editor). 2 vols., N. Y. 1891.

Bliss (R) — The Religions of Modern Syria and Palestine, by Frederick Jones Bliss, N. Y. 1912.

Brown — The Prospects of Islam, by Laurence E. Browne, London 1944.

Bunson — Islam or True Christianity, by Ernest de Bunsen, London 1889.

Bury — Pan Islam, by G. Wyman Bury, London 1919.

Cash — The Moslem World in Revolution, by W. Wilson Cash, London 1926.

Cash (E) — The Expansion of Islam, by W. Wilson Cash. London 1928.

Cauly — Recherche de la vrai religion, par Mgr. E. Cauly, Paris 1928.
Christian Workers—Conference of Christian Workers among Moslems, N.Y. 1924
Christians and Mohammedams, by George Herrick, N. Y. ca. 1912.
Christian Literature in the Moslem Lands, by a Joint Commitee, N.Y. 1923.
Christian (The) Mission in Moslem World, by William David Schermerhorn, N. Y. 1933
Christian Missions and Oriental Civilization, by Maurice Thomas Price, Shanghai 1924.
Christian Missions and Social Progress, by James S. Dennis, 3 vols., N.Y. 1898.
Continental Survey of Foreign Missions, by Rev. James Dennis, N. Y. 1902
Cooperation and the world Mission, by James Ralegh Mott, N. Y. 1938.
Danby — Why « Christian » Schools ? or what can Christian Schools contribute ? with particular Reference to Palestine, by H. Danby, Jerusalem 1936.
The Decisive Hour of Christian Missions by John Raleigh Mott N. Y. 1910.
The Democratic Movement of Asia, by Tyler Dennett, N. Y. 1918.
Echos from Edinburg, by William Henry Gairdner, N. Y.
Enc. Am. — Encyclopedia Americana.
Enc. Br. — Encyclopaedia Britannica.
Enc. Miss. — Encyclopedia of Missions.
Faris — Reapers of His Harvest, by John T. Faris, London 1911.
The Evangelisation of the World in this Generation, by John Raleigh Mott, N. Y. 1900
Five Decades and a Forward View, by John Raleigh Mott, N. Y. 1939.
Foreign Missions after a Century, by James S. Dennis, 3ed. edition. N.Y. 1893.
Garrison — The March of Faith, by Winfred Ernest Garrison, N. Y. 1933.
Harrison — Doctor in Arabia, by Paul W. Harrison, London 1943.
Hartmann — Islam, Mission, Politik, by Martin Hartmann, Leipzig 1912.
History of Protestant Missions, by Gustav Warneck, Edinburg 1901.
The History of the Protestant Missions in India, London 1884.
International Missionary council, Jerusalem 1928, 8 vols., London 1928.
Islam and Missions, by E.M. Wherry, S.M. Zwemer and G.G. Mylrea, N.Y. 1911
L'Islam et l'Occident (Les cahiers du Sud, 1947)
The king's Highway, West Medford (ca. 1915).
The Layman's Foreign Mission inquiry, Report, 7 vols., N.Y. 1933.
Jessup — Fifty-Three years in Syria, by Henry Harris Jessup, N.Y. 1910.
Les Jesuites en Syrie 1831-1931, 12 parties en deux vols., Paris 1931.
Jung — Les arabes et l'Islam en face de nouvelles croissadee et Palestine et sionisme, Paris 1931.
Kilgour — The Bible throughout the world, by R. Kilgour, London 1939.
Lawrence — Modern Missions in the Near East, by Ed. E. Lawrence (Title page missing)
Levonian — Islam and Christianity, by Lootfy Levonian, London 1940.

Levonian (M) — Moslem Mentality, by Lootfy Levonian, London 1928.
Lucknow Conference, Lucknow (India) 1911.
Macdonald — Najla, the Sheikh's Daughter, by Jan Macdonald, London 1944.
Margoliouth — Mohammedanism, by David Samuel Margoliouth, London1921.
Medical Missions, by John Lowe. N. Y. 1896.
Methods of Mission work among the Moslems, Being those papers read at the First Missionary Conference on behalf of the Mohammadan World held at Cairo, Apr. 4th. to 8th 1906 (Crossed: For Private Circulation only), N.Y.1906
Milligan — Facts and Falks in Our Fields Abroad, by Anna A. Milligan, Philadolphia 1921.
Missionary Herald, Letters of the Missionaries in Syria and the Near East 1830-1842, Boston 1830-1842.
Missionary Heroines, by E. R. Pitman, N. Y. 18 — .
The Missionary Outlook in the Light of war and the Religious Outlook. N.Y.1920.
Mission Fields — Religions of Mission Fields as Viewed by Protestant Missionaries, ... 1905.
Missions from the Modern View, by Robert A. Hume, N. Y. ca. 1905.
The Modern Mission Century, by Arthur T. Pierson, N. Y. ca. 1901.
MW — The Moslem world, A Christian Quarterly Review of Current Events, Literature and Thought among the Mohammedans, N. Y.
Nashville Convention, 1906, Students and the Modern Missionary Crusades,
The New Horoscope of Missions, by James Dennis, N. Y. ca. 1908.
Oxford — What is the Oxford Group? by Layman with a Notebook, London 1933.
The Pastor and Modern Missions, N. Y. 1904.
Penrose — That They May Have Life, by Stephen B. L. Penrose, N. Y. 1941.
The Picket Line of Missions, by W. F. McDowell, N. Y. 1897.
The Present-Day Summons to the World Mission of Christianity, Nashville 1931
Report on the Lebanon Schools, Edinburg 1856-8-.
Re-Thinking Missions, by the Commitee of Appraisal (Ernest Hocking, Chairman) N. Y. & London 1932.
Richter — A History of the Protestant Missions in the Near East, by Julius Richter (English Translation adapted by the Author) N.Y.1910.
Rochester Convention 1910, Students and the present Missionary Crisis, N. Y. 1910
Scherer — Mediterranean Missions 1808-1870, by George Scherer, Beirut?
Schermerhorn — The Christian Mission in the Modern world, by William David Schermerhorn N. Y. 1933.
Scott — In the High Yemen, by Hugh Scott, Londod 1942.
The Story of the American Board, Boston ca. 1910.

Student Volunteer Movement for foreign Missions;
Christian Students and the world Problems, N. Y. 1924.
TIRM — The International Review of Missions, London & N. Y.
Two Thousand years of Missious .... , by Lemuel Call
Barnes, 6th. ed., Chicago 1906.
Van Ess — Meet the Arab, by John Van Ess, N. Y. 1943.
Véou — Chrétiens en Péril au Moussadagh (Enquete au Sandjak d'Alexandrette), par Paul de Véou, Paris 1939
Ways of Sharing with other Faiths, by Daniel Johnson Fleming, N. Y. 1928
Wismar — A Study of Tolerance as practised by Muhammad and
His immediate Successors, by Adolph L. Wismar, N. Y. 1927.
World Missionary Conference, 1910, N. Y. 1910.
— — Carrying the Gospel, 452 pages.
— — The Church in the Mission Field, 380 pages.
— — Cooperation, 241 pages.
— — Education, 471 pages.
— — History and Records of the Conference, 367 pages.
— — The Home Base, 565 pages.
— — The Missionary Message, 333 pages.
— — Missions and Governments, 189 pages.
— — The Training of Teachers,
The world Mission of the Church: Findings and Recommandations of the
International Missionary council,
Tambaram, Madras, India, Dec. 12-29, 1938 (N. Y. 1938).
World Student Christian Federation, Report of the
Conference at Robert College, Costantinople, 1911.
Zwemer — Islam, a Challange to Faith, by Samuel S. Zwemer, N. Y. 1907

توطئة

وجه الحاجة الى هذا الكتاب

●

لا سبيل الى احصاء ما كتبه المبشرون وانصار المبشرين عن الشرق ولا عن العرب والاسلام ، فان « شترايت ودندنغر[1] » قد اصدرا بين عام ١٩١٦ وعام ١٩٣١ سبعة مجلدات ذكرا فيها اسماء المصادر والمراجع التي تدور حول المبشرين وجهودهم وتسهيل اعمالهم . ثم إن اكثر هذه الكتب مفصلة تفصيلاً كبيراً ، فان الرسائل التي كتبها المبشرون من سورية والشرق الادنى فقط الى زملائهم بين عام ١٨٣٠ وعام ١٨٤٢ طبعت في ثلاثة عشر مجلداً من اصل ثمانية وثلاثين مجلداً[2] .

ولما اجتمع مؤتمر التبشير العالمي في ادنبره (في اسكوتلندة) عام ١٩١٠ اصدر تقريراً، عن النواحي المختلفة التي يجب ان يهتم لها المبشرون ، تم طبعه في عشرة مجلدات[3] . اما مؤتمر التبشير الدولي الذي اجتمع في القدس عام١٩٢٨مدة اسبوعين فقط (من٢٣ آذار الى ٨ نيسان) فقد وضع تقريراً في ثمانية مجلدات[4] . وهنالك عشرات من امثال هذه الكتب والتقارير قد ظهرت كلها في مجلدات عديدة ضخمة .

وفي عام ١٨٦٩ كانت اعمال مدارس التبشير الافرنسية في الشرق تقتضي اربعة مجلدات تقع في نحو الف وخمسمائة وخمسين صفحة[5] ، كما ان مدارس التبشير الانكليزية في جبل لبنان كانت قد اصدرت تقريراً عن اعمالها بين ١٨٥٦ و ١٨٦٨ — يعني في عهد فتنة سنة الستين فقط — يقع في مجلد كامل[6] .

---

(1) R. Streit & J. Dindinger *Bibliotheca missionum*, vol. 1-7, Münster & Achen 1916-31.
(2) Missionary Herald, *Letters of Missionaries in Syria & the Near East 1830-42*, Vols. 26-38, Boston 83-42.
(3) World Missionary Conference of 1910, Edinburgh and New York 1910.
(4) The International Missionary Council of Jerusalem 8 vols., London 1928.
(5) Oeuvres des Ecoles d'Orient(1862-9), 4 vols., St. Cloud, Belin, 1862-9,
(6) Reports on the Lebanese Schools, Edinburgh 1856-68.

اما المجلات التبشيرية التي صدرت في بلدان مختلفة و بلغات مختلفة فهي اكثر من ان يحصيها العد . اضف الى ذلك ان ثمت في العالم كله جرائد ومجلات سياسية او ادبية او علمية لا تظهر عليها صبغة التبشير ، ولكنها في الحقيقة وسائل قوية من وسائل المبشرين .

ومع هذا كله فليس في اللغة العربية الى اليوم كتاب واحد يكشف النقاب عن غايات المبشرين الحقيقية وينبه على الاخطار التي يودالمبشرون ان يعرّضوا لها الشرق والعرب والاسلام، مع ان لهؤلاء المبشرين الوفَ الكتب والكراريس يحاولون ان ينشروها بكل سبيل في طول البلاد العربية وعرضها. ثم انهم قد ألقَوْا عن وجوههم القناع واسفروا عن حقيقة غاياتهم في الكتابة عن الاسلام ورجاله وعن العرب وحياتهم ، وكانوا النواة الاولى لطلائع الاستعمار السياسي والاقتصادي ، يساعدهم في عملهم هذا مع الأسف نفر من اهل البلاد العربية .

ليست كتب المبشرين هي التي تقتضي وضع هذا الكتاب لكشف النقاب عن آثار تلك الاصابع الحاذقة التي تمتد الى كل صوب في العالم الاسلامي ، بل هناك المؤسسات التبشيرية ، تلك المؤسسات التي تبدو في مظاهر مختلفة، بعضها واضح المعالم و بعضها الآخر بعيد عن التهمة كل البعد، كالمدارس والجامعات والمستشفيات والمياتم والاندية والجمعيات ومؤسسات البر والأحسان .

وقد اراد القائمون على التبشير ان يكون « للاحسان والتعليم » مقامٌ كبيرٌ في الخطط التي توضع لاعمال التبشير، ولكن على ان تكون وسائل فقط لا غايةً في نفسها[1] . ان المبشرين يريدون افساد الخصائص القومية في الشعوب الشرقية الاسلامية والعربية — كما يريدون افساد خصائص البوذيين وغيرهم ممن يأبَوْن ان يخضعوا لسلطة الغربيين السياسية والاقتصادية.

ولقد سايرَ التبشيرَ الظاهر بالمسيحية حركةٌ اشدخطراً على الامة الاسلامية وعلى الشعب العربي ، فقد نشأ في اوروبة واميركة نفر سخروا اقلامهم للمبشرين وجعلوا يطعنون العرب والاسلام ويشوهون صورتهما ، ويبثون ذلك في المدارس التي يسيطرون عليها ، وفي المجلات

---

(1) Enc. of Missions (2 ed. ed. 1904) p. 9 c.

والجرائد والكتب التي يصدرونها . ان السكوت عن هذه الافتراءات تخاذل وتقصير معيب ، فيجدر بنا اذن ان نرد هذه الافتراءات وان نفندها دفاعاً عن كياننا القومي والديني ، وحفظاً لخصائصنا التي هي اهم دعائم الحياة فينا .

ويجب ان نذكر دائماً ان المبشرين هم اصابع اممهم وعيون بلادهم ، يحاولون دائماً ان يثيروا الفتن والقلاقل في البلاد العربية والاسلامية حتى تتمكن اممهم من السيطرة علينا سياسياً واقتصادياً — اما الناحية الاجتماعية والثقافية فقلما تهمهم الا بمقدار مـــا تسهل لهم مهمتهم السيـاسية والاقتصـادية .

وهـذا اعتقاد لنا لسنا فيه وحدنا ، بل يشركنا فيـه اولئك الذين ارسلوا المبشرين الى بلادنا . لقد عمل هؤلاء المبشرون عمـداً او عفواً ، على اثـارة سوء التفاهم والشغب . وبما اننا سنرى كثيراً من آثار ذلك في فصل السياسة من هذا الكتاب ، فسنكتفي هنا بايراد رأي رجل اميركي هو استاذ للتاريخ في جامعة من جامعات الولايات المتحدة نفسها ، واليك ترجمته :

نشرت مجلة « العالم الاسلامي » (١) خلاصة مقال كتبه الاستاذ ادوارد ميد ايرل (٢) ، احد اساتذة التاريخ في جامعة كولومبية في الولايات المتحدة، لمجـلة «الشؤون الخارجية» (٣) عنوانه : الارساليات الاميركية في الشرق الادنى ، جاء فيه :

« ماذا يمكن ان يقـال الآن عن اعمـال التبشير الاميركي في الشرق الادنى
« بعد قرن كامل من الدهر ؟ يمكننا ان نحشد احصاءات هائلة تتعلق بملايين الدولارات
« و بألوف النفوس التي ضحيت في هذا السبيل . ولكن هذه ايضاً ليست هبة كافية توازي
« النتائج التي حققت على ايـدي الارساليات الاميركية والمبشرين الاميركيين في هـذا المركز
« المهم من الشرق ، ان نفراً من هؤلاء الرجال والنساء ، امثال سيرس هملن ودانيال بلس (اول

---

(1) Moslem World, Jan. 1930. 71-72

(2) Edward Meade Earle, Associate Professor of History at Colombia University.

(٣) ان مجلة الشؤون الخارجية Foreign Affairs من المجلات الرصينة في الولايات المتحدة ، وهي تبحث في الشؤون الاجتماعية الدولية من ناحيتها العلمية والقانونية .

« رئيس للجامعة الاميركية في بيروت) وماري ميلز باتريك[1] كانوا علماء وضباط ارتباط بين
« الشرق والغرب . وكذلك كان نفر آخر منهم معلمين كباراً او اطباء محبوبين يشترط فيهم
« طول الاناة والصبر . ان جميع هؤلاء قد حملوا معهم من اميركة جرأة نادرة ... لولاها لما
« أمكن كتابة الجزء الاوفر من تاريخ الجهود الاميركية في الشرق الادنى ، ولكن الجرأة
« وحدها ليست كافية ، كما **ان الوقت لم يحن بعد للحكم على قيمة ما حققه** المبشرون عموماً.
« هناك وجه واحد من هذا الموضوع يجب الا يهمل بحال من الاحوال هو ان الرأي العام
« الاميركي، فيما يتعلق بالشرق ، قد خلقه المبشرون منذ قرن كامل. **فاذا كان الراي العام**
« **الاميركي قد طويت عنه بعض المعلومات اوغذي بمعلومات خاطئة او دفع الى موقف عدائي**
« فان المبشرون هم الملومون في اكثر ذلك، لأن النظر الى التاريخ على اساس انتشار النصرانية
« قد حمل هؤلاء المبشرين على ان يقدموا لنا في الولايات المتحدة **صورة ناقصة مشوهة او**
« **ساخرة في بعض الاحيان للمسلمين وللاسلام**. وبينما كان المبشرون يرمون في تبشيرهم
« الى التسامح كانوا احياناومن غير ان يشعروا **يزرعون بذور سوء التفاهم** . وكذلك حينما
« جاء المبشرون الى تصوير احوال الامبرطورية العثمانية، يوم كانت الامبرطورية العثمانية،عجزوا
« عن ان يشيروا الى ان الآلام **التي تحملتها الاقليات المسيحية قد تحملها ايضاً**
« **المواطنون الاتراك كلهم** [2]. فاذا كان الفلاح الارمني قد تعرّض لغارة كردية فكذلك
« كان شأن الفلاح التركي . واذا ارهق الفلاح البلغاري بالضرائب ،
« فكذلك كانت حال الفلاح التركي . وعدا ذلك فان التركي وحده (يقصد :
« المسلم) ، ظل الى عام ١٩٠٩ مجبراً على الخدمة العسكريه بينما المسيحي كان معفى
« منها لقاء ضريبة ضئيلة يدفعها.**ولكن بما ان المبشر قد حذف كثيرا من الخصائص**
« **والحقائق من الصورة التي رسمها للامبراطورية العثمانية** يومذاك،فان الشعب الاميركي لايستطيع
« ان يميّز ، من النظر الى هذه الصورة التي وصلت اليه ، **بين الظالم والمظلوم . ان الشعب**

1) Cyrus Hamlin, Daniel Bliss, Mary Mills Patrick.

(٢) يستعمل الكاتب كلمة « اتراك » ويعني بها « المسلمين » .

« الاميركي لم يكن عالما ان المسلمين و النصارى قد تألموا — على السواء — في الحياة تحت « حكم امبراطوري فاسد » .

« ولقد لجأ المبشرون — كيما يستطيعون ان يجمعوا الأموال — الى استغلال حقائق ناقصه ، وكذلك اخذت تفعل بعض جمعيات الاغاثة منذ زمن قريب . فنتج من ذلك ان العقل الاميركي قد حيل بينه و بين الحقيقة الواضحة ، وهي ان سكان الشرق الادنى قد كانوا ضحايا كوارثَ واحدةٍ بصرف النظر عن جنسياتهم وأديانهم ... »

ولا حاجة الى التعليق على رأي صريح هذه الصراحة ، واضح هذا الوضوح .

*

ومن المبشرين نفرٌ يشتغلون بالآداب العربية والعلوم الاسلامية او يستخدمون غيرهم في سبيل ذلك ، ثم يرمون كلهم ، مما يكتبون ، الى ان يوازنوا بين الآداب العربية والآداب الاجنبية ، أو بين العلوم الاسلامية والعلوم الغربية (التي يعدونها نصرانية ، لان امم الغرب تدين بالنصرانية) ليخرجوا دائماً بتفضيل الآداب الغربية على الآداب العربية الاسلامية ، و بالتالي الى ابراز نواحي النشاط الثقافي في الغرب وتفضيلها على امثالها في تاريخ العرب والاسلام . وما غايتهم من ذلك الا خلق تخاذل روحي وشعور بالنقص في نفوس الشرقيين وحملهم من هذه الطريق على الرضا بالخضوع للمدنية المادية الغربية(١) .

واذا كان ثمت نفر قليلون جاءوا الى الشرق للتبشير فحسب، وهم مقتنعون شخصياً بالناحية الدينية ، فانهم في الدرجة الاولى مخطئون لأنهم لم يأتوا الينا بقيمة روحية واجتماعية اسمى مما عندنا — ولا مثلها . ثم انهم قد وضعوا انفسهم في ايدي رجال الأستعمار السياسي والأقتصادي يستخدمونهم كيف شاءوا ، وعلى غير علم منهم في بعض الأحيان .

* * *

ولقد صبر الشباب العربي المسلم على هؤلاء المبشرين وعلى انصارهم المحليين ، مع كل ما

(١) راجع الفصل العاشر .

تعرض به هؤلاء المبشرون للكرامة الشرقية والعربية والاسلامية في جميع نواحي حياتنا الدينية والسياسية والاجتماعيـة والثقافية والادبية — وخصوصاً في الحقبة المتأخرة. لقد كان علينا ان نسكت عن هؤلاء لاننا في نزاع سياسي مـــع الغرب ، ولان هؤلاء عيون الغرب وآذانه واصابعه ايضــاً . اننا نسعى الى هدف سام كبـير لا نستطيع الحصول عليه اذا اغضبنا الغرب مباشرة. من اجل ذلك كان من المحتوم علينا ان نغضي عن اولئك الانصار الذين باعوا انفسهم للمستعمر الغاشم فجعلهم مطيـة الى استعباد بـلادهم والى اذلال اخوانهم في الدار وفي النسب احيـانـاً .

اما الحجة الكبرى التي حملنا بها انفسنا على السكوت وعلى الظهور بهذا الحلم الذي لا مثيل له في طباع غيرنا من البشر ، فهو ان عدداً عديداً من اخواننا في الدار قد نذروا انفسهم ايضاً لما نذرنا نحن انفسنا له ، وكانوا على الاجنبي واستعماره اشد منا نحن احياناً ، لان المستعمر قد أتي في ذلك من حيث لم يحتسب. على ان حلمنا كان يجب ان ينتهي لسببين اثنين، اولهما ان هذا النفر الكريم قد بدأ يحمل اضطهاداً اكثر من الذي نحتمله نحن . وثاني السببين ان النفر الذين باعوا أنفسهم للمستعمر، وانصارهم معهم، ما زالوا يظهرون بمظهر المتحدي في حقل الاجتماع والوطن ، وفي كل حقل آخر . ولقد كان هؤلاء لا يهمهم دينهم لانهم قليلو الاحتفال بمبادئه ، بل كان يهمهم ارضاء النفوذ الاجنبي ، لانهم كانوا يرتزقون منه رزقاً حسناً[1] .

* * *

وما إحالة الحكومة اللبنانية لصحافيين بارزين من اصحاب الصحف الصادرة باللغة الاجنبية في لبنان الى المحكمة، وهما جورج نقاش وكسروان اللبكي من اسرة جريدة الاوريان[2] في بـيروت الا لان الجريدة المذكورة قد نشرت سلسلة من المقالات بامضاء جورج نقاش ، كان من شأنها — لو لقيت آذاناً مصغية — ان تثير نزاعاً طائفياً في لبنان فوق ما فيها من التعرض لاساس الكيان اللبناني .

(١) راجع مجلة « الانباء » ، لسان حال الحزب التقدمي الاشتراكي (بيروت) ، لصاحبها كمال جنبلاط ، وخصوصاً العدد ٦٩ ، السنة الثانية (٧ تشرين الثاني ١٩٥٢).

(2) L'Orient.

وفي ما يلي موجز الاتهام والحكم (١) :

حوكم جورج نقاش وكسروان اللبكي لاقدامهما على نشر مقال افتتاحي في جريدتهما « الاوريان » بالعدد الصادر بتاريخ ١٠ آذار سنة ١٩٤٩ رقم ٦٦٩١ ، فيه اثارة النعرات الطائفية وحض عناصر الامة بعضها على بعض ...

« وتناولت المحكمة المقال المذكور ... و بعد ان رجعت الى مجموعه وروحه تبين لها ان السيدجورج نقاش قد تناول القضية اللبنانية في الصميم ومس كرامة الحكم اللبناني الاستقلالي... وجعل من الحكم الوطني الاستقلالي كابوساً ترزح تحت عبئه البلاد وتئن منه العباد .

« و بما ان الكاتب السيد جورج نقاش بعد ان طعن وطنه لبنان وحكمه الوطني ... وخرج عن حرية الرأي وحقّر الدولة ونعى على الاستقلال وبُناته وأثار الذُعرات من وراء كتابته ... وقصد الطعن بالوضع الحالي و بالقضاء الوطني مع اثارة النُعرات ... و بما انه اسند الى مجموعة الامة اللبنانية بان اتفاق طوائفها على وضع ذلك الميثاق الوطني الشهير (٢) لم يكن الا خيالياً ، ونعى على الوضع الاستقلالي منذ نشأته ، واحكم معول الهدم فيه دون ان تبدر منه عبارة واحدة يستشم منها اندفاعه ورغبته في ايجاد الالفة والمحبة ...

« لذلك ... تقرر الحكم بحبس جورج فيليب نقاش مدة ... ثلاثة اشهر وتغريمه مائة ليرة ... وحبس كسروان نعوم اللبكي شهراً واحداً و تغريمه خمساً وعشرين ليرة ... وتوقيف جريدة « الاوريان » عن الصدور مدة ثمانية اشهر » .

هذه القضية اثارت مُشادّة ، في خارج المحكمة او مشادتين على الاصح : واحدة بين المحامين واخرى بين الصحف .

---

(١) جريدة الديار (بيروت) ، السنة الثامنة ، العدد ١٨١٦ ، الاحد في ٢٠ اذار ١٩٤٩ و٢٠ جمادى الاولى ١٣٦٨ ، الصفحتان الثانية والرابعة. ثم راجع الصحف البيروتية الاخرى الصادرة في هذا التاريخ .

(٢) يقصد الاتفاق في خريف عام ١٩٤٣ بين جميع طوائف الشعب اللبناني على طلب الاستقلال والتخلص من الحكم الاجنبي .

اما مشادة المحامين فتدور حول اعتذار الاستاذ المحامي ادمون رباط عن الدفاع عن المتهمين ، بعد ان كان قد قبل مبدئياً الدفاع عنهما .

ولقد كان من المفروض ان ينتصر اصحاب الصحف اللبنانية لزميلهم الصحافي ، يحكم عليه هذا الحكم . ولكن هذا الانتصار له قد اقتصر على اتخاذ شكل رمزي ، هو ان الحكم نفسه كان قاسياً ! اما الكاتب فقد ليم اشد اللوم على انه كتب هذه الكتابة وتناول الموضوع من هذه الزاوية وبهذه الروح (١) .

وبعدُ، فمن ذا الذي يستفيد من المقالات التي نشرها جورج نقاش وأدت الى الحكم عليه؟ لا شك في ان هذه المقالات تسيء الى الوطن والى نهضته وتسر الاجانب من اصحاب المصلحة !

* * *

اما نحن المؤلفين فسنسمع غداً اخواناً لنا نحترمهم يقولون بعد صدور هذا الكتاب: عيب على رجلين مثقفين ان يكتبا مثل هذا الكتاب في هذه الحقبة من الكفاح القومي .في هذه الحقبة يجب الا نذكر شيئاً من هذا ، بل يجب الا نذكر « كلمة » اسلام او نصرانية ولا « كلمة » مسلم و « كلمة » مسيحي .

ان اخواننا هؤلاء ، من الذين نحترمهم ، سيقولون ذلك اذا قرأوا عنوان كتابنا ثم قلّبوا صفحاته بين اناملهم تقليباً آلياً فقط . اما اذا فعلوا ما هم به خليقون فانهم سيبدّلون رأيهم بلا ريب .

اجل سيقوم غداً من يقول لنا : من العيب ان ندافع عن قومنا ووطننا وان ندل على جذر للاستعمار ما زال ، على رغم اختفائه عن الاعين ، من اعمق الجذور في سجل مصائبنا القومية . ولكن لم يقم من هؤلاء رجل قال لسيادة المطران مبارك شيئاً حينما كان عام ١٩٤٨ في باريس فصرح بما يلي :

---

(١) راجع الصحف البيروتية التي صدرت بعد ٢٠ اذار ١٩٤٩ .

« ان لبنان بلد كاثوليكي ، ويحاولون المسلمون ان يستعبدوه كما يحاولون استعباد جميع « المواطنين الذين يسكنون معهم في بلد واحد كاليهود في فلسطين .

« يجب ان يكون لليهود وطن قومي كي يتمكنوا من العيش الهادىء ، وإلاّ فإنّ اية « ولاية غـير اسلامية لا تستطيع ان تعيش بحرية وتمارس معتقداتها الدينية تحت سيطرة « اسلامية بحت » (١) .

وفي اليوم نفسه ، نعم في اليـوم نفسه ، في ٢١ حزيران عام ١٩٤٨ ، صدرت النشرة المزدوجة من محاضرات دار الندوة (٢) فيها محاضرة للسيد فؤاد افرام البستاني الموظف في وزارة التربية الوطنيه بالجمهورية اللبنانية ، عن مار مارون يقـول فيها :

« حتى اذا اطلت طلائع الصليبيين (على لبنان) امكن الموارنة ان يمدوهم بثلاثين الف « نبّال ، أجمع الفرنجة على الاعجاب بشجاعتهم ومهارتهم ... فالمارونية بنت لبنان ، ولبنان « في الكثير من مزاياه وخصائصه صنع المارونية ... فلا وطن لها سواه ولا كيان له بدونها... (٣) « فهما ثابتان على كرور الايام ، لا انتقاصا من حق قريب ولا عداءً لجار ، مندفعان ولا تهور ، « صابران ولا يأس راجيان ولا غرور !. » (٤) .

فمن قـام ، ممن يحب هذا الوطن ، وقـال لهذين : نحن في سبيل كـفاح قومي فمن العيب ان تكتبا ما كتبتما ؟ ولكن لما احببنا نحن المؤلفين ان ندافع عن قومنا و بلادنا وان نقول للمصلحين : هذا مكمن الخطر ! قيل لنا هذا عيب .

---

(١) مجلة بيروت المساء ، بيروت ، في ٢١ حزيران عام ١٩٤٨ ، الصفحة ٥ ، نقلا عن مجلة Paris-Soir الباريسية .

(٢) السنة الثانيه ، النشرتان ٥–٦ (بيروت) ٢١ حزيران ١٩٤٨ ، ص ١٦٧ ، ١٦٩ .

(٣) هذه النقط من اصل المحاضرة .

(٤) كذا بالاصل . القريب : المسلم في لبنان . جار : الجار : السوري . صابران : اي على الوضع الراهن . راجيان : اي لتبدل الحال ... (وهذه الجمل تحتمل من المعنى اكثر من ذلك مما لا يخفى على المتبصر في العواقب) .

هنا نود ان نثبت كلمة — في هذا المعنى — ظهرت في مجلة كل شيء[1]، عصرها كاتبها من قلبه ومن قلب كل مخلص في هذا الوطن . هذه الكلمة ، التي تصور حالنا وحال اخواننا غداً ، هي :

كل اسبوع

الحق أننا نعيش في زمن تنقلب فيه الاوضاع ايما انقلاب ، وتنعكس مفاهيم الاشياء ايما انعكاس .

وقد اصبح علينا في هذه الغمرة من اختلال المقاييس وتشويه القيم ، ان نصطلح على معنى واحد واضح لكلمة « العيب » في لبنان .

فلا يكاد احدنا يأتي عملا او يقول قولا[2] حتى تنقبض بعض الوجوه وتنطلق بعض الالسن : « عيب ، عيب »...

عيب ان نعتب على « المطران »[3] ، وليس بعيب على سيادته ان ينشىء في لبنان سفارة لاسرائيل !

عيب ان نعتب على وزير مسؤول لارساله « برقية حكومية رسمية » بالتعزية في سمسار لليهود ، وليس بعيب ان يبعث بهذه البرقية الوزير المسؤول!

عيب ان نطالب الحكومة بما يحدد موقفها من الاتهامات الكبرى التي توجه علنا في في دمشق الى « شخصيات لبنانية » ، وليس بعيب ان تلزم الحكومة في هذا الأمر جانب الصمت العميق ...

عيب ان يرتفع صوت المرء بالعقيدة التي يؤمن بها ، والفكرة التي يعتنقها ، ويعمل صادقاً من اجل العقيدة والفكر ، وليس بعيب ان يصبح المرء دونما عقيدة ولا فكر بعد ان كان من ابطال العقائد والافكار ...

---

(١) مجلة « كل شيء » (بيروت) ، العدد ١١٩ ، السنة الثالثة ، الجمعة ٨ تموز ١٩٤٩ ، الصفحة الاولى . وقد ظهرت هذا الكلمة بلا توقيع .

(٢) المقصود : عملاً في دفاع عن كرامة وقولا فيه مطالبة بحق .

(٣) المطران مبارك ، وكان قد كتب كتاب توصية بافراد الى بعض الهيآت الاسرائيلية .

وعيب بعـد ذلك ان نقول للاعور اعـور ، وليس بعيب ان نزيد الأعـور عمى في البصر والبصيرة ...

هكذا تصبح المقاييس عندنا في آخر الزمان ...

... عيب صحيح عيب !

* * *

على ان الواقـع يقضي بأن نقول إن الشيخ بطرس الجميل[1] قد قال لاحدنا الدكتور عمر فروخ ، انه والـكثيرين من ذوي الرأي لا يقرون المطران مبارك على اقواله واعماله ، وانهم قدعاتبوا المطران مبارك عتاباً مراً . الا ان هذا العتاب ناقص في نظر المخلصين في هذا الوطن، او انه لم يَنْهَ هؤلاء عن الاستمرار في ضلالتهم. ثم ان هذا العتاب لم يؤد غايته الشكلية على الاقل ، لانه لم ينشر فيُعرَف !

هذه كلمة عتاب نسوقها الى اخوان سيقولون لنا ماسيقولون، أوعلى الاصح قد قالوا لنا ما قالوه، ولكننا لا نشك في انهم — اذا قرأوا هذا الكتاب — سيعودون الى الانصاف، وسيدركون ان سوانا كان احرى بوضع هذا الكتاب للرد على المفترين. ولكن لما لم يسد هذه الثغرة احد ممن يجب ان يسدها لم يبق ثمت مندوحة عن ان نتطوع نحن للقيام بهذا العمل .

من اجل ذلـك كله احببنا ان نجلوَ وجه الحقيقة فوضعنا هذا الكتاب : انه من الخيانة ان نترك كياننا في مهب الخطر بسكوتنا عن مكمن هذا الخطر. اننا نعرف أن اسلاك هذا الخطر يمتد في خارج الوطن العربي كله وتمتد اليه ايضاً . فواجبنا اذن ان ندل على ذلك .

ولعل اروع ما نضرب به من الامثال ان العالم العربي والعالم الاسلامي قد اجمعا على انقاذ فلسطين من براثن الصهيونية ، ذلـك الخطر المشرف على الشرق كله[2] ، اما موضع العجيب فان المبشرين والذين يشايعون المبشرين عندنا ما زالوا يعملون على الانتصار لليهود كرهاً بالعرب ، مع ان خطر الصهيونية ليس خطراً على العرب بل على غير العرب ايضاً ، ولا هو خطر على الاسلام فحسب بل على النصرانية كذلك ، ولا هو خطر على الشرق وحده بل على الغرب والشرق معاً.

---

(١) رئيس حزب (منظمة) الكتائب اللبنانية .

(٢) هذا القسم كتب قبل حرب فلسطين ، اذ كان قد بدىء به في آب ١٩٤٤ .

واخيراً ، اذا كان المبشرون واتباع المبشرين قد وضعوا عشرات الالوف من الكتب وملأوها بالطعن على العرب و بالنيل من الاسلام ، يستعملون التجني والمكابرة في ذلك ، فان من حق عربيَّيْن مسلمَيْن ان يضعا كتاباً واحداً ، وفي حدود العلم والادب ايضاً ، يدافعان به عن قومهما ودينهما في وجه المبشرين وصنائع المبشرين. وهؤلاء اليوم هم انشط منهم في كل وقت آخر ، بل هم قد انتهزوا محنة فلسطين ليتخذوها سلماً الى قهر العرب والنصارى والمسلمين الذين يعتزون بقوميتهم العربية وتضامنهم الوطني .

ونحب ان نقدم هنا مثلين اثنين عن تأثر المؤسسات الغربية ، التي تسمى انسانية ، بالعداوة التي تحملها للشرق .

ان العرب كلهم يخوضون اليوم حرباً ضد الصهيونيين. والحرب ضد الصهيونية في حقيقتها معركة من معارك استعمار الشرق. ولقد ارغم العرب في اثناء هذه الحرب على هدنة اربعة اسابيع (١) ، اخذت فيها المؤسسات الغربية كلها تساعد اليهود ، حتى مؤسسة الصليب الاحمر الدولي . والمفروض في مؤسسة الصليب الاحمر ان تؤاسي الجرحى أيّاً كان دينهم وأيّاً كان جنسهم. ولكنّ هذه هي مهمة الصليب الاحمر خارج الشرق ، اما في الشرق وفي الحرب بين العرب واليهود فمهمته الاجهاز — عملياً ومن سبيل الاهمال — على العرب ثم مساعدة اليهود .

نشرت جريدة الديار (بيروت ، السنة الرابعة ، العدد ١٦٢٨ ، الصادر في ٧ تموز ١٩٤٨ ، الصفحة الثانية) احتجاجاً للدكتور جورج حنا رئيس لجنة اغاثة فلسطين في بيروت وعضو جمعية الصليب الاحمر اللبناني واحد الكتاب الاحرار الانسانيين نثبته كاملاً في ما يلي :

حتى الصليب الاحمر الدولي يتحيز لليهود

كتاب الدكتور جورج حنا رئيس لجنة اغاثة فلسطين

حضرة المركيزة دو فريج رئيسة جمعية الصليب الاحمر اللبناني المحترمة .

تحية واحتراماً و بعد . ارى من واجبي ان أُطلع حضرتك على المعلومات التي وصلتني

(١) راجع الحاشية ٢ من الصفحة ٢٣ .

مؤخراً عن مستشفى الصليب الاحمر اللبناني الموجود في عكا . وانه ليؤسفني جداً بهذه المناسبة ان اتقدم بالشكوى المرة من الاهمال الذي يبديه الصليب الاحمر الدولي تجاه المستشفى المذكور بالرغم عن اني فهمت ان مؤسستكم كانت كلفته برعايته بعد احتلال عكا من قبل القوات الصهيونية . فعدا عن ان الصليب الاحمر الدولي لم يهتم باعادة الاطباء والممرضات والمساعدين اللبنانيين الى لبنان كما تفرض عليه رسالته الانسانية فانه ما زال يبرهن عن تغاضيه عن مساعدة هؤلاء اللبنانيين الذين دفعتهم انسانيتهم لتحمل المشاق لمساعدة الجرحى والمنكوبين . وفيما نرى الصليب الاحمر الدولي يعني بتموين ورعاية الجرحى واللاجئين والمحاصرين من اليهود فهو يتظاهر بالعجز عن مساعدة مستشفى الصليب الاحمر اللبناني .

ان جميع المعلومات التي وصلتنا من مصادر لا يشك بثقتها تدل على ان الاشخاص العاملين في مستشفى الصليب الاحمر اللبناني في عكا والمحجوزين فيها يقاسون العذاب والحرمان وان اولئك الابطال الانسانيين مهملون من قبل الصليب الاحمر الدولي المفروض فيه ان يكون عوناً لهم فالصليب الاحمر الدولي على ما اعلم مؤسسة انسانية عالمية لا تفرق بين الجهات المختلفة ولو كانت متحاربة . وهذا ما لا نراه مع الأسف في الحالة القائمة في فلسطين. لذلك :

١ — ارفع احتجاجي على تصرفات الصليب الاحمر الدولي في فلسطين وعلى تغاضيه عن الاهتمام ببعثة الصليب الاحمر اللبناني في عكا وتحيزه للجانب اليهودي .

٢ — اسأل الصليب الاحمر اللبناني فيما اذا كان يرضى عن هذه المعاملة المغرضة وهو عضو في الصليب الاحمر الدولي .

٣ — بوصفي عضواً في الصليب الاحمر اللبناني اطلب بالحاح رفع احتجاج صارخ الى المقر العام للصليب الاحمر الدولي والى الوسيط الكونت برنادوت .

٤ — بذل جميع المساعي لاعادة الاطباء والممرضات والمساعدين اللبنانيين فوراً .

٥ – في حال سكوت الصليب الأحمر الدولي عن اجابة هذا الطلب اقترح ان تخابر مؤسسات الهلال الاحمر العربية وايقافها على حقيقة الامر لاتخاذ اللازم مع مؤسسة الصليب الاحمر الدولي » .

*

على ان احتجاج سيادة المطران جاورجيوس حكيم[1] ، مطران حيفا وعكا والناصرة وسائر منطقه الجليل لطائفة الروم الكاثوليك ، كان اشد وادل على فقدان العنصر الانساني في تلك المؤسسات الانسانية ، اذا اصطدمت مصالح دولها في الشرق . قال المطران حكيم يذكر حال العرب في فلسطين بعد الحرب الصهيونية ويشير الى مدينة عكاء خاصة .

« ان حالتها تدمي الفؤاد اذ ان العرب فيها ، وعددهم ثلاثة الاف عربي تقريباً محصورون بين اسوار البلدة القديمة وحالتهم الصحية والغذائية سيئة للغاية . وقضاء عكا في حالة يرثى لها،فالعرب الباقون فيه يعاملون كالحيوانات لا يهتم بهم احد ولايجد معظمهم مسكناً او مأوى ، كما لا يجد مرضاهم اي نوع من العناية ».

وعاد المطران حكيم يوجه اللوم الى مؤسسة الصليب الاحمر التي تعمل في خدمة اليهود ثم هي تهمل العرب عمداً ، فقال متألماً : آسف ان يعمل الصليب الاحمر الدولي تحت راية الصليب »[2] .

* * *

وسيرى القارىء في فصول هذا الكتاب ايضاً ان المبشرين يتسترون بنشر العلم وبالتطبيب المجاني والاعمال الاجتماعية وما الي ذلك في سبيل غاية واحدة : انهم يريدون ان ينفذوا من خلال هذه المظاهر الى تحطيم الجدار الاسلامي لينفذوا من خلاله الى الحقل القومي ، وبما ان هذا الجدار قد اثغر الآن ثغرات متعددة، فقد وجب العمل على سد هذه الثغرات قبل ان ينهار الجدار كله.

---

(١) جريدة الديار ، العدد ١٦٢٦ ، الاحد ٤ تموز ١٩٤٨ .

(٢) مجلة « كل شيء » (بيروت) ، السنة الثانية ، العدد ٦٨ ، ٩ تموز ١٩٤٨ ، الصفحة الاولى ، تحت صورة الكونت برنادوت .

من اجل ذلك نرى ان لوضع هذا الكتاب مبرراً عظيماً ، بل ان وضعه قد اصبح واجباً علينا لنفتح اعين قومنا على الخطر الحقيقي للمبشرين بين العرب خاصة وفي الشرق عامة . وكذلك يجب ان نعلم ان الصهيونية ايضاً ليست شيئاً سوى وسيلة من الوسائل التي يحاول الغرب بها ان يستمر في استعباد الشرق العربي بعد تصديع جداره وتجزئة رقعة ارضه. ان هذا الكتاب اذن ليس كتاباً «هدّاماً»، ولكنه محاولة مخلصة لكشف الستار عن «الهدامين». انه واجب نقوم به في سبيل امتنا وقومنا ووطننا .

١٣ رمضان ١٣٦٨ المؤلفان

٩ تموز ١٩٤٩

الفصل الاول

بواعث التبشير الحقيقية

يظن بعض الناس ان المبشرين يأتون الى الشرق لنشر الدين على انه هدفهم الاسمى والحق ان نشر الدين امر ثانويٌ جداً في جميع الحركات التبشيرية. قد نجد اشخاصاً قليلين يموّلون حملاتٍ تبشيرية على الشرق، ثم افراداً قليلين آخرين ايضاً يأتون في هذه الحملات لينشروا الدين حباً بنشر الدين واعتقاداً منهم بأنهم يقومون بعمل سامٍ. على ان الكثرة لمطلقة من الذين يموّلون تلك الحملات، ومن الذين يأتون فيها، لا صلة بين اهدافهم الحقيقية او بين الدين الذي يزعمون انهم قد جاءوا لنشره.

اننا اذا تأملنا العالم الغربي وجدناه عالماً ملحداً لا يؤمن بدين، وعالماً مادياً لا يعرف للروح معنىً: ان امريكة التي تعبد الحديد والذهب والبترول — كما يقول امين الريحاني — قد غطت نصف الارض بمبشرين يزعمون انهم يدعون الى حياة روحية وسلام ديني. و بينما نرى فرنسة دولة علمانية في بلادها نجدها الدولة التي تحمي رجال الدين في الخارج. ان اليسوعيين المطرودين من فرنسة هم خصوم فرنسة في الداخل واصدقاؤها الحميمون في مستعمراتها. وكذلك ايطالية، التي ناصبت الكنيسة العداء، وحجزت البابا في الفاتيكان، كانت تبني جميع سياستها الاستعمارية على جهود الرهبان والمبشرين. حتى الروسية السوفياتية التي تدعو في بلادها الى الالحاد ومحاربة الاديان — كما يقال — رأيناها، بعد الحرب العالية الثانية، حينما ارادت ان تحقق لنفوذها توسعاً اقليمياً وسياسياً، قد تظاهرت بالعطف على رجال الدين ودعت الى مجمع مسكوني في موسكو وحملت اليه المؤتمرين في طائراتها. ثم شرّف

ستالين نفسه اولئك المؤتمرين بمقابلته . وكثيراً ما كان الرجال العسكريون من الانكليز خاصة يحضّون حكوماتهم على بث المبشرين في العالم ، كما نصح الجنرال هايغ للحكومة البريطانية ان ترسل مبشريها الى شبه جزيرة العرب (١) .

حتى الافرادُ الذين ينتشرون في الارض للتبشير بزعمهم لم يأتوا في واقع الأمر للتبشير. ان منهم من يحب المغامرات والاسفار ، ومنهم من يطمح الى السيطرة الشخصية على من حوله ، ومنهم من يحب فرض رأيه على الآخرين (٢) . فاذا لم يستطع احدهم ان يفعل ذلك في بلاده ، ولم يملك ان يفعله باسمه هو في خارج بلاده ، خرج الى العالم تحت ستار التبشير ليشبع اطماعه الشخصية . وكثيراً ما كشفت الجمعيات التبشيرية عن اطماع المبشرين الشخصية واكتشفت بينهم المَكَرَةَ ، او الذين احبوا ان يستغلوا الجمعيات التبشيرية ليسافروا في العالم على حسابها ، وهم في الحقيقة تجار او رجال دعوة (اجتماعية او اقتصادية) لا صلة لها بالتبشير (٣) . بل ان ثمت شيئاً اكبر من ذلك : ان هؤلاء لا يتحلّون بالاخلاق الحميدة . كتب الشاعر القروي المجيد رشيد سليم الخوري في مجلة « العصبة الاندلسية » (٤) يتكلم باسم النصارى الذين يتألمون — كالمسلمين ايضاً — من اضرار المبشرين كلهم والبروتستانت خصوصاً ويقول : « اما من الناحية الدينية فان اقامتي الدليل على عدم نزاهتهم لا تقتضي ان اكون بارعاً في الجدل او عالماً شهيراً بالتاريخ ...! ان طوائفنا العديدة .. قد زيدت بفضل تعرفنا على الرسالة الامريكية طائفة جديدة اسمها الطائفة الانجيلية ... وكم انفق الامريكيون ... لكي يعرفونا بمواطننا السيد المسيح وبدينه ... كأننا اشد افتقاراً الى فضائل المسيحية من الامريكيين انفسهم ! »

والمؤلفون عادة لا ينكرون ان التبشير قد اتخذه الكثيرون آلة للتجارة والسياسة ، وان المبشر الاميركي خاصة لم يستطع ان يتحرر من نفوذ حكومته وغاياتها .

---

(1) Jessup 530.
(2) *Re - Thinking Missions* 9.
(3) *cf. ibid* 10.

(٤) عام ١٩٤٧ ، العدد الرابع .

وكثيراً ما غادر المبشر جمعية الى جمعية حسب اهوائه ، فان وليم بلغرايف[1] الانكليزي قد دعته اطماعه الخاصة الى ان ينقلب راهباً يسوعياً ويجادل البروتستانت قومه. ولما استغنى عن اليسوعيين عاد بروتستانتياً ، حتى انه سمي « الحرباء »[2] .

وليس هذا فقط ، بل ان من المبشرين نفراً يسعَون وراء اطماع ومغامرات شخصية شوهت اسم النصرانية في الشرق[3] . فلقد ذكر جسب في كتابه الذي طبع ١٩١٠ انه قد ثبت على اليسوعيين مؤخراً انهم فضحوا فتاتين من طائفة الروم الارثوذكس واخفَوْهما حيناً ، ولكنهم أرغموا على ردهما بعدئذ لاهلهما[4] . ويهاجم جسب نظام الاديرة كله ويذكر انه كان لعنة على سورية ، ثم يقول ان بعض هذه الاديرة كان مستقراً للفاحشة[5] .

على ان جميع المبشرين ، سواء أكانوا انتهازيين دنيويين ام كانوا مخلصين في مهمتهم ، تتميز كل فرقة منهم بعداوة شديدة نحو العرب والمسلمين ، وبعداوة ظاهرة نحو اهل الفرق النصرانية المباينة لفرقتهم ايضاً .

أ- الحروب الصليبية

ولا ريب في ان مردّ هذه العداوة الشديدة انما هو الحروب الصليبية . على ذلك اجمع مؤرخو التبشير كلهم ، وهم في ذلك على صواب . ثم ان هذا يؤيد ما ذهبنا اليه من ان العداوة دنيوية سياسية لا صلة لها بالدين. ان المبشر جَسَبْ مثلاً يودّ أن لو يمّحي الاسلام من العالم[6] .

---

(1) William Gifford Palgrave.
(2) Jessup 295.
(3) *Re-Thinking Missions*, p. 13.
(4) Jessup 433.
(5) Jessup 679-680.
(6) *Cf* Jessup 463, 581-2.

خطر الوحدة الاسلامية على الغرب

يرى بعضهم أن السبب الاساسي في هذا الكره انما هو بلا ريب راجع الى العداوة التي اثارها الصليبيون (١)، وان المسلمين لا يزالون متأثرين بموقف الدول النصرانية من الاسلام في اثناء الحروب الصليبية (٢). الا ان المستشرق الالماني كارل بكر يرى السبب ابعد قليلاً من ذلك، انه يرى ان الاسلام لما انبسط في العصور الوسطى اقام سداً في وجه انتشار النصرانية ثم امتد الى البلاد التي كانت خاضعة لصولجانها (٣). وقريب من هذا ما رآه غاردنر (٤). ان القوة التي تكمن في الاسلام هي التي تخيف اوروبة. ويحاول المبشرون ان يَرَوْا العداوة بين الاسلام وبين الغرب دينية، ولكن الحقيقة لا تلبث ان تظهر في فلتات ألسنتهم فاذا هي سياسية. إن يوليوس رشتر يؤنب النصارى على قصر نظرهم في اثناء الاعصر المتطاولة التي تلت ظهور الاسلام، فانهم كانوا فيها وادعين غافلين بينما كانت الامبرطورية البيزنطية (الرومانية الشرقية) تغيب شيئاً فشيئاً في الامبراطورية الاسلامية حتى سقطت القسطنطينية نفسها عام ١٤٥٣ بيد الاتراك العثمانيين (٤). ولا ريب في ان رشتر يتألم للناحية السياسية، لانه هو نفسه يذكر ان سكان الامبرطورية الشرقية كانوا نصارى بالاسم (٥)، اضف الى ذلك انه كان مبشراً بروتستانتياً بينما سكان الامبرطورية الشرقية كانوا على المذهب الارثوذكسي.

ولكن كل ما ذكرناه يعود الى قبل الف عام من الدهر، فهل ثمت مبرر لاستمرار هذه العداوة الى ايامنا هذه؟

اذا اعتبرنا ان اساس العداوة سياسي دنيوي لا روحي ديني ايقناً ان هذه العداوة من المبشرين نحو الاسلام لا يزال لها مبررٌاتها. لقد أبرز لورنس بروان هذا الموقف في صورة

---

(1) Levonian 126.
(2) *cf* Levonian 109; Schermerhorn 43; Gairdner 233.
(3) Becker I, 3.
(4) Gairdner 308 f.; *cf* MW, Apr. '37, pp. 167 - 168.
(5) Richter 13, 14, 271-2; *cf.* Addison 3.
(6) Richter 14.

واضحة حينما قال : « اذا اتحد المسلمون في امبرطورية عربية امكن ان يصبحوا لعنة على العالم وخطراً ، او امكن ان يصبحوا ايضاً نعمة له . اما اذا بقوا متفرقين فانهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير (١) . أما القس سيمون (٢) فكان اوضح في التعبير لما قال ان الوحدة الاسلامية تجمع آمال الشعوب السمر (كذا) وتساعدهم على التملص من السيطرة الاوروبية . **ولذلك كان التبشير عاملا مهما في كسر شوكة** هذه الحركة، ذلك لان التبشير يعمل على اظهار الاوروبيين في نور جديد جذاب ، وعلى سلب الحركة الاسلامية من عنصر القوة والتمركز فيها : **اذا كانت الوحدة الاسلامية تكتلا ضد الاستعمار الاوروبي، ثم استطاع المبشرون ان يظهروا الاوروبيين في غير مظهر المستعمر، فان الوحدة الاسلامية حينئذ تفقد حجة من حججها وسبباً من اسباب وجودها.** من اجل ذلك قالوا يجب ان نحوّل بالتبشير مجاري التفكير في الوحدة الاسلامية حتى تستطيع النصرانية ان تتغلغل في المسلمين (٣) .

وعلى هذا الاساس اصبح الاتراك خطراً على اوروبة منذ دخلوا في الاسلام ، لا لانهم مسلمون بل لانهم قد اصبحوا قوة تستطيع ان تقف في وجه الأطماع الاوروبية (٤) . حتى السنوسية ، وهي فرقة من المرابطين — المجاهدين — نشأت في طرابلس الغرب ، قد اصبحت على قلة اشياعها وقلة انتشارها قوة ترهب الاستعمار (٥) ، لا لشيء الا لان الإتحاد قوة تفسد على المستعمرين اعمالهم . **ولقد بالغ المبشر صموئيل زويمر (٦) حينما هاله ان يرى نفراً من النصارى يدعون الى مصادقة المسلمين في الصين . ان هذه «الصداقة» في رأي زويمر تخلق في نفس النصارى جبناً من التبشير (٧) .**

---

(1) *cf.* Browne, 37; *cf.* Islam and Missions 44-48.
(2) Rev. G. Simon.
(3) *Islam and Missions* 93, 98, 99.
(4) Addison 59.
(5) *Islam and Missions* 48
(6) Samuel M. Zwemer.
(7) MW, Apr. '28, pp. 109 ff.

على ان اليسوعيين لا يريدون ان يتنازلوا عن روحهم الصليبية ، انهم لا يزالون يذكرون المبشر بلغة فخمة ملونة مملوءة بالحقد والضغينة والاستفزاز . انهم يقولون[١] : ويأتي المبشر تحت علم الصليب ... يحلم بالماضي وينظر الى المستقبل وهو يصغي الى الريح التي تصفر من بعيد ، من شواطىء رومية ومن شواطىء فرنسة . وليس من احد يستطيع ان يمنع تلك الريح من ان تعيد على آذاننا قولها بالامس وصرخة اسلافنا (الصليبيين) من قبل : ان الله يريدها[٢] .

هذا قول قاله الاب شانتور الذي رَأَسَ الكلية اليسوعية في بيروت زمناً طويلاً في ايام الانتداب وظل في منصبه سنين طوالا بعد ذلك . لقد كان الاب شانتور ذا نفوذ ضخمه له المستعمرون فاستخذى امامه الحكام . وقلما صعد احد منهم كرسياً الا اذا كان الاب شانتور يراه اهلاً لتنفيذ سياسة الانتداب . ويمكننا ان نعرف سياسة اليسوعيين من كلمة واحدة قالوها . انهم قالوا : يجب ان تكون الادارة الافرنسية في العلويين (وفي غير بلاد العلويين ايضاً) تتمة للاحتلال الصليبي[٣] .

لقد رأى القارىء بلا ريب ان المبشرين يمزجون الدين بالسياسة . ولكنه رأى ايضاً وراء كل ريب ان الدين كان الوسيلة ، اما السياسة فكانت الهدف الحقيقي . والسياسة هنا معناها استعباد الغرب للشرق .

افتراءات المبشرين

لا نريد ان نجعل هذا الكتاب تاريخاً للتبشير ، ولكننا نريد ان نبين ما جره التبشير من المضارّ القومية والاجتماعية على العرب خاصة والمسلمين عامة . وكذلك لن نأخذ انفسنا بالرد على سخافات الذين ألفوا الكتب في الطعن على العرب والاسلام ، لاننا سنضطر حينئذ الى ان

---

(1) *Les Jesuites en Syrie* 10 : 8.

(٢) حينما جاء الصليبيون الى الشرق كانوا يرددون صرخة واحدة : ان الله يريدها ، اي ان الله هو الذي اراد الحرب الصليبية .

(3) *Les Jesuites en Syrie* 10 : 13.

نكتب مجلدات كثاراً . ولكننا نحب هنا ان نقول ان بوسع كل انسان ان يأخذ كل شخصية في العالم وكل فكرة في التاريخ ثم يتهكم عليها حقاً او باطلاً ، او ينسب اليها المطاعن والافتراءات بلا دليل . والذي لاحظناه في مئات مما كتبه المبشرون من الكتب انهم لا يحجمون عن الاستهزاء والتهكم على كل مظهر من مظاهر الاسلام ، ثم هم ينكشفون عن جهل فاضح ، سندل على بعضه في الصفحات التالية . ونحن بعدُ لن نقيس ايمانهم بمقدار علمهم .

من جهل المبشرين و بعدهم عن العلم انهم اذا بحثوا في الدين لم ير احدهم لغير مذهبه هو فضلاً ولا حقاً في الوجود ، ثم هم يحبون ان نلقى اقوالهم بالاذعان والتسليم . ومما نذكره هنا ما اتفق لاحدنا لما كان في اوروبة ، قال : لقيت نفراً مثقفين كانوا يحبون شيئاً من المناقشة في الدين . ولقد اتفق مراراً ان تناول البحث صاحبَ الرسالة الاسلامية ، فكنت اقول : « محمد رسول الله » . وربما احب أحدهم ان يتهكم فيقول لي :

« وانت الرجل المثقف تريد ان تبحث بحثاً علمياً ثم تدعي ان محمداً « رسول الله » بلا دليل عقلي علمي ! » وعلمت ان المنطق لا ينفع مع صاحبي ، فكنت أقول له (وقد اتفق لي ذلك مراراً) : « ولكن يا اخي ، اتنكر علي — في باب البحث العلمي — أن اقول : محمد « رسول الله » بينما انت تقول : « ان المسيح هو الله ؟ » فيبهت صاحبي ، ثم نستمر في نقاشنا .

من اجل ذلك ترى احدهم اذا تكلم عن المسلمين قال عنهم انهم « اعداء الصليب واعداء الديانة الكاثوليكية »[1] ، ظاناً انه ألحقَ بهم سُبّة . ثم لا يفوته ان يذكر جريدة البشير فيقول عنها[2] انها زعيمة الصحافة الكاثوليكية في الشرق ، لنشر الامور الكاثوليكية في الدرجة الاولى ، ثم الامور المسيحية الاخرى ، ثم الردود (على الاسلام طبعاً) . وجريدة البشير جريدة صفراء كانت تصدر في بيروت حتى اواخر عهد الانتداب ثم توقفت على الصدور اختياراً لانه لم يبق مجال لصدورها في هذا الشكل الاستعماري الكاره لكل تقدم قومي والداعي الى

(1) *Les Jesuites en Syrie* 6 : 29,30.
(2) *ibid.* 6 : 31.

التفرقة بين ابناء الوطن الواحد . ولقد كان توقفها عن الصدور حسنة من حسنات الاستقلال الذي ينعم به لبنان الآن .

ومن اشد اعداء العرب والمسلمين رجل ارمني اسمه لطفي ليفونيان ألف بضعة كتب للنيل من الاسلام . ومع ان العلم قليل في كتبه ، فانه خص هذه الكتب باستعراض اركان الاسلام والتهكم عليها . ويبلغ بلطفي ليفونيان الجهل الى ان يقول ان المسلمين جهلة لانهم يعتقدون التنزيه في الله تعالى [١] . والتنزيه في علم العقائد الدينية هو ان تنفي عن الله سبحانه وتعالى صفات هي للبشر كالجسم والانف واللحية .

ومن الامور التي تستحق التفكه بها قول مبشر اسمه نلسن [٢] يزعم فيه ان الاسلام مقلّد ، وان احسن ما فيه مأخوذ من النصرانية ، وسائر ما فيه اخذ من الوثنية كما هو او مع شيء من التبديل [٣] . ويبلغ التدجيل ذروته بمبشر اسمه المحترم جون تاكلي [٤] إنه يقول عن المسلمين : يجب ان نستخدم كتابهم (اي القرآن الكريم) ، وهو امضى سلاح في الاسلام ، ضد الاسلام نفسه لنقضي عليه تماماً . يجب ان نُري هؤلاء الناس ان الصحيح في القرآن ليس جديداً وان الجديد فيه ليس صحيحاً [٥] .

اما المبشر الاميركي جِسَب فيقول : ان الاسلام مبني على الاحاديث اكثر مما هو مبني على القرآن . ولكننا اذا حذفنا الاحاديث الكاذبة لم يبق من الأسلام شيء وصار اشبه بصُبَيرة طومسون [٦] .

وطومسون هذا رجل اميركي جاء الى لبنان فقُدّمت له مرة صبيرة فحاول ان ينقيها من البذر . فلما نقى منها كل بذرها لم يبق في يده منها شيء .

(1) Levonian 68
(2) W.S. Nelson
(3) *Islam and Missions* 43
(4) Rev. John Takle
(5) *Islam and Missions* 217 f.
(6) Jessup 697 f.

ويتعرض المبشرون عادة بعقليتهم هذه لتفسير القرآن الكريم ويكثرون من الانتقاد والتهكم . زعم فريدريك بلس [١] ان القرآن الكريم لم يفرق بين مريم والدة عيسى عليه السلام وبين مريم ابنة عمران ، اخت موسى وهرون [٢] . ويقول بلس : خاطب القرآن مريم على لسان قومها بعد ان ولدت عيسى ولم يكن لها زوج بقوله « يا أُختَ هرونَ ما كان ابوكِ امرأَ سوْءٍ وما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً » [٣] . ثم انه قال : كيف يمكن ان تكون مريم اخت موسى التي عاشت قبل المسيح بالف واربعمائة سنة هي ام المسيح . ولكن بلس لم يعرف ان هذا من باب الكناية في علم البلاغة ، ومؤداه مريم التي تشبه (في العفة) ابنة عمران اخت هرون ، كما نقول نحن مثلاً : « يا أخا العَرَب » مدحاً لرجل لا صلة له بالعرب أحياناً .

وكذلك اساء ادولف فيزمار [٤] ، وهو دكتور في الفلسفة ، فهم قوله تعالى يخاطب رسوله الكريم : « أفأنْتَ تُكْرِهُ النّاسَ حتّى يكونوا مؤمنين » [٥] . ولم يفهم معناها الصحيح البسيط وانها استفهام انكاري لا استفهام عادي . كأن تقول لانسان : الا تحب ان تكون من الناجحين !

الاسلام والسيف

وبعد الاخطاء الدالة على جهل المبشرين تأتي سلسلة طويلة من التحامل والافتراء . واشهر هذه التهم ان الاسلام قام بالسيف [٦] . قال نلسون [٧] : واخضع سيف الاسلام شعوب افريقية وآسية شعباً بعد شعب [٨] . ويزعم لطفي ليفونيان ان تاريخ الاسلام كان سلسلة

«1» - Frederick Jones Bliss
«2» Bliss (R) 174
(٣) القرآن الكريم ، السورة ١٩ (مريم) : ٢٨
«4» Adolph H. Wismar Ph. D.
(٥) القرآن الكريم ، السورة ١٠ (يونس) : ٩٩
«6» Richter 21. and others.
«7» Rev. W.S. Nelson.
«8» *Islam and Missions* 43.

مخيفة من سفك الدماء والحروب والمذابح [1] . ولا اريد ان استشهد بكل ما قيل في ذلك ، ولكني احب ان اجلو النقطة التالية فقط .

قسم الاسلام الناس عرباً وغير عرب . اما العرب فلم يكن يُقبل منهم الا الاسلام ، فمن ابى منهم ذلك قتل . وذلك واضح في تسع وعشرين آية من سورة براءة او التوبة [2] . هذه الآيات تتعلق بمشركي العرب ، ذلك لان الدين الذي نشأ في بلاد العرب وجب ان يعتنقه جميع العرب . اما من ليسوا عرباً من اليهود والنصارى فان الاسلام يُعرض عليهم ، فان قبلوه فذاك وإلا فهم احرار يعيشون مواطنين للمسلمين . فالاسلام اذن لم يعرض على البشر كلهم بالسيف ، وانما عُرِضَ عليهم فقط . اما العرب خاصة فلم يقبل منهم الا الاسلام . ذلك كله معروف في مواضعه من القرآن الكريم .

واما الذين يتعرضون لشخص الرسول صلى الله عليه وسلم بالافتراء فمبشرون كثيرون جداً ، بل كل المبشرين . فقد قال ف.ج. هاربر [3] : إن محمداً كان في الحقيقة عابد أصنام ، ذلك لان ادراكه لله كان في الواقع « كاريكاتور » [4] . وسماه بعضهم « كذّاب مكة » [5] . ومنهم من زعم ان محمداً لم يستطع فهم النصرانية ، ولذلك لم يكن في خياله منها الا صورة مشوهة بنى عليها دينه الذي جاء به الى العرب [6] .

اما المسلمون فيقول عنهم هؤلاء المبشرون إنهم لا يفهمون الاديان ولا يقدِّرونها قدرها [7] . ثم ليس الاسلام فيما زعموا إلاّ مزيجاً مشوهاً من الآراء والمدركات الخاطئة [8] . وكذلك قال آخرون عنهم انهم لصوص وقتلة [9] ومتأخرون ، وان التبشير سيعمل على تمدينهم [10] .

«1» Levonian 9

(٢) القرآن الكريم ٩ : ١ - ٢٩ .

«3» F. J. Harper
«4» *Methods of Mission work among Moslems* 25
«5» Addison 178
«6» Addison 18
«7» *Re-Thinking Missions* 16
«8» Garrison 66 f.
«9» Jessup 581 f.
«10» Milligan 171-173

وهنالك مزعم ثالث ، هو ان الأسلام تنقصه الناحية الروحية ، وانه دين ماديّ . حتى اليهودية ليست عند هؤلاء ديناً مادياً [١] كالاسلام . وكذلك يزعم هؤلاء ان الاسلام نظام شرعي [٢] اكثر منه نظاماً اخلاقياً روحياً . ان الواجبات الدينية والخلقية على ما يزعم هؤلاء فرضت على المسلمين فرضاً ، وكل ما يستطيع المسلمون ان يفعلوه هو ان يؤدوا هذه الفروض كما فرضت عليهم [٣] . ويبدو جهل المبشرين في مزعم آخر ، وهو ان المسلم يتزوج اربع نساء كما يشاء ثم يطلقهن كما يهوى لسبب او لغير سبب [٤] . ويتوسع بعضهم في هذه المزاعم فيقول جسب مثلا ان المسلمين قد حكموا على المرأة بان تبقى جاهلة ثم انهم يضربونها على هذا الجهل : انهم افسدوها ثم اخذوا يضربونها لانها فاسدة . وكذلك يزعم جسب نفسه ان القرآن يدعو الى ضرب المرأة . حتى المرأة الفاضلة تخشى مثل هذا العقاب [٥] ، ذلك لان الاسلام نظام ناقص والمرأة فيه مستعبدة [٦] .

ويتميز المبشر الامريكي هنري جسب بمزيج من الافتراءات والخرافات ، فقد زعم ان الشيخ يوسف الاسير علم اولاده اغاني مسيحية باللغة العربية [٧] . والشيخ يوسف الاسير علم معروف في بيروت واولاده معاصرون لنا واحفاده لا يزالون يحيون بيننا ولم نعرف ذلك عن احد منهم.

وادعى كثيرون من المبشرين انهم نصّروا جماعات من الناس ، كل هذا احتيالا على اموال الجمعيات والافراد الذين ينفقون على مثل هذه المشروعات . من ذلك مبشر انكليزي اسمه بلدوين ادعى انه نصّر فريقاً من المسلمين ، فارسلت الهيأة التي يعمل بلدوين هذا تحت اشرافها رجالا ليتحققوا من دعواه فلم يجدوا مسلماً واحداً صبا على يديه [٨] .

---

(1) Beowne 111, 113, 116

(٢) يقصد فقهي (شكلي).

(3) Levonian 71. 73.
(4) Cash 98.
(5) Jessup 28.
(6) Milligan 20-21.
(7) Jessup 145f.
(8) Jessup 547.

وزعم رشتر ان اكثر الدروز قد اصبحوا بروتستانتيين قلبياً. ولولا ان الدولة العثمانية منعتهم بالقوة من إعلان بروتستانتيتهم لاصبحوا كلهم بروتستانتاً ظاهراً وباطناً [١]. ثم ينسى رشتر هذا الزعم فيذكر بعد بضع عشرة صفحة عن الدروز انفسهم انهم لا يفكرون في ان يصبحوا نصارى [٢]. ورشتر نفسه يزعم هذا الزعم على النصيرية ايضاً [٣].

وقد كان جسب يؤمن بالخرافات ويمزج ايمانه هذا بملاحظات بعيدة عن الشعور الانساني. ففي كانون الثاني عام ١٨٦٢ (رجب سنة ١٢٧٨) فاضت الاودية في مكة من مياه المطر واحدثت خسائر في الابنية والنفوس. فربط جسب هذه الكارثة بفتنة سنة ١٨٦٠ في لبنان، ثم علق على ذلك بقوله، بعد ان زعم ان لشريف مكة صلة بالفتنه : ان طوفان الكعبة قد جاء دليلا على ان مكائد مثيري الفتن تقع احياناً على رؤوسهم [٤].

وجاءت مرة بوارج امريكية وانكليزية الى مياه بيروت فكتب جسب يقول : ان غوغاء المسلمين الفتّارين المتعصبين قد خبأوا رؤوسهم حيناً من الزمن [٥].

وبينما كان يوليوس رشتر [٦] يكتب عن ثورة المهدي على الانكليز في السودان، بلغت به الحماسة الى ان قال : « ... هذا التعصب الاسلامي الضيق الافق بكل ما فيه من بغض للثقافة [٧].

على ان اغرب ما في تلك المزاعم الجاهلة مزعم المستشرق الافرنسي لويس ماسينيون. لقد انصرف ماسينيون في عهده الاخير عن العلم الى التبشير لان التبشير وسيله الى استعباد الذين يبدلون دينهم على يد المبشرين. زعم ماسينيون ان المسلمين يعتقدون في شأن عيسى بن مريم على ما جاء في القرآن. من اجل ذلك يرجو ان توجه الجهود الى جعلهم يعتقدون بعيسى ابن مريم

«1» Richtea 192 f.
«2» *ibid*. 204.
«3» *ibid* 184, 195 f.
«4» Jessup 241-2.
«5» Jessup 748.
«6» Julius Richter.
«7» Richter 366.

نفسه ، ولكن باسمــه المسيحي (١) . ولقد غاب عن ماسينيون (وذلك مستغرب) ان نظر المسلمين ونظر المسيحيين الى عيسى بن مريم مختلفـان ، ولا شأن لنا بـذلك الآن . على اننا نود ان نقول للمستشرق ماسينيون ان « العلماء » لا يؤخذون بالاسماء وتشابه الالفاظ ، ولا هم ايضاً يسترون مكائدهم الاستعمارية بالعلم .

هـذه هي الآراء التي كان ينشرها المبشرون عـلى اقوامهم في اوروبة واميركة ، وهكذا كانوا يصورون الاسلام حـتى يبرروا دوام التبشير بين المسلمين لتـدوم لهم دراهم تدر عليهم من جماعات غافلة عن الحقائق او انها لا تزال تعتقد ان للاعلان والافتراء قيمة في القرن العشرين .

طـريق الاستعمار

ولا ريب في ان الباعث الحقيقي والاول في رأي القـائمين على التبشير انما هو « القضاء على الاديان غير النصرانية » توصـلا الى استعباد اتباعها . ان المعركة بين المبشرين و بين الاديان غير النصرانية ليست معركة دين بل معركة (٢) في سبيل السيطرة السياسية والاقتصادية. حتى ان الـبروتستانت مثلا لا يكتفون بان يظل المسيحي ارثوذكسياً او كاثوليكياً ، بل يجب ان يصبح مسيحياً بروتستانتيـاً . ان هوى الـكاثوليك مـع فرنسة وهوى الارثوذكس مع الروسية ، فاذا انتقل هذان الى الـبروتستانتية اصبح هواهما مع اميركة في الدرجة الأولى ومـع انكلترة في الدرجة الثانية .

ويبدو بوضوح ان اشد الاديان مراساً في اباء الاستعباد انما هو الاسلام ، ولذلك يتمنى المبشرون ان ينصّروا المسلمين كلهم (٣) . ومع ان التبشير يعمل ضد البوذيين والبرهميين ايضاً ،

«1» *L'Islam et l'accident* 164
«2» Missionary Outlook 35 b.
«3» Christian workers, *cf* 17.

فان المقصود الأول بالجهود التبشيرية هم المسلمون(١). ولقد استوى في هذه الرغبة جميع المبشرين على الرغم من اختلاف طوائفهم وتباين الاقنعـــة التي يرفعونها على وجوههم، حتى المستر بنروز (٢) رئيس الجـامعة الاميركية الجديد يقول (٣) : «ان المبشرين يمكـن ان يكونوا قد خابوا في هدفهم المبـاشر، وهو تنصير المسلمين جماعات جماعات، إلا انهم قد احدثوا بينهم آثار نهضة.. » ثم يتابع المستر بنروز قوله فيقول (٤) : «ولقد برهن التعليم على انه أثمن الوسائل التي استطاع المبشرون ن يلجأوا اليها في سعيهم لتنصير سورية ولبنان» .

لقد كان خليقاً برجل يأتي ليتولى اعظم مؤسسة علمية في الشرق الادنى ان يفطن الى أمرين، احـدهما ان النهضة المزعومة التي بعثهـا المبشرون ترجع في الحقيقة الى عوامل عامة اتفق ان سايرهـا المبشرون. ان النهضة التركية ونهضة اليابان ونهضة الروسية مثلا لم تقم على ايدي المبشرين البروتستانت، ولـكن العالم كله مندفع منذ امد نحو تقدم مستمر، ولا يمكن لاحد ان يقف في وجه هذا التقدم الطبيعي (٥) .

اما ثاني الامرين فهو ان الاضرار المقصودة التي احدثها التبشير في البلاد العربية تفوق كل نفع عارض يمكن ان يكون التبشير قد أتى به .

لقد كنا نود ان يأتي المستر بنروز الى رئاسة الجامعة الامركية بعقلية العالم لا بعقلية المبشر التي ينكشف عنها كتابه .

ويعترف المبشرون بان التبشير الرسمي واكتساب المسلمين الى صفوف النصرانية قـد خاب(٦). من اجـل ذلك قنع هؤلاء المبشرون ان يكون عملهم « الانساني » قاصراً على

«1» Christian Workers 7 f., 13; *cf.* Jung 67.
«2» Stephan B.L. Penrose, Jr.
«3» Penrose 5.
«4» *ibid.* 7.
(٥) راجع الكلام على ذلك في فصل : الاعمال الاجتماعية ...
«6» *Re-Thinking Missions* 164 *and* others.

زعزعة عقيدة المسلمين على الاقل (١). من امثال هذه الجملة ينفذ القارىء الى حقيقة بواعث التبشير: انه ليس الاصلاح والحياة الروحية، بل هو الافساد والتوسل الى السيطرة.

إعداد المبشرين

يدرس الذين يريدون ان يعملوا في التبشير مناهج خاصة مبنية على تفهيمهم روح الشرق. هنالك سياسية تهيمن على ذلك المنهاج، هي تصوير الشرق بصورة من التأخر والسوء تحمل طالب التبشير على ان يندفع في مهمته اندفاعا اعمى. ولقد اوجدت مدارس لهذه المهمة منذ زمن بعيد في رومية و باريس وفي طليطلة باسبانية اضافت الى مناهجها تدريبا عسكريا للتبشير بالقوة (٢).

ولم يكن من المستغرب ان تقوم الرهبنات الاجنبية على اختلاف نزعاتها بالتبشير. ان فرقا مختلفة من الرهبان قامت منذ اوائل القرن الثالث عشر بالتبشير، ثم استمرت في عملها هذا بعد ذلك. ومنذ القرن الرابع عشر الى القرن الثامن عشر كان الرهبان الدومينكان والفرنسيسكان يعملون، جاهدين في مراكش والجزائر وتونس ومصر والشام وكليكية. ثم برزت في اواخر القرن السابع عشر فرق اخرى، منها اللعازريون والكبوشيون والاغسطينيون. ومع ان هؤلاء قد عملوا في الاكثر بين العبيد والاسرى النصارى، فانهم كانوا من حين الى حين يتعرضون للمسلمين.

على ان هنالك افراداً ليسوا رهبانا، ولكنهم تعلموا في المعاهد الرهبانية وفي معاهد اليسوعيين خاصة. ان هؤلاء ايضا يقومون باعمال تبشيرية مختلفة (٣). هذا النوع من الرجال يعرفون باسم اليسوعيين ذوي الثياب القصيرة (٤). حتى الراهبات اللواتي يظن انهن

«1» *Islam and Missions* 217.
«2» Addison 57 f.
«3» *Les Jesuites en Syrie* 12 : 7 ss.
«4» Voir Larousse : *Jesuites à robes Courtes*

نذرن انفسهن لخدمة المرضى وتعليم الجاهلين ومؤاساة المساكين لسن سوى مبشرات . يقول اليسوعيون في كتابهم المئوي الذي اصدروه في بيروت عام ١٩٣١:

« ان الاخوات لسن راهبات معلمات فقط ، ولكنهن ايضاً راهبات مبشرات . انهن في كل مكان يوجد فيه يعملن الى جانب عملهن التعليمي اعمالا تبشيرية » (١) . وهن لا يكتفين ذلك بل يعلن انهن يعملن لضم الخراف الضالة او المهمله الى حظيرة المسيح الملك (٢).

ولقد استخدم المبشرون جميع الطرق في سبيل التبشير واستغلوا جميع المناسبات ، فصناعة التطبيب والتعليم والوعظ ونقل الكتب من لغة الى لغة، كلها يجب ان توجه توجيهاً يفيد التبشير (٣). ان الطبيب كارنيليوس فانديك ارسل الى سوريه على انه طبيب مبشر (٤) .

والمبشرون مجمعون على ان جميع الوسائل — مهما كانت — يجب ان تستغل في سبيل التبشير (٥) . حتى اعمال البر يجب ان تستغل استغلالا بحتا ، من ذلك قولهم : « كان التطبيب والتعليم من وسائل التبشير ، ويجب ان يبقيا كذلك . اما اعمال الاحسان فيجب ان ان تستعمل بحكمة كيلا تذهب في غير سبيلها. يجب ان تعطى الاموال اولا للبعداء عن الكنيسة ثم تقل تدريجا كلما اقترب اولئك من الدخول في الكنيسة (اعتناق مذهبها) . فاذا دخلوها منع عنهم الاحسان مرة واحدة (٦) .

ومن وسائلهم انهم اذا دخل في خدمتهم رجل لا ينتمي الى مذهبهم حملوه على الدخول فيه . عمل شاب درزي في المطبعة الاميركانية فصبأ الى المذهب البروتستانتي . ثم عمل بعد

(1) *Les Jesuites en Syrie* 12 : 18, *cf.* 2 ; 28
(2) *Les Jesuites en Syrie* 11 : 28 s.
(3) Jessup 68 ; Riehter 80.
(4) Richter 179.
(5) *Cf* Jessup 29,37 ; Bliss (R) 313
(6) *Re-Thinking Missions* 67 f., *cf.* 70 f.

ذلك في المطبعة الكاثوليكية فانتقل الى المذهب الكاثوليكي (١). ولعل هذا الشاب ظل درزياً ولكنه كان لحاجته الى العمل يتظاهر امامهم بما يريدونه منه.

وكان المبشرون يتخذون من زيارة المسجونين ومن العمل في المستشفيات وسيلة الى التبشير (٢). في الحرب العالمية الاولى اخذت الدولة العثمانية عدداً من الراهبات للعمل في المستشفيات والمياتم، فقال الكتاب المئوي اليسوعي عن هؤلاء: « وفي منصبهن الجديد بقيت الاخوات مبشرات يُلقّن التعليم المسيحي ويُعددن للمناولة الاولى، ويعلّمن الصلوات على الرغم من التحذير او التهديد الذي كان يوجهه المفتشون الاتراك اليهن (٣). وهكذا كان المبشرون والمبشرات يتقدمون الى الانسانية بوجه من فعل الخير والسهر على المتألمين بينما هم ينفذون من خلال هذه الآلام المبرحة الى طرق جديدة للتبشير. ومع انهم لم ينجحوا الا قليلا فانهم ادخلوا على نفوس الكثيرين آلاماً جديدة كثيرة ووصموا الضمير الانساني بالنفاق.

وكانت قلة الذوق تبلغ بالمبشرين الى حد ان احدهم لم يكن يتأخر عن عرض بضاعته في التبشير بين اهل الميت، والميت لا يزال بين اهله. ذهب المبشران كلهون (٤) وجسب يعزيان بوفاة شاب درزي، فما ان استقر بكلهون المقام حتى قال (٥): ما رأيت جسداً ميتاً لاخ لي في الانسانية الا ملئت اشمئزازاً، بل ملئت بغضا. اجل ملئت بغض الخطيئة التي اتت بالموت الى هذا العالم وكانت سبب احزاننا واضطرابنا وآلامنا. فلم لا نمقت الخطيئة إذن ثم نحب ذلك الذي (٦) لم يعرف الخطيئة. ولكنه ذاق الموت في سبيل كل انسان آخر؟».

«1» *Les Jesuites en Syrie* 12 : 27.
«2» *ibid* 7 : 28, 11 : 24.
«3» *ibid.* 11 : 24
«4» Rev. H.S. Calhoun.
«5» Jessup 101.

(٦) بقصد المسيح (حسب الاعتقاد المسيحي).

نحن لا نعلم مكاناً ينبو فيه الذوق عن مثل هذا العمل كالمآتم . لقد جهل هؤلاء كلهم ان للموت حرمة ورهبة، ثم إنهم طعنوا النفس الانسانية حينما ظنوا انها تصل الى الله بكلمات تُلقَّن او باشارات تُمثَّل . و بعد ذلك كله نسُوا ان بين قلب كل انسان و بين الله طريقاً مفتوحاً يسلكه الانسان نفسه بلا قائد ولا وسيط .

ولما خابت هذه الاساليب كلها عمد المبشرون الى الرشوة يفسدون بها ضمائر الذين يستميلونهم . حينما ظهر اليسوعيون للمرة الاولى في شرق الاردن رشَوا نفراً من النصارى الارثوذكس للانضمام الى الكنيسة الرومانية [1] . على ان البروتستانت كانوا اشد ايغالا في افساد الضمائر فقد اتخذوا سماسرة يجلبون لهم الذين كانوا يرضون ان يبدلوا دينهم ، وكانوا يدفعون عن كل رأس عشرة قروش ذهباً [2] .

الغاية تبرر الواسطة عندهم

كل هذه الوسائل لم تُجْدِ نفعاً كبيراً ظاهراً ، فظهر في عام ١٩٣٢ كتاب اسمه « التفكير الجديد في امر الارساليات » [3] ، اصدرته لجنة من المبشرين . لقد رأى هؤلاء ان التبشير يجب ان يستمر ، ولكنّ وسائله يجب ان تتبدل (ص ٤ — ٥ — ١٨) . ذلك انهم رأوا ان العالم يتبدل فاحبوا ان تتبدل خططهم حتى توافق الاحوال الجديدة [4] .

والمبشرون يفرضون على انفسهم ان يكونوا مستعدين لان يقبلوا بامور تخالف العقيدة المسيحية [4] .من ذلك مثلا ان المسيحية تعتقد ان الله واحد ولكنها تستطيع ان تتسامح مع اصحاب العقائدالتي تعدد الله فتقول تقرباً اليهم بان الله يتشكل في مظاهر مختلفة (راجع ص٥٣).وهذا الكتاب — يجيز للمبشرين — كيلا ينفروا منهم ابناء الديانات المخالفة للنصرانية — ان يتأوّلوا التعبير المسيحي « المسيح ابن الله» تأويلا روحيا (ص ٥٦).

---

1) Richter 248.
2) Jessup 35.
3) *Re-Thinking Missions* .
4) *Re-Thinking Missions*, p xi ; *Le Jesuites en Syrie* 10 : 41 ss.
5) Levonian, *cf.* Ch. 13, pp. 129-136.

وكذلك يرى هذا الكتاب ان جميع المبشرين من بلاد رأسمالية ، ولكنّ هذا يجب الا يمنعهم من تفهّم المذاهب الاقتصادية الاخرى كالاشتراكية والشيوعية . وعليهم ان يطعنوا الرأسمالية اذا كان ذلك يفتح لهم قلوب الخاضعين قهراً لها ، حتى انه ليس ثمت مانع يمنع مصادقة الشيوعيين ايضاً (ص ٢٥٢—٢٥٤) ، وان كانت الشيوعية عدوة للنصرانية .

من هنا نرى بوضوح ان المبشرين ينصحون لأنفسهم بالتلون في سبيل الوصول الى قلوب بعض الناس . هنالك كتاب اسمه « طرق العمل التبشيري بين المسلمين [١] » يقول : « لنجعل هؤلاء القوم المسلمين يقتنعون في الدرجة الاولى بأننا نحبهم فنكون قد تعلمنا ان نصل الى قلوبهم ... : يجب على المبشر ان يحترم في الظاهر جميع العادات الشرقية والاسلامية حتى يستطيع ان يتوصل الى بث آرائه بين من يصغي اليها . وعليه مثلا ان يتحاشى ان يقول عن المسيح إنه ابن الله [٢] حتى لا ينفر منه اولئك الذين لا يؤمنون هذا الايمان فيستطيع ان يقاربهم حينئذ بما يريد ان يدعوهم اليه » . واما المحترم تشارلس واطسون [٣] فيقول [٤] : « يجب ان يظلوا (أي المبشرون) برءاء كالحمام ، ولكن هذا لا يمنعهم ايضاً من ان يكونوا حكماء كالحيّات » .

* * *

ومما يدل على قلة احتفال المبشرين بالمثل العليا الحقيقية وبالاحداث التي تساعد على تقدم المدنية نحو مدىً اوسع واجمل موقفهم من اعلان الحرية العثمانية في تموز عام ١٩٠٨ .

لقد كان اعلان الحرية العثمانية واعادة الدستور في الامبرطورية العثمانية كلها حدثاً عظيماً في تاريخ تركية نفسها وفي تاريخ العرب ، وكذلك كان له تأثير كبير ايضاً في السياسة الدولية .

---

1) Methods of Mission work among Moslems, *cf.* p 31.
2) Methods of Mission Work p p. 45 ff., 51 f., 53.
3) Rev. Charles R. Watson.
4) Islam and Missions 192.

اما المبشرون فلم يروا في تلك المناسبة الفذة في تاريخ امبرطورية كالامبرطورية العثمانية الا فرصةً جديدة لنجاح حركة التبشير [1] . وبعد ان يشير جسب الى هذه المناسبة العظيمة في الامبرطورية العثمانية ، يقول : « ان القضية التي تواجهنا بطبيعة الحال هي: ماذا يكون من امر هذا الانقلاب العظيم على دين الامبرطورية (العثمانية) ؟ ويجيب جسب نفسه على هذا التساؤل فيقول : إن هـذا سيساعد على طبع الكتب البروتستانتية ، وسيصبح المرء (العثماني) حراً في ان يغير دينه [2] .

وبينما كان المبشرون المؤتمرون في القاهرة في نيسان عام ١٩٠٦ يعترفون ضمناً بصعوبة التبشير ، وان التبشير كان الى ذلك الحين فردياً يتناول الفرد بعد الفرد ، وانهم يأملون ان يصبح التبشير اجماعيـاً يتناول جماعات بقضها وقضيضها [3] ، اذا بهم في مؤتمر بيروت غير الرسمي قبيل عام ١٩١١ يقررون ان يبدأوا تنصيراً بين المسلمين مباشراً يسير في سورية وفلسطين خاصة بهدوء و بوسائل مختلفة . ولا يجد المبشرون حرجاً في ان يعلنوا ان نشر الدستور العثماني قد جعل التنصير المباشر اكثر إمكاناً وسهولة . من اجل ذلك قرروا ان يجددوا جهودهم وان يسيروا باعمالهم الى الامام [4] .

واستغل المبشرون مناسبة ثانية لتوسيع اعمالهم . لقد استغلوا الانتداب الذي فرض على البلاد العربية بالقوة ، ثم احتموا بالدول المنتدبة وراحوا يخلقون المشاكل الدينية والقومية بين ابناء الوطن الواحد باتيانهم اعمالا تستفز الشعور وتزيد البغضاء في القلوب . تلك البغضاء التي لا تنفجر احياناً دينياً وان كانت تنفجر دائماً ، بلا ريب ، سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وأدبياً .

---

1) *Islam and Missions* 23 ff.
2) Jessup 790 f.
3) Addison 148.
4) *Islam and Missions* 39 f.

جنينة رسلان

ونظر اليسوعيون في منطقة الانتداب الافرنسي فاختاروا ان يوسعوا جهودهم التبشيرية في بلاد العلويين بين النصيرية ليفرضوا على المستضعفين منهم المذهب الكاثوليكي . فزعموا ان نفراً من هؤلاء قد جاءوا الى الراهبات اليسوعيات في صافيتا وطلبوا منهن ان يقبلنهم في المذهب اللاتيني . ويقولون ان الراهبات المذكورات اتصلن ببيروت فاسرع رهبان يسوعيون من بيروت الى بلاد العلويين واستكتبوا رجلا اسمه محمد تامر — او زعموا ذلك اسماً لرجل نصيري — كتاباً، ثم ارسلوا كتابه الى البابا، وفيه يقول الرجل بزعمهم ان النصيرية من احفاد الصليبيين ، وان التعليم الديني عند الرهبان جعلهم يرون ان النصرانية خير الاديان .

وهكذا تمكن اليسوعيون بمساعدة الافرنسيين، او الجيش الافرنسي على الاصح ، ان ينقلوا اثنتين وعشرين اسرة (او نحو ثمانين شخصاً) الى المذهب اللاتيني المسيحي بعد ان جمعوهم في جنينة رسلان في الخامس عشر من آب عام ١٩٣٠.

ويعلق اليسوعيون على ذلك بقولهم وبلغتهم :

Le premier pas était fait ; il était décisif.

(لقد خطونا الخطوة الاولى ، ولقد كانت خطوة حاسمة [١] !)

بمثل هذه الروح يعمل اليسوعيون في بلادنا . ولا غرو فلقد كانوا مسلحين دائماً بالرضى الفرنسي لأن معاهدة فرساي قد نصت في مادتها الثامنة والثلاثين بعد الأربعمائة على جواز التبشير في سورية .

وبعد شهرين من هذا الحادث في السادس من تشرين الاول عام ١٩٣٠ اسفر اليسوعيون عن وجههم تماماً وذهب الاب شانتور، رئيس الجامعة اليسوعية يومذاك، مع خمسة من المبشرين ليؤسسوا مركزين للتبشير في بلاد العلويين وفي قرق خان [٢] .

1) *Les Jesuites en Syrie* 10 : 23 - 9.

2) *ibid* 10 : 7.

تنافس المبشرين

لو كان التبشير دعوة خير لما تنازعت فيه طوائف المبشرين ولما تنافست فرقهم ومذاهبهم. والدليل القائم على ذلك ان اهل كل مذهب ديني ينشرون، مع مذهبهم، وهم يبشرون به، هوىً سياسياً معيناً . ولقد كانت الدول تهتم بمبشريها لاعتقادها ان مبشريها طلائع نفوذها ومقدمات لتبسطها في الارض .

لما اتسع نفوذ المبشرين الامريكيين في الامبرطورية العثمانية بين عام ١٨٤٠ و ١٨٥٠ ، وكثر تدخلهم في شؤون البلاد تنفيذاً لسياسة استعمارية ، عزمت تركية على اخراجهم من الامبرطورية كلها. ولكن وزير الخارجية الامريكية رفض ان يتخذ مثل هذه الخطوة ثم استطاعت الولايات المتحدة ان تحوّل انتباه الباب العالي الى امور اخرى [1] ، اي ان الولايات المتحدة اثارت لتركية مشاكل كبيرة صرفتها عن امر المبشرين . وهكذا ظل المبشرون الأمريكيون يتمتعون في الامبرطورية العثمانية بحقوق الرعايا الأمريكيين كما تنص معاهدة «الامتيازات الاجنبية» التي تمنح الاجانب المرغوب في وجودهم في الامبرطورية العثمانية حقوقاً واسعة . ولكنّ المبشرين كانوا يتسلحون بهذه المعاهدة ويأتون باعمالهم التبشيرية والسياسية ، حتى انقذت تركية نفسها من هذه المعاهدة الجائرة عام ١٩١٤، إذ ألغتها بعد نشوب الحرب العالمية الاولى .

المبشرون يحتالون على النظام الجمركي

ولم يكتف المبشرون منذ اول امرهم بان يقيموا حيث شاءوا في الامبرطورية العثمانية ، بل اتخذوا من ضعف الدولة العثمانية سبباً الى التخلص من دفع الضرائب لانهم اجانب !

---

1) *Islam and Missions* 159.

ويبدو لنا بشكل وضوح ان الامتيازات التي اصبح الاجانب يتمتعون بها في الامبرطورية العثمانية كانت تزيد كلما زاد ضعف تلك الامبرطورية . فالامريكيون مثلا لم يكونوا قبل عام ١٨٦٥ معفون من الضرائب [١] . ويبدو ايضاً ان الرهبان اليسوعيين خاصة كانوا يتمتعون بالاعفاء من الضرائب قبل المبشرين الامريكيين [٢] . واخيراً اصبحت الامبرطورية العثمانية من الضعف بحيث سمحت لجميع الاجانب بان يتمتعوا في امبرطوريتها بامتيازات واسعةفلا يدفعون ضرائب على ما يستوردون من الخارج اذا كان لحاجاتهم الخاصة . ولكن تركية عاودتها في آخر الامر جرأتها وألغت الاعفاء الجمركي لانها عرفت ان رجال الدين الاجانب الذين جاءوا لاعمال البر والاحسان بين ظهرانينا قد جعلوا يستوردون البضائع المختلفة ثم يبيعونها للتجار الوطنيين ، او يبيعونها لحسابهم الخاص ولكن بواسطة التجار الوطنيين [٣] .

ولقد كانت الدول الاجنبية تبسط الحماية على مبشريها في بلاد الشرق لأنها تعدهم حملة لتجارتها وآرائها ولثقافتها الى تلك البلاد. بل لقد كان ثمتما هو اعظم من هذا عندها: لقد كان المبشرون يعملون — بطرق مختلفة كالتعليم مثلا — على تهيئة شخصيات شرقية لا تقاوم التبسط الاجنبي [٤] .

في الرابع من نيسان عام ١٩٢٤ عقد اتفاق بين الولايات المتحدة وفرنسة في باريس ولكن لم يعلن الا في الثالث عشر من آب، جاء في المادة العاشرة منه :

« ان اشراف الدولة المنتدبة على الارساليات الدينية في سورية ولبنان يجب ان يقتصر

1) Jessup 293, 572, 740.
2) Jessup 534 etc. etc.
3) Jessup 293.
4) *Re-Thinking Missions* 11, 14, 15.

على حفظ الأمن وتسيير الحكم (١). ثم ان نشاط هذه الارساليات الدينية يجب الا يعترض سبيله ، كما ان رجال هذه الارساليات يجب الا يخضعوا لتدبير يقيدهم بسبب جنسيتهم (٢) ما دام نشاطهم قاصراً على الحقل الديني ...».

هذه المادة تدل ضمناً على القيام بالتبشير ، لان التبشير هو المقصود بالتركيب « نشاط هذه الارساليات الدينية » ، مما يلاحظ من اماكن مختلفة ، سنراها في الفصول التالية . وليس المقصود منها « ممارسة العبادات » : ان رعايا الدول الاجنبية كلها تمارس عبادتها في لبنان وفي غير لبنان من غير ان تكون قد عقدت معاهدة مع الدولة الفرنسية المنتدبة.

على ان فرنسة المنتدبة على سورية ولبنان قد استغلت كل فرصة لتنقل امتيازات الارساليات المختلفة الى الارساليات الفرنسية وحدها. ففي تشرين الثاني من عام ١٩٢٥ نقلت الحكومة الافرنسية حق الاشراف على المؤسسات التبشيرية التي كانت للالمان قبل الحرب العالمية الاولى في بيروت خاصة الى المؤسسات التبشيرية والتعليمية الفرنسية ثم جعلتها تتمتع باشراف الحكومة الفرنسية نفسها واشراف المفوض السامي في سورية (٣).

هذه لمحة عامة في بواعث التبشير وملابساته وغاياته الظاهرة والباطنة نمر بها مسرعين. وسيرى القارىء الكريم اوجه التبشير مفصلة في الابواب التالية .

ونحن نحب من القارىء ان يتبيّن ان حب الخير والتعليم والتطبيب وما اليها هي وسائل للتبشير. ثم ان التبشير الديني نفسه ستار للتبشير التجاري والسياسي واساساً متيناً للاستعمار . ولنذكر دائماً ان اكثر الفتن الداخلية في الشرق من دينية وسياسية واجتماعية انما قام بها المبشرون والذين استأجرهم المبشرون ، على ما نراه في الصفحات التالية كلها .

---

١) في الاصل : Good Government .

٢) المقصود : يجب الا يحرم الاميركيون من امتيازات تتمتع بها الارساليات الدينية الفرنسية .

3) Bianquis 3 - 5.

الفصل الثاني

التطبيب حيلة للتبشير

•

حينما يتخرج الطبيب في كليتـه يقسم بعد ان يتسلم الشهادة يميناً تسمى يمين أبقراط ، وتعرف في الكتب العربية باسم وصية ابقراط او عهد ابقراط. وصورة هذا العهد هكذا [١] :

« اني اقسم بالله رب الحياة والموت وواهب الصحة وخالق الشفاء وكل علاج، واقسم باسقليبيوس [٢] ، واقسم باولياء الله من الرجال والنساء جميعاً واشهدهم جميعاً على انني أفي بهذه اليمين وهذا الشرط ... واقصد في جميع التدابير ، بقدر طاقتي ، منفعة المرضى . واما الاشياء التي تضر بهم وتدني منهم بالجور عليهم فامنع منها بحسب رأيي. ولا أعطي — اذا طُلِبَ مني — دواءً قتالاً ولا أشير ايضاً بمثل هذه المشورة . وكذلك ايضاً لا أرى ان أدني من النساء فرزجة [٣] تسقط الجنين . واحفظ نفسي في تدبيري وصناعتي على الزكاء والطهارة ... وكل المنازل التي ادخلها انما ادخل اليها لمنفعة المرضى ، وانا بحال خارجة عن كل جور وظلم وفساد اراديّ مقصود اليه في سائر الاشياء . . واما الاشياء التي اعاينها في اوقات علاج المرضى او اسمعها ، او في غير اوقات علاجهم في تصرّف الناس من الاشياء التي لا يُنطق بها خارجا فامسك عنها وأرى ان مثالها لا ينطق به ... ».

هذه اليمين تنكشف عن نفس انسانية نبيلة ، ذلك لأن المريض المتألم يضحي اشياءً كثيرة في ملكه حتى يتخلص من آلامه . واذا كان المتألم قريبا له او ابنا على الاصح زاد رضاه بالتضحية وقلت قيمة كل شيء في عينيه في سبيل شفاء ابنه او امه او ابيه او زوجه .

---

١) طبقات الاطباء ١ : ٢٥ .

٢) اسقليبوس اول من تكلم في الطب من اليونانيين كما ذكر مؤرخو الطب (طبقات الاطباء ١ : ١٥) .

٣) كذا بالاصل .

استغلول آلام البشر

واقد ادرك المبشرون هـذا الميل في البشر فخرجوا عن كل نبل في الطبيعة الانسانية وسخروا الطب في سبيل غايـات ، حسبك دليلا على نوعها قولهم هم : حيثما تجد بشراً تجد آلاماً ، وحيثما تكون الآلام تكون الحاجة الى الطبيب [١] ، وحيثما تكون الحاجة الى الطبيب فهنالك فرصة مناسبة للتبشير . وهكذا اتخذ المبشرون الطب ستاراً يقتربون تحته من المرضى .

وقد كان اول من غيّر سنة ابقراط الجيلة الامريكيون حينما بدأوا ينشئون عيادة طبية في سيواس (بتركية) عام ١٨٥٩ م [٢] . وهكذا نظر الامريكيون منذ ذلك الحين الى الطب على انه مُعين على التنصير . ومنذ ذلك الحين اعتبر الامريكيون الطب « مشروعاً مسيحياً » [٣] . وعلى هذا قال الطبيب بول هاريسون [٤] في كتابه « الطبيب في بلاد العرب » (ص ٢٧٧) :

« ان المبشر لا يرضى عن انشاء مستشفى ولو بلغت منافع ذلك المستشفى منطقة (عُمان) باسرها . لقد وُجدنا نحن في بلاد العرب لنجعل رجالها ونساءها نصارى ! »

ولا ريب في ان الطبيب يستطيع ان يصل الى جميع طبقات الناس حتى اولئك الذين لا يخالطون غيرهم . ولذلك قال المبشرون ان بامكان الطبيب المبشر أن يصل بتبشيره الى جميع طبقات المسلمين بواسطـة المرضى الذين يعالجهم [٥] . ثم انهم فرضوا ان يكون الطبيب المبشر « نسخة حية من الأنجيل » . ان بامكانه ان يغـير الذين حوله ويجعل منهم نصارى حقيقيين او ان يترك في نفوسهم اثراً عميقاً [٦] على الاقل .

والمبشرون يصرحون بذلك . كتب س.ا. موريسون [٧] في مجلة العالم الاسلامي [٨] التبشيرية يقول :

---

1) Milligan 133.
2) Addison 92.
3) *Re-Thinking Missions* 199.
4) Paul W. Harrison, MD., *Doctor in Arabia.*
5) *cf.* C. 253 f.
6) Harrison 276.
7) S.A. Morrison
8) MW, April 1929 pp 129 ff.

«نحن متفقون بلا ريب على ان الغاية الاساسية من اعمال التنصير بين المرضى الخارجيين[1] في المستشفيات ان نأتي بهم الى المعرفة المنقذة ، معرفة ربنا يسوع المسيح ، وان ندخلهم اعضاء عاملين في الكنيسة المسيحية الحية» . ويرى الكاتب ان للتبشير بين هؤلاء المرضى طريقين. وهو يفضل ان يزور الطبيبُ المبشرُ المريض (المسلمَ) حتى يكون هذا المريض واسطة لجمع عدد غفير من المسلمين عنده في انتظار زيارة الطبيب . وحينئذٍ تكون الفرصة سانحة حتى يبشر هذا الطبيب بين اكبر عدد ممكن من المسلمين في القرى الكثيرة في طول مصر وعرضها.

وفي عام ١٩٢٤ اقـام المبشرون مؤتمراً عاماً وعقدوا جلساته في القدس واستانبول وحلوان (مصر) وبرمانا (لبنان) وبغداد . وقد اهتم المؤتمرون ،وخصوصاً في جلسة القدس، بالتطبيب على انه وسيلة الى التبشير[2] وفصلوا طرق ذلـك . اما مؤتمر برمانا (لبنان) فلم يتعرض مفصلا للتطبيب ولكنه اكدّ اهميته[3].

واحب ان اذكر هنا اسماء عدد من الذين حضروا جلسات برمانا حتى نعرف اولئك الاشخاص الذين يعيشون عيشتين : عيشة حيادية بريئة يدّعون فيها الوطنية وتأليف القلوب ثم عيشة تبشيرية. من هؤلاء القس مفيد عبد الكريم (بيروت) ،القس خليل عواد (اللاذقية)، القس بشاره بارودي (سوق الغرب) ، القس ج ستيورات كروفورد (الجامعة الامريكية في بيروت) ، بيارد ضودج (الجامعة الامريكية في بيروت)،امرأة جـبر ضومط (بيروت) ، جليل ايراني (القدس) ، داوود كاتبة (يبرود) ، الياس مرمورة (نابلس) ، الدكتور نجيب سعد (بيروت) ، نجيب شمعون (برمانا) ، المستشرق مارغوليوث (لندن)[4].

اهمية المستوصفات والمستشفيات

اما اذا كان للاطباء المبشرين مستوصف او مستشفى ، فان مهمتهم الثانية ، او الاولى على الاصح ، تكون اسهل . حينئذ يستطيع الطبيب ان يجد في غرفة الاستشارة او في العراء

١) المرضى الذين يأتون الى المستشفى للمداواة من غير ان يناموا فيه

2) Christian Workers 32-4.
3) *ibid.* 121.
4) *ibid.* 123 f.

فرصاً مناسبة لينثر بـــذور التبشير في قلوب المرضى [1]. في هذه الحال يكون كل من دخل المستشفى او اتى الى المستوصف المعالجة قد تلقى من طبيبه المبشر تلك الكرازة التي [2] توجهه نحو المسيح [3].

من اجـل ذلك عُنِيَ المبشرون اول ما عُنوا بالتطبيب على انه واسطة الى غاية . ان اليسوعيين مثـلا قد اسسوا اكثر اعمالهم التبشيرية في سورية الى جانب مراكزَ للتطبيب . بل ان مراكز التبشير قد بدأت عندهم مراكز للتطبيب في اول الامر . وفي هذه المراكز وجهوا عنايتهم الاولى الى كبـار الموظفين والى الاعيـان ، وكانوا يستغلونهم من هذه الطريق لمصالح تبشيرية بحت . ومع الايام اخذت عناية اليسوعيين بالتطبيب تقل وقيامهم بالتبشير يزيد حتى حل التبشير المحض محل التطبيب [4] الذي كان رِداء الناس .

كبار اطبائهم مبشرون

ومنذ عـام ١٨٧٥ م وجهت الجمعيات التبشيرية اهتمامها الى سورية وانشأت مراكز طبية في غزة ونابلس وغيرهما من المدن ، في سورية وفلسطين . وكـذلك كان لهم اطبـاء دوّارون يزورون القرى ليـلاحقوا الناقهين الراجعين الى قراهم فيكرزوا فيهم ، ولـكنهم لم ينجحوا [5]. وكـذلك يجب الا نعجب اذا علمنا ان اكثر الاطبـاء البروتستانت الذين نعرف اسماءهم ما جاءوا الى بلاد العرب الا حباً بالتبشير لا بالتطبيب ، وان جلهم ان لم نقل كلهم قد اوقع في البلاد اضراراً تفوق الخدمات الطبية التي اسداها اضعافاً مضاعفة . إن آسا دودج وفورست وكارنيليوس فانديك وجورج بوست وتشارلس كلهـون وماري أدي والـدكتور طومسون [6] كلهم كانوا اطباء في الظاهر ، اما في الباطن فـكان ضررهم على البلاد يزيد او ينقص بحسب الاستعداد الشخصي لكل واحد منهم وبحسب الفرص التي سنحت لهم .

---

1) Richter 252.
٢) الكرازة تعبير مسيحي معناه القاء النصائح على الآذن الى الكنيسة ، كرز او خرز (بالسريانية) : وعظ .
3) Harrison 141.
4) *Les Jesuites en Syrie* 12 : 12 f.
اما الآن فان اليسوعيون قد عادوا فأنشأوا مركزاً كبيراً للتطبيب في البقاع .
5) Bliss (R) 316 f. ; Jessup 802 - 804
6) *cf.* Jessup 37. 108, 802.

اعترافهم بخداع المرضى

واذا انت اردت ان تعرف مبلغ اهتمام هؤلاء الاطباء بالتبشير لا بالتطبيب فاعلم ان نفراً منهم انشأوا مستوصفاً في بلدة الناصر في السودان ، وكانوا لا يعالجون المريض ابداً الا بعد ان يحملوه على الاعتراف بان الذي يشفيه هو المسيح ، وان كان الكاتب قد وضع هذا المعنى في تركيب بلاغي يختلف عن هذا الذي قلناه نحن في اللفظ فقط [١]. ومثل هذا فعلهم في اماكن مختلفة ، ففي بلدة الناصر هذه مثلا كان التنصير والتطبيب يسيران جنباً الى جنب كما يقول المؤلف نفسه [٢]. وفي الحبشة كانت المعالجة لا تبدأ قبل ان يركع المرضى ويسألوا المسيح ان يشفيهم [٣]. ومن الحيل التي استعملها المبشرون في وادي النيل انهم استخدموا ثلاثة مراكب تعمل كمستوصفات نقالة على النيل ،وكانوا يعلنون عن مجيء الطبيب قبل ان يصل بوقت طويل فيأتي الناس من كل صوب يحملون مرضاهم ، وينتظر الجميع قدوم الطبيب . في هذه الاثناء يقوم فيهم من يبشر [٤]، فرحاً بالجوع من غير ان يتحرك ضميره لهذه الآلام التي يتحملها المرضى في وضح النهار وحر الشمس ومضض الانتظار عمداً وخداعاً .

ومثل هذا كانوا يفعلون في بلدة الشيخ عثمان في اليمن . كان الناس يأتون من مكان بعيد يحملون مرضاهم ، وكان اولئك الأطباء الذين لم يضع الله في قلوبهم شيئاً من معاني الانسانية لا يبدأون بعلاج المرضى الا بعد ان يكرزوا عليهم [٥]. وحملت ام مرة طفلها المريض وجاءت بـه الى مستوصف الناصر بالسودان ، ولكن الطفل مات في اثناء الطريق الطويلة ، فلم يعز الطبيب هذه الام الثكلى بل جلس يكرز عليها [٦].

---

1) Milligan 158
2) Milligan 101
3) Milligan 32
4) Milligan 142
5) Gairdner 278 f.
6) Milligan cf. 158.

وكان المبشرون يعلنون ذلك ولا يكتمونه ، فقد قال رشتر : في هـذه المناسبات من التطبيب في مستوصف او مستشفى يمكن للطبيب ان يخـاطب المسلمين بكلام كثير لو سمعوا بعضه في مكان غير المستشفى ومن شخص غير الطبيب لامتلأوا غيظاً وغضباً [1] . اما حيث تمتزج الصفاقة بالتدجيل و يمتزج الجهل بموت الضمير فكلام إبرا هاريس .قالت إبرا هاريس تنصح الطبيب الذاهب بمهمة تبشيرية :

« يجب ان تنتهز الفرص لتصل الى آذان المسلمين وقلوبهم فتكرّر لهم بالانجيل .اياك أن تضيع التطبيب في المستوصفات والمستشفيات فانه أثمن تلك الفرص على الاطلاق. ولعل الشيطان يريد ان يفتنـك فيقول لك : ان واجبك التطبيب فقط لا التبشير ، فلا تسمع منه » [2] . ولقد تنبّه دانيال بلس ،الرئيس الاول للجامعة الامريكية في بيروت، الى كل هذا والى غيره ايضاً فأشار الى الاطباء الدجالين الذين يتعرضون لمداواة الناس ، فاذا جاءهم المريض انصرف من عندهم بنسخة حسنة الطبع من الانجيل و بوصفة خاطئة . و يعلق دانيال بلس نفسه على هذا الحادث بقوله : و بعد ايام يكتشف المريض ان انجيل الطبيب كدوائه [3] . وهنالك حوادث واقـوال مشابهة لهذه التي عددناها ، او هي تخالفها قليلا ، لا نميل الى تعدادها لانها تحمل على الملل . ولـكن لا بأس من ان ننبه عليها تنبيهاً [4] .

جهلهم وكرههم للعلم

ولكن لم تكن جميع اخطـاء الاطباء المبشرين في الطب جهلا ، بل كان بعضها عناداً وتعصبـاً .

1) Richter 252; *cf.* Methods of Missions 54
2) Methods of Missions 105
3) *Re-Thinking Missions* 203
4) Gairdner 278, 292; Richter 164, 191 f., 201-209; Milligan 32; *Islam and Missions* 167; Methods of Missions 103; Cash 138 f.; Addison 159, 198.

ذكر الشيخ مصطفى الغلاييني في خطاب القاه في ذكرى مولد الرسول في ١٢ ربيع الاول ١٣٢٨ (٢٤ آذار ١٩١٠) شيئاً من هذا قال (وان لم يقصد هو به ما نريد به نحن) :

« واقرب مثال على هذا امر جرى في بيروت. وذلك ان الدكتور ورتبات الاميركاني الفيلسوف العالم الطبيب كان ينكر عدوى الجذام ، مع ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال : «فِرَّ مِنَ المَجْذومِ فِرارَكَ من الاسد » . ثم تبين له صحة الحديث وتحقق عدوى هذا المرض فصرح بانه مُعدٍ ...»[١].

*

بقي هنالك اشياء قليلة يجب ان تقال مفصلة . يقول بعضهم : ان مكان التنصير انما هو في مستشفيات الارساليات التبشيرية . ثم يذكر ان المستشفيات قد استغلت لهذه الغاية بصراحة . وهنالك اليوم عزم للاعتماد على الاعمال الطبية للوصول الى الآذان والحصول على متنصرين[٢]. ويرى هذا نفسه ان المستشفيات يجب ان تسخّر للتبشير على ان يصل المبشرون الى الاشخاص المحترمين من ذوي الفائدة[٣] الذين يمكن ان يؤثروا في غيرهم من ابناء ملتهم.

العنصر النسائي في التبشير

ولم ينس المبشرون مقام المرأة في الأسرة فوجهوا اهتمامهم الى التأثير عليها وجعلوا يبشرون في مستشفيات النساء وفي المستوصفات . وكذلك ارسلوا الطبيبات المبشرات الى البيوت والقرى للاتصال مباشرة بالنساء واستخدام نفوذ المرأة في الوصول الى اهدافهم التي يزعمون انها نبيلة ، ولكنها لا تنكشف دائماً الا عن سعي لبسط نفوذ سياسي استعماري .

ولقد استغل المبشرون كل شيء في سبيل التنصير (او محاولة التنصير) حتى الممرضات .

---

١) مجلة النبراس ، بيروت ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث ، ص ١٢٧ — ١٢٨ .

2) *Re-Thinking Missions* 200

3) *ibid* 199 - 201.

يرى المبشرون [1]. ان الممرضة لا تعمل على تخفيف الالم فقط عن المرضى بل تحمل اليهم ايضاً رسالة المسيح ، ولذلك حرص المبشرون على انشاء مدارس للتمريض في ايران خاصة .

*

يلاحظ القارىء ان فصل التبشير والتطبيب هذا قصير ، وسبب ذلك هو اننا لم نحب ان نذكر الآراء والحوادث المتشابهة . فحسبُ القارىء اذن ان يرى هذه النماذج ثم يعلم ان ثمت امثلة كثيرة من جنسها .

---

1) *cf*. MW, Oct. 1936, p 383

الفصل الثالث

التعليم ميدان فسيح للتبشير

(١) التعليم عموماً

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ العِلْمِ صانوهُ صانَهُم ... وَلَوْ عَظَّموهُ في النفوسِ لَعُظِّما
وَلٰكِنْ أَهانوهُ فَهانَ ، وَدَنَّسوا ... مُحَيَّاهُ بالأَطماعِ حَتَّى تَجَهَّما

كانت العصور الوسطى في التاريخ الانساني تدعى العصور المظلمة لأنها كانت عصوراً خبا فيها نور العلم . فلما طلع العلم بنوره على اوروبة من الشرق بدأت غياهب تلك الظلمات تنجاب عن اوروبة شيئاً فشيئاً حتى ازدهرت المدنية فيها وعمّها الحضارة . فاوروبة المتحضرة بنت العلم وحده وليست بنت الدين . لقد كانت الروح الدينية في العصور الوسطى على اشدها في اوروبة وكانت اوروبة لا حضارة لها . فلما فضلت اوروبة العلم اصبحت قبلة الحضارة في العصور الحديثة .

« كل مولود يولَد على الفطرة[١] » ، ولكن يولد وفيه استعداد طبيعي يتوجه به نحو الخير او الشر ونحو صناعة دون اخرى . ولا ريب في اننا اذا استثنينا بعض عوامل الوراثة الطبيعية وجدنا ان الموجّه الحقيقي لكل فرد انما هو البيئة الاولى التي احتضنته صغيراً . على ان عوامل البيئة تظل تعمل في الافراد والجماعات ، ولكنّ تأثيرها يقل كلما تقدم الانسان في السن .

ولقد ادرك المبشرون هذه الخاصة في البشر ، هذه الخاصة التي يجب ان تستغل في

(١) حديث شريف .

سبيل الانسانية وفي سبيل جلاء شخصية الفرد وبناء شخصية المجموع . ولكن المبشرين ضربوا بهذا كله عُرض الحائط واستخدموا العلم والتعليم في سبيل غايات صغرى وشغلوا انفسهم بتبديل عقائد الافراد الدينية باذلين جهوداً كباراً في سبيل منافسة غير نبيلة : عداوة على تجاذب الاشخاص بين اليسوعيين والبروتستانت ، ومكائد بين فرق البروتستانت انفسهم ، ثم رياء لا حدّ له في تزيين الآراء وتسويد صفحات التاريخ.

ونحن هنا دائرون بك حول نقطتين : حول استغلال المبشرين للعلم بطرق لا تنكشف الا عن ضيق في الافق ، الا ان هذا قليل الأهمية لأن الانسان لا يلبث ان يرى هذا الافق الضيق فيجازي به اصحابه . واما النقطة الثانية فهي حرص المبشرين على افساد النبل الانساني وجعل العلم ، العلم الذي هو نعمة في سبيل تحرر الانسانية ورقيها ، وسيلةً الى استعباد الافراد والامم ثم سوقهم بسيف الاستعمار الى الاستكانة امام سلطان السياسة المادي . لقد سخر المبشرون اسم الله في سبيل ترويج بضائع اممهم ونشر الفساد الاجتماعي في العالم . ولا ريب في ان بعضهم قام بما قام به غير عارف بما سيترتب على عمله من العواقب . ولكن العاقبة على كل حال لم تكن حميدة .

ليس للتعليم عندهم غاية سوى التبشير

قال نفر من المبشرين :

« ان اهداف المدارس والكليات التي تشرف عليها الارساليات في جميع البلاد كانت دائماً متشابهة . ان المدارس والكليات كانت تعتبر في الدرجة الاولى واسطة للتنصير ولتمرين قسس للكنيسة ... حتى الموضوعاتُ العلمانية التي تعلم من كتب غربية وعلى يد مدرسين غربيين تحمل معها الآراء النصرانية [1] . وعلى هذا الاساس كتب المبشر هنري هريس جسَب الى المحترم وستورات دودج في الخامس من كانون الاول ١٨٧٠) : « لنبتهل الى الله في

1) *Re-Thinking Missions* 118.

سبيل تعميد نفوس اولئك الشبان الذين يترددون على الكليات »[1]. ويرى هنري جسب نفسه : « ان التعليم انما هو واسطة الى غاية فقط في الارساليات المسيحية . هذه الغاية هي قيادة الناس الى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا افراداً مسيحيين وشعوباً مسيحية . ولكن حينما يخطو التعليم وراء هذه الحدود ليصبح غاية في نفسه وليخرج لنا خيرة علماء الفلك وطبقات الارض وعلماء النبات وخير الجراحين والاطباء في سبيل الزهو العلمي ... فاننا لا نتردد حينئذ في ان نقول : ان رسالة مثل هذه قد خرجت عن المدى التبشيري المسيحي الى مدىً علماني محض ، الى مدى علمي دنيوي . مثل هذا العمل يمكن ان تقوم به جامعات هايدلبرغ وكمبردج وهارفرد وشيفيلد لا الجمعيات التبشيرية التي تسعى الى اهداف روحية فحسب »[2].

وكان جسب قد قال قبل ذلك : ان المدارس شرط اساسي لنجاح التبشير ، وهي بعد هذا واسطة الى غاية لا غايةٌ في نفسها . لقد كانت المدارس تسمى بالاضافه الى التبشير « دقّ الاسفين » وكانت على الحقيقة كذلك في ادخال الانجيل الى مناطق كثيرة ، لم يكن بالامكان ان يصل اليها الانجيل او المبشرون من طريق آخر »[3]. ويرى بعضهم[4] ان المدارس قوة لجعل الناشئين تحت تأثير التعليم المسيحي اكثر من كل قوة اخرى . ثم ان هذا التأثير يستمر حتى يشمل اولئك الذين سيصبحون يوماً ما قادة في اوطانهم[5].

ورأيُ المبشرين في ذلك لم يتغير قط ، حتى رأي المستر بنروز الذي جاء في عام ١٩٤٨ ليتسلم زمام الرئاسة في جامعة بيروت الامريكية لا يزال خاضعاً لهذه الفكرة ، انه يقول[6] : لقد ادى البرهان الى ان التعليم اثمن وسيلة استغلها المبشرون الامريكيون في سعيهم لتنصير

1) Jessup 378.
2) Jessup 592, 597
3) Jessup 592.
4) Anna A. Milligan, Milligan 108
5) Milligan 124-5.
6) Penrose 7, 10.

سورية ولبنان... ومن اجل ذلك تقرر ان يُختار رئيس الكلية البروتستانتية الانجيلية (الجامعة الامريكية اليوم) من مبشري الارسالية السورية » .

وفي الوقت الذي كان الدكتور بنروز يعد موادّ كتابه التبشيري ، انعقد في القدس (في نيسان ١٩٣٥) مؤتمر تحت اشراف فرع فلسطين من لجنة التعليم للمجلس التبشيري المتحد . ولم يضع هذا المؤتمر تقريراً على عادة المؤتمرات الاخرى ، بل عهد الى احد اعضائه ه . دانبي ليضع كتاباً توجيهياً يتضمن ما وصل اليه المؤتمرون من الملاحظات والآراء[1] .

يقول دانبي في كتابه (ص ١) : كان التعليم ... وسيلة قيمة الى طبع معرفة تتعلق بالعقيدة المسيحية والعبادة المسيحية (في نفوس الطلاب) » .

والمؤلف يفرق بين المدارس المسيحية والمدارس التبشيرية . ان المدارس التبشيرية تحاول ان تنقل الطلاب من مذاهب مختلفة الى مذهبها هي ؛ اما المدارس « المسيحية » فانها تحاول ان تهيء للطالب ، من اي مذهب كان ، جوا مسيحياً وتحمله فيه على ممارسة التقوى المسيحية والسلوك المسيحي (٨٨ وما بعدها ، ٩٩) ، وخصوصاً ما دام طفلا . وهكذا ينشأ الطالب وتنشأ معه فلسفة مسيحية للحياة (ص ٣٠) .

كيف تختار هذه المدارس اساتذتها

والمؤلف لا يتطلب من المعلم ان يكون مسيحياً فحسب ، بل يجب ان يكون مسيحياً من كل قلبه وان يطبق الحياة المسيحية على المبادىء الاجتماعية والسياسة والدولية (ص ٣٠— ٣١) . ولهذا كان المعلم الاجنبي افضل من المعلم الوطني ، وخصوصاً اذا كان المعلم الوطني مسلماً . يقول المؤلف دانبي :

« ثم يتسع الشك على كل حال حينما نأتي الى استخدام معلم غير مسيحي ليعلم موضوعات لا نجد لتعليمها معلماً مسيحياً . اجل ، ان البراعة في التعليم لا صلة لها بدين المعلم . ومما لا ريب فيه ان معلماً مسلماً ذا خبرة بمهنته وذا كفاءة يمكن ان يكون له من الجاذب الشخصي

١) جميع ارقام الصفحات المحصورة بين الاهلة في متن المقاطع التالية تعود الى :
H. Danby, *Why « Christian » Schools?* or what can « Christian » Schools contribute? with particular reference to Palestine, Jerusalem 1936.

وقـوة الخلق والشعور بالواجب ما يجعل منه معلماً يبعث الحياة في طلابه او مربياً صالحاً . ثم هو يمكن ان يؤثر في طلابه اكثر من المعلم المسيحي المجرد من الصفات التي يتصف بها ذلـك المعلم المسلم. ولكن اذا كانت الغاية من التعلـيم في المدارس المسيحية (كما يجب ان تكون) انما هو تزويد الطلاب باستشراف مسيحي للحياة، وتمرين لهم على ممارسة المبادىء المسيحية وتقريبهم من اختبار شخصي للايمان المسيحي، فكيف يمكن للمسلم الامين ان يعاونا على بلوغ هذه الغاية؟ ثم اذا كان هو يعتقد بهذه الغاية (لانه ضعيف الشخصية خنـوع) ولـكنه لا يخطو خطـوة يصبح بها مسيحياً ، أفلا يكون له حينئذ على تلاميذه تأثير سلبي فيستنتجون من سلوكه ان الـدين ليس موضوعاً ذا اهمية حاسمة ؟ (ص ٦٢ ، ٦٧ — ٦٨) .

فللمدارس المسيحية اذن رسالة تـــؤديها. ورسالتها هذه غاية قصوى ، هي ان تجعل الشعوب كلها في المستقبل تابعة للكنيسة المسيحية (ص ١٠١ ، راجع ص ١٤ وما بعدها الى ١٨) .

من اجل ذلك كله ترفض هذه المدارس — وفي فلسطين خاصة — ان تتقيد بالمنهاج الرسمي للبلاد[1]: ان تقيد هذه المدارس بالمناهج الرسمية يفقدها صفتها التبشيرية المسيحية ويجعلها مدرسة في عداد المدارس الوطنية فتبطل الغاية من وجودها (راجع ص ٦ — ١٠) .

وهكذا نرى ان عقليـة الاجانب ، الذين يأتون الى بـلادنا باسم العلم ونشر العلم ، لم تتغير قط في القـرن الذي انقضى على بـدء مجيئهم الى هذه البلاد ، منذ ايام دانيال بلس الى ايام ستيفن بنروز ، كلهم مبشرون في الدرجة الاولى ، وناشرون للعلم بالعَرَض فقط . وما يقـال عن الجامعة الاميركية يقال عن الجامعة اليسوعية وعن كل ارسالية اجنبية .

وبما ان التبشير رأساً لم يجعل احداً من المسلمين يصبأ الى النصرانية ، فقد اتفق المبشرون على ان يقتربوا من المسلمين بطريقة غير مباشرة . والكل متفقون على ان التعليم افضل هـذه

١) ان مدارس الارساليات في لبنان تحاول كلها الا تتقيد بالمنهاج الرسمي في التعليم وتطالب بجعل التعليم حراً.

الطرق غير المباشرة[1]. من اجل ذلك يجب الا نستغرب اذا كانت اكثر مدارس البنين والبنات — والمدارس الاميركية خاصة — لا تزال مرتبطة بالارساليات[2]. ومع ان الارساليات التبشيرية تحاول النفوذ الى الطوائف المسيحية المتعددة في الشرق، كأن يكتسب البروتستانت مثلا نفراً من الارثوذكس، فان المقصود الاول بالتبشير من طريق التعليم هم المسلمون، وخصوصاً بعد أن تبدلت الاحوال والعقليات بعد الحرب العالمية الاولى. وهكذا كان « تاريخ الاعمال التبشيرية في البلاد الاسلامية، الى حد كبير، تاريخاً للتعليم الاجنبي »[3].

لهذه الاسباب يعمل المبشرون على استغلال الجهل بين الشعوب والامم لينفذوا الى غاياتهم. كتب بنيامين ماراي مقالا في مجلة العالم الاسلامي موضوعه : « شمالي نيجرية ميدان للتبشير »[4] استعرض حالة البلاد وما هي عليه من التأخر العلمي على الاخص، إذ ان الذي يحسنون القراءة والكتابة، او شيئاً من الكتابة فقط، لا يتجاوزن اثنين ونصف بالمائة؛ ثم قال (ص ١٨١) « وهذا يتيح فرصة عظيمة للتعليم التبشيري المسيحي ».

وسائل التبشير في اثناء التعليم

لما بدأ المبشرون عام ١٨٣٤ يفتحون المدارس في بلادنا كان معظمهم يقصر التعليم على التوراة والانجيل فقط لا يريد ان يتعداهما، اذ ان غاية المبشرين الحقيقية كانت إعداد شبان للتعليم في مدارسهم اوللعمل في مكاتبهم[5] توسيعاً لحركة التبشير. على ان بعضهم كان يود ان يعلم الطلاب شيئاً آخر سوى التوراة والانجيل[6]. ولكن المبشرين كلهم اجمعوا على ان

---

1) MW, July '36, pp. 224 ff.
2) MW, Oct. 31, p. 389.
3) *cf.* Milligan 20; Christian Workers 21, III; Gairdner 277 f.
4) *Northern Nigeria as a Mission Field*, by Benjamin J. Marais, in « The Moslem World », April 1935 pp. 173 ff.
5) Richter 191
6) *cf. Re-Thinking Missions* 162; Richter 191.

التعليم الديني شيء اساسي في سبيل غايتهم، واقترحوا فوق ذلك ان يوحّد المبشرون مشروعهم المسيحي في التعليم [1].

في ذلك الحين كان العلم قليل الانتشار في بلادنا. يقول هنري جسّب: اننا اذا استثنينا القرآن وكتب الدين (كالتفسير والحديث والفقه) بين المسلمين، ثم كتب اللاهوت (الفقه المسيحي) بين النصارى، لم يكن ثمت في البلاد العربية كتب [2]. على ان في هذا مبالغة. لقد كان ثمت كتب لغة وكتب ادب ودواوين شعر كثيرة. ولكن هذه الكتب كلها كانت على كل حال قليلة الانتشار بين عامة الشعب. ويشهد جسّب انه كان في ذلك العصر كثيرون من المسلمين يقرأون (ويكتبون ايضا)، اما بين النصارى فكان الذين يستطيعون القراءة او الكتابة نفراً قليلين. من اجل ذلك كله فكر المبشرون كلهم بأن يتخذوا من التعليم وسيلة وستاراً الى التبشير. ولقد رتبوا ذلك على المنهاج التالي:

« ان المبشر الاول هو المدرسة »!

١ — يجب ان يكون ثمت مدارس حتى يستطيع المبشر ان يتصل بالناس ويدعوهم الى مذهبه الديني. ولذلك قال اليسوعيون: ان المبشر الاول هو المدرسة [3].

٢ — ولما اراد المبشرون ان يجعلوا التعليم قاصراً على التبشير فقط من غير ان يطلعوا على سر ذلك احداً، اشترطوا ان يكون المعلم في هذه المدارس اجنبياً غير وطني. أما اذا دعت الحاجة الى معلم وطني فليكن مسيحيا في الدرجة الاولى [4]، ولكن يجب ان يكون متمرنا على التبشير [5]. ونحن اذا راجعنا اسماء الاساتذة الذين يعملون في مؤسسة كالجامعة الامريكية مثلا

1) *Re-Thinking Missions* 164, 263; Bliss (R) 334; Jessup 593 ff. etc.

2) Jessup 27.

3) *cf. Les Jesuites en Syrie* 10: 67.

4) Jessup 304, 518, 519.

5) Jessup 593; Bliss (R) 334.

رأينا ان جميـع الذين تعهدوا هذه المؤسسة من قبل او عملوا فيها كانوا مبشرين . ولا يزال الى اليوم فيها نفر مبشرون في الدرجة الأولى . و بالامس القريب في عام ١٩٤٥ او ١٩٤٦ وجه استاذ ، من الاساتذة الذين لا يمكن ان تظن انهم مبشرون ، كل عنايتـه الى طالب وادخله في المسيحية . ثم ان الجامعة ارسلت هذا الطالب الى احد الاديرة في بلجيكا . وان احدنا ليعجب ان تكون الجامعة الامريكية اليوم ايضاً مسرحا للتبشير .

ولا تزال جميع المدارس الاجنبية تسير على سياسة الاستغناء عن المعلم المسلم ما امكن ، حتى الكلية العلمانية . اما مدارس اليسوعية والفرير فلا يمكن ان يعلّم فيها مسلم ابداً . واما الكلية العلمانية في بيروت ففيها مدرس واحد مسلم ،على ماذكر. واما الجامعة الامريكية في بيروت فكانت قد مالت منذ عام ١٩٢٥ الى ان يكون فيها عدد من المدرسين المسلمين اختارتهم من ابناء الاسر المعروفة في بيروت والقدس ونابلس وحلب وحمـاة ودمشق ، وكانت ترسلهم قبيل بدء كل عام مدرسي الى المدن الداخلية ليشجعوا ابناءها على الدخـول في الجامعة ، ثم انهـا اضربت عن ذلك ايضـاً .

ولا حاجة بنـا الى القول بان هؤلاء المدرسين المسلمين لم يكونوا يعاملون من حيث الراتب والرتبة كالمدرسين الامريكيين ولا كالمدرسين الوطنيين من غير المسلمين ايضا ، مـع العلم بان حال بعض المدرسين الوطنيين من غير المسلمين لم تكن حالا تدعو الى الغبطة. ولقد لقي بعض هؤلاء المدرسين المسلمين من الجامعة الاميركية عنتاً شديـداً .

٣ — وكذلك طبقت مدارس المبشرين سياستها الضيقة على كتب التدريس ، واعتمدت في اول امرها كتاباً واحداً هو التوراة[٢] . ولما ادركت ان هذا الكتاب وحده لا يكفي ورضيت ان تدرس التاريخ والجغرافية كانت تدرسهما من ناحية صلتهما بالتوراة فقط . ثم اضافت الى ذلك كله موضوعات مشابهة[٣] .

١) وقد عاد هذا الطالب في اواسط ١٩٤٩ بعد ان درس هناك ما قيل له ان يدرسه .

٢) العهد القديم والعهد الجديد : او التوراة والانجيل .

3) Jessup 593 ; Bliss (R) 334 ; *Re-Thinking Missions* 264.

كتب الطعن على الاسلام

واخيراً جاءت العلوم الحديثة ، ولم يبق بالامكان ان تتجاهل المدارس الاجنبية علوماً عظيمة نافعة كالرياضيات والكيمياء والحقوق والاجتماع والاقتصاد والرسم وما شابهها . فالجأت تلك المدارس حينئذ الى سياسة جديدة ، الى سياسة الدس على الاسلام والتاريخ الإسلامي . أليست هذه المدارس مدارس تبشيرية ؟ أوَ ليس هدفها الاول مقاومة العرب والاسلام ؟ فلماذا لا تكتفي اذن من تنفيذ خطتها بمهاجمة خصمها الحقيقي؟ وهكذا انحدر التبشير والمبشرون الى درك في التاريخ والعلم لا يحمدون على الانحدار اليه . فلنستعرض بعض آراء هؤلاء في الكتب التي يقررونها في مدارسهم .

لنأخذ اولاً الكتاب التالي ففيه اسوأ ما يمكن ان يقال ، ثم لنفرغ منه الآراء المنبثة في غيره من الكتب .

اسم الكتاب الذي اعنيه : البحث عن الدين الحقيقي ، وهو محاضرات في التعليم الديني تأليف المنسنيور كولي . وقد صدر عن اتحاد مؤسسات التعليم المسيحي في باريس عام (طبعة ١٩٢٨[1]). هذا الكتاب قد نال رضا البابا لِون الثالث عشر في عام ١٨٨٧ ثم عاش في المدارس المسيحية في الشرق والغرب الى اليوم يطوي الصدور على الاحقاد نحو العرب والمسلمين ، ويستفز شعور المسلمين استفزازاً شديداً.

جاء على الصفحة ٢٢٠ من هذا الكتاب ما يلي :

« الاسلام — في القرن السابع (للميلاد) برز في الشرق عدو جديد ، ذلك هو الاسلام الذي اسس على القوة وقام على اشد انواع التعصب . لقد وضع محمد السيف في ايدي الذين اتبعوه ، وتساهل في اقدس قوانين الاخلاق ، ثم سمح لاتباعه بالفجور والسلب ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات . وبعد قليل اصبحت آسية الصغرى وافريقية

---

1) *Recherche de la vraie religion* (*cf.* Bibliographia).

واسبانية فريسة له ، حتى ان ايطالية هددها الخطر . وتناول الاجتياح نصف فرنسة . لقد اصيبت المدنية . ولكن هياج هؤلاء الأشياع (المسلمين) تناول في الاكثر كلاب النصارى... ولكن انظر، ها هي النصرانية تضع بسيف شارل مارتل سداً في وجه سير الاسلام المنتصر عند بوانيه (٧٥٢م). ثم تعمل الحروب الصليبية في مدى قرنين تقريباً (١٠٩٩ — ١٢٥٤م) في سبيل الدين فتدجج اوروبة بالسلاح وتنجي النصرانية . وهكذا تقهقرت قوة الهلال امام راية الصليب وانتصر الانجيل على القرآن وعلى ما فيه من قوانين الأخلاق السهلة...» [١].

هذا نوع من الكتب التي تؤلف في الغرب عن الشرق ؛ بل ان هذا النوع هو الغالب على اهل الغرب حينما يكتبون عن الشرق العربي او الشرق المسلم : تعصب ذميم وتشويه للحقائق وإيقاد للاحقاد . ثم هم يأتون بهذه الكتب ويدرسونها في الشرق العربي والشرق المسلم . ويظهر ان هذا الكتاب الذي نحن بصدده يدرس او كان يدرس على الاقل في مدارس الاخوة المسيحية (الفرير) في بيروت وفي جميع المدارس التابعة لهذه الرهبنة في غير بيروت .

هذا النوع من التأليف هو الذي اقلق السلام بين الشرق والغرب منذ أقدم الازمنة، وهو الذي يهدد السلام كل يوم وخصوصاً في الشرق . وليس بعجيب ان تكون حكومة الانتداب الماضية قدحمت هذا النوع من التأليف وفرضته على البلاد بالقوة . ان قارىء امثال هذا الكتاب هو احد ثلاثة نفر: اما ان يكون من الذين يسرون بمثل هذه الشتائم ليشفي صدراً حقوداً ، وهو خطر على الوطن لانه يجر عليه اسوأ العواقب . واما انه رجل من سواد العامة يثار بمثل هذه الامور فيقابلها حينئذ بمثلها فيرد عليه آخرون قوله وتنتهي الحال بفتنة عمياء تأتي على كل شيء ، وذلك ايضاً خطر على الوطن . واما انه رجل عاقل يرى في ثنايا ما يقرأ نفساً صغيرة وغاية حقيرة فيحتقر صاحبها ثم يوسع حكمه الى احتقار الذين يرضون عن صاحبها ، فاذا هو ممتلىء شكوكاً وحذراً واشمئزازاً من الذين يعيشون معه، وفي ذلك ايضا خطر على الوحدة الوطنية.

---

١) لا تزال امثال هذا الكتاب تدرس في مدارس الارساليات الاجنبية في لبنان . وفي كل حين تضطر وزارة المعارف اللبنانية الى منع كتاب او اكثر .

اضف الى ذلك كله ان هذا تشويه للحقائق وكذب على التاريخ ، وان الامم التي تريد ان تحيا حياة نبيلة عظيمة صحيحة يجب ان تكون ارفع من تنحدر الى ذلك .

وقد تكون المصيبة هينة لو ان صاحب هذا القول رجل من عُرض الناس ، ولكنه رجل كاهن قانوني مثقف يمثل احسن طبقات قومه . ثم ان البابا نفسه قد استحسن كتابه : قد استحسن اتجاهه واستحسن تفاصيل ما فيه من حوادث واحكام واستحسن اسلوبه .

واجب الحكومات الوطنية

وبعد ، فان من اول واجبات الحكومات الوطنية ان تزيل اسباب التنافر والشقاق بازالة هذا النوع من الكتب من بين ايدي طلاب اليوم ورجال الغد كي توجد في كل قطر وفي كل زمن وطناً موحداً سليماً من الاحقاد والمخاطر ؟

وهذا كتاب آخر يدرّس مثلا في الصف الرابع من المدرسة البطريركية في بيروت ، ويدرس بلا ريب في مدارس اخرى كثيرة في لبنان ، وفي غير لبنان(وهو مطبوع في لبنان) والاسم الكامل لهذا الكتاب هو هذا :

تاريخ محاضرات ج. ايزاك . حررها أ. ألبا
للشرق الادنى ، لطلبة الصف الخامس (العصور الوسطى)
طبعته مطابع الاداب الفرنسية في بيروت (١)

جاء في هذا الكتاب :

ص ٣١ — واتفق لمحمد في اثناء رحلاته ان يعرف شيئاً قليلا من عقائد اليهود والنصارى . ولما اشرف على الاربعين اخذت تتراءى له رؤىً اقنعته بان الله اختاره (رسولا).

ص ٣٢ — والقرآن مجموع ملاحظات كان تلاميذه يدونونها بينما كان هو يتكلم ، وقد امر محمد اتباعه ان يحملوا العالم كله على الاسلام بالسيف اذا اقتضت الضرورة .

---

(1) *Histoire*, cours J. Isaac, redigée par A. Alba pour le Proche-Orient. Class de 5ème, Moyen Age (Les Lettres Française, Beyrouth.)

ص ٣٦ — و بينما كان محمد يعظ كان المؤمنون به يدونون كلماته على عجل .

ص ١٢٦ — ودخلت فلسطين في سلطان الكفرة منذ القرن السابع للميلاد .

*

وهنالك ايضاً كتاب آخر يستحق اهتمامنا . اسمه تاريخ فرنسة ، تأليف هـ. غيومان و ف . لوستير (لصفوف الشهادة الابتدائية)[1] .

هـذا الكتاب يدرس في مدرسة القديس يوسف للبنات في بيروت وفي مدارس هذه الارسالية في غير بيروت بلا ريب[2] ، وقد جاء فيه مما نحن بصدده:

ص ٨٠ — ٨١ — ان محمداً ، مؤسس دين المسلمين ، قد امر اتباعه ان يخضعوا العالم وان يبدلوا جميع الاديان بدينه هو . ما اعظم الفرق بين هؤلاء الوثنين و بين النصارى! . إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة وقالوا للناس : « أسلموا او موتوا » ، بينما اتباع المسيح ربحوا النفوس ببرهم واحسانهم .

ماذا كانت حال العالم لو ان العرب انتصروا علينا ؟ اذن لكنا نحن اليوم مسلمين كالجزائريين والمراكشيين .

*

بمثل هـذا الحقد يكتب المبشرون الكتب ، و يضعونها في المدارس لابنائنا ثم يزعمون انهم جاءوا للتعليم والتهذيب .لقد صدق العرب : إنّ فاقد الشيء لا يعطيه . افبمثل هذا يسعى سعاة الامم بان يقروا السلام في العالم والاطمئنان بين الشعوب والامم ؟ ان الاطمئنان والسلام لن يسودا ما دام هؤلاء المبشرون يزرعون ارض العالم احقاداً و بغضاء .

---

1) *Histoire de France*, du Cours moyen au certificat d'études, par H. Guillemain et F. Le Ster, Paris (Les éditions des écoles), 11, rue de Sèvres.

٢) قد تكون ادارة مدرسة القديس يوسف قد بدلت الآن هذا الكتاب بكتاب آخر احسن منه اتجاها او اسوأ . ولكن حينما كنا نضع كتابنا هذا ، كان الكتاب المذكور يدرس هنالك .

٤ — ويلحق بكتب التدريس التي عُني بها المبشرون والتي تتضمن تهجماً على العرب والاسلام كتب الخلافات ، وهي كتب تتضمن ردوداً على الاسلام واعتراضات على عقائده وتاريخه [1]. هذه الكتب لا تختلف كثيراً عن النموذج الذي رأيناه قبل بضعة اسطر ، ولكن يقصد بها طبقات القراء من الناس لا الذين لا يزالون على مقاعد الدراسة فقط.

٥ — ومن سياسة المبشرين اقامة الاجتماعات العامة التي تلقى فيها الخطب وتقام فيها المناظرات والمجادلات [2].

٦ — ومن سياستهم ايضاً بناء كنيسة الى جانب كل مدرسة [3] ، ولا ضرر مخصوص من ذلك .

٧ — ويرى المبشرون ان يتظاهروا بدرس مشاكل الشباب المختلفة وبذلك ينفذون الى نفوس الشباب من اهون الطرق لاجتذابهم الى اديانهم ومذاهبهم . واذا لم يستطع المبشرون ذلك فما عليهم الا ان يوجهوا الشباب توجيهاً مسيحياً [4].

فالمبشرون اذاً ، اذا عملوا في التعليم ، فانهم لا يقصدون بذلك وجه العلم . انهم يحاولون ان يستغلوا العلم في سبيل شيء آخر .

نشاط المبشرين من طريق التعليم

لقد اساء المبشرون الى اشرف مبادىء الانسانية ، الى العلم ، لما اتخذوا منه وسيلة الى التبشير . ان الاب الذي يأتمن على ابنه مدرسة ما من المدارس يقدم اثمن ما لديه وهو يعتقد انه قد وضع ابنه — وهو لا يزال ساذجاً بريئاً — بين يدي انبل الناس ، بين يدي المعلمين .

---

1) *cf.* Gairdner 285, 288.
2) Gairdner 285, 288 ; *cf. Re-Thinking Missions* 163. 264 ; *cf* Methods of Mission 65 f.
4) Jessup 59f.
5) *Re-Thinking Missions* 163 f., 264.

ولكن المعلم المبشر مخلوق قد نفرت من قلبه اجمل معاني الانسانية ، لقد نفرت من قلبه الامانة والاستقامة والصدق. نحن نفهم ان يتعرض المبشر لرجل ناضج ويحاول ان يستميله بضروب الاستمالات، كما يتعرض الشيوعي او الجمهوري او الملكي او الاشتراكي الى الناس ليقنعهم بصواب مذهبه. اما ان يتخذ رجل اشرف ثوب اسبغه الله على الانسانية ليخادع به الاطفال ومن فوقهم قليلا ، فهذا عندنا وعند الناس كلهم منتهى الكفران للامانة التي علقت في رقاب البشر . ألم يقل شاعرنا شوقي :

قم للمعلم وفّه التبجيلا ، كاد المعلم ان يكون رسولاً !
أعلمت أشرفَ أو أجلّ من الذي يبني وينشىء انفساً وعقولا ؟

هذا الذي ظنه شوقي ، وظنه الناس كلهم ، اشرف الناس قد جاء ان بلادنا يلبس ثوب التقى ويتظاهر بعنوان الانسانية بينما تنطوي نفسه على اعظم قسط من الرياء يستغله في اشرف مكان على هذه الارض ، في المدرسة. واذا نحن علمنا ان الاسلام قد قال على لسان رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم: «علم ساعة خير من عبادة سبعين سنة» ادركنا مقدار ما في نفوس المبشرين، الذين يتخذون العلم وسيلة الى غاية ضيقة ومستورة ، من النفاق والرياء والجناية على الانسان والروح الانسانية .

على ان المبشرين استغلوا العلم النبيل ستاراً لغايات هي بدورها ستار لغايات اخرى . لقد تظاهروا بالعلم وتظاهروا بالاحسان الى الناس وتظاهروا بالدين، ولكنهم في الحقيقة يريدون — هم ومن استخدمهم — ان يصلوا من طريق هذا النشاط البريء في ظاهره الى استعباد الشرق واستغلاله سياسياً واقتصادياً .

في عام ١٢٩٤ للميلاد ظفر رامون لَلْ [1] بمقابلة من البابا سلستين الخامس وقدم له كتابين فيهما خطة للتبشير بين المسلمين في الأكثر . وكانت خطة رامون لَلْ ذات شقين ،

1) Ramon Lull.

اولهما ان يتخذ العلم والمدارس وسيلة للتبشير ، وثانيهما ان يُنَصِّر المسلمين بالقوة اذا لم تنفعْ فيهم الجهود السلمية [١].

ومع ان البابا سلستين هذا لم يصغ تمام الاصغاء الى رامون لل [٢]، فان التبشير مشروع بابوي يَتَمَيَّز حتى من النصرانية نفسها [٣]. ان غريغوريوس السادس عشر الذي اصبح بابا عام ١٨٣١ قد شجع اليسوعيين على المجيء الى سورية وامرهم بالعمل فيها [٤]. وكذلك أعطى البابا ليون الثالث عشر اليسوعيين في سورية عام ١٨٨١ حق منح الشهادات بانواعها. وهكذا اصبحت جامعة القديس يوسف جامعة باباوية [٥]. اما بيوس الحادي عشر الذي جاء الى عرش رومية عام ١٩٢٢ فقد كان يسمى بابا التبشير [٦]. وهكذا نرى ان التبشير من طريق التعليم مشروع باباوي في اساسه وتطوره.

والتعليم عند المبشرين غاية واحدة ، هي تنصير التلاميذ الذين يحضرون الى المدارس. في الكلية الانكليزية في القدس طلاب مسلمون ونصارى ويهود ، وكانت سياسة المدرسة ان تبشر فيهم كلهم [٧]. الا ان المقصود بالتبشير هو المجموع الاسلامي. ذلك لأن تاريخ الاعمال التبشيرية في بلاد الاسلام كان الى حد كبير تاريخاً للتعليم التبشيري [٨].

ولقد استغل المبشرون التعليم لأن للتعليم أثراً فعّالا ، بل هو اقوى وسائل التبشير. وعلى هـذا الاساس بدأ المبشرون بانشاء مدارسهم ، حتى انهم انشأوا اول مدرسة للبنات في

---

1) Addison 45.
2) Addison 46.
3) *cf.* Jung 10.
4) *Lss Jesuites en Syrie* 1 : 8,9.
5) *ibid.* 1 : 10, 11.
6) Pape de Mission, *cf. Les Jesuites en Syrie* 1 : 7.
7) Cash 149.
8) Christian Workers 20.

الامبرطورية العثمانيــة عام ١٨٣٠ في بيروت [1] . والمبشرون يرون ايضــاً ان الوسيلة التي تأتي بأحسن الثمار في تنصير المسلمين انما هي تعليم اولادهم الصغار [2] .

من اجل ذلك لم نستغرب ان يـدعو المبشرون الى انشاء مدارس كثيرة في البلاد الاسلامية ، فانهم بهـذه الطريقة يُخرجون التلاميذ المسلمين من عناية المدارس المسلمة . ففي مصر مثلا ترى المبشرين يكـثِّرون من مدارسهم لينتزعوا المسلمين والاقباط على السواء من مدارس الحـكومة فيخرجون التلاميذ من نطاق التعليم الاسلامي الى مدى التعليم المسيحي [3] . وهكذا رأينا البروتستانت خاصة ينشرون مدارسهم في جميع انحاء الشرق الادنى [4] . ويفتخر جسَب بان مجموع عدد التلاميذ في المدارس الامريكية البروتستانتية كان في عام ١٨٩١ يبلغ ٧١١٧ ،فاذا اضيف اليهم عدد الطلاب في سائر المدارس البروتستانتية كان ثمت خمسةعشر الف طفل في قبضة التعليم الانجيلي [5] .وبعد ثماني عشرة سنة اي عام ١٩٠٩ كان للامريكان وحدهم مائة واربع وسبعون مدرسة في سورية وحدها منثورة في المدن والقرى [6] .والمبشرون يحرصون على ان تكون المدارس هذه أجنبية لانها هي التي تجعل المسلمين اقرب الى التوراة [7] .

ولكي يكون التبشير كاملا يرى المبشرون أن يتولوا هم التعليم في جميع انواعه ودرجاته [8] . فرياض الاطفال مثلا مهمة جداً لان التعليم الديني في هذه المدارس يجعلها باباً مفتوحاً للتبشير وللتأثير في عقول الاطفال الغضة . ثم ان الذين يشرفون على رياض الاطفال يكونون اكثر اتصالا باهل الطلاب من الذين يشرفون على المدارس العالية [9] . وكذلك التعليم الابتدائي

---

1) Bliss (R) 327.
2) Christian Workers 58.
3) Methods of Mission 64.
4) Richter 221.
5) Jessup 593.
6) Jessup. 805-808
7) Islam and Missions 285
8) Christian Workers 22, 23, 38 f.
9) *Re-Thinking Missions* 274 f.

وسيلة ثمينة للتبشير لأنه يمكن المبشرين من ان يثبتوا اقدامهم في القرى [1] تحت ستار التعليم الابتدائي الذي تحتاج اليه القرى في الدرجة الاولى. وللمدارس الابتدائية فضل على الكليات لانها تمكن المبشر من ان يصل الى العقول وهي لا تزال تتأثر بما يلقى اليها. ثم ان المدارس الابتدائية كرياض الاطفال تساعد على ان يتصل المبشرون باهل الطلاب [2]. واكثر ما وصل اليه المبشرون البروتستانت انما كان عن طريق المدارس الابتدائية [3].

اما اليسوعيون خاصة فيجعلون الصفوف الدنيا في عهدة راهبات ، لان الطلاب « الصغار » [4] هم فسائل (شتل) تغرس فيما بعد في الكليات فيجب ان تكون هذه الفسائل مطبوعة طبعاً خاصاً [5].

التبشير وقادة البلاد في المستقبل

والتعليم العالي عند المبشرين لا يقل اهمية عن سائر درجات التعليم ، ذلك لأنه يساعدهم على الوصول الى الطبقات المثقفة ، بل لعله اهم منها كلها . ولقد ادرك المبشرون منذ زمن ان التبشير قد خاب لأن الافراد الذين لفتهم المبشرون عن الاسلام الى النصرانية كانوا قلائل ، ولم يكن لهم الأثر المنتظر. فلما اعتقدوا ان لا قدرة لهم على جعل المسلم نصرانياً احبوا ان يجعلوا الآراء المسيحية تتسرب الى المسلمين والى المثقفين منهم خاصة. ثم إنهم اعتقدوا ان هذه الآراء تتسرب بعدئذ من تلقاء نفسها الى المجتمع الاسلامي . هذه هي الفكرة التي اقنعت المبشرين بضرورة انشاء المعاهد العالية في البلاد الاسلامية [6].

وكذلك كان للمبشرين غاية اخرى من التعليم العالي ، هي ان يؤثروا في قادة الرأي في البلاد وفي الجيل الناشىء في الشرق الادنى خاصة ، ذلك التأثير الذي لا يمكن ان يتحقق

---

1) Addison 123
2) *Re-Thinking Missions* 118.
3) Bliss (R) 317.

٤) في الاصل Minimes اي الصغار

5) *Les Jesuites en Syrie* 5 : 14
6) *Re-Thinking Missions* 164.

اذا لم يكن ثمت تعليم عـال [١]. وعلى هذا الاساس اوجد المبشرون البروتستانت كلية في بيروت عام ١٨٦٢ وجعلوا على رأسها المحترم دانيال بلس [٢]. هذه الكلية اصبحت فيما بعد: الكلية السورية الانجيلية ، ثم هي اليوم الجامعة الاميركية في بيروت .

ومن رأي المبشرين ان تؤسس الكليات في المراكز الاسلامية ، ولذلك لم يكتفوا ببيروت بل ارادوا ان يكون ثمت كلية في القاهرة نفسها الى جانب الجامع الازهر [٣]. وهكذا اصبح للمبشرين الامريكيين الكليةُ الامريكيـة في القاهرة بعد كلية روبرت في استانبول ايضاً . ولم يـكن رأي المبشرين الفرنسيين مخالفاً لذلك فأنشأوا كلية لهم في مدينة لاهور [٤]. وهي مدينة من المدن الإسلامية الـكبرى في الهند (وعاصمة مقاطعة البنجاب في باكستان) .

نشاط المبشرين في انشاء المدارس

لما نزل المبشرون الامريكيون من البروتستانت في سورية حوالي ١٨٢٠ كانت الفكرة الـتي تراودهم منذ ذلك الحين ان يبشروا من طريق التعليم ، ولذلك لا نستغرب اذا رأيناهم ينتشرون في كفرشيما (قرب بيروت) وفي بحمدون بجبل لبنـان ثم في طرابلس وحمص وغيرها . الا ان بؤرة نشاطهم التعليمي التبشيري كانت في بلدة عبيه الدرزية في جبل لبنان ، حيث انشأوا مدرسة لتخريج المعلمين والواعظين (المبشرين) عـام ١٨٤٣ وجعلوها برئاسة الدكتور كارنيليوس فان دَيْك [٥]. وفي كانون الثاني من عام ١٨٥٩ اسس الـبروتستانت الامريكيون في عبيه ايضـاً مدرسة للبنات [٦]. ومثل البروتستانت فعل اليسوعيون : لقد أنشأ

---

1) Milligan 124-5
2) Rev. Danial Bliss. *cf.* Jessup 241
3) Milligan 124 f.
4) Gairdner 251
5) Cornilius Van Dyck. *cf.* Bliss 105 ff.
6) *ibid* 123

اليسوعيون مدرستهم الاولى في غـــزير (في كسروان — جبل لبنان)، ولكنهم فيما بعد نقلوا نشاطهم الى بيروت [١] كما فعل الامريكيون من قبل . وسنرى تفصيل ذلك كله [٢].

ومع كثرة المنافسة بين فرق المبشرين المختلفة في التعليم وفي غير التعليم فان هذه الفرق اتفقت كلها على المسلمين. ففي عام ١٩١٢ كان في سورية كلها ثمان وثلاثون مؤسسة تبشيرية ما بين انكليزية واسكوتلندية وايرلندية والمانية وسويدية ودنماركية واميركية طبعاً ، لها مدارس كثيرة . وقد كانت كل هذه المؤسسات ، مع تضارب سياساتها ومع كل ما بينها من التنافس ، متفقة على وضع التوراة في العربية بين ايدي الطلاب على انه كتاب تدريس اساسي [٣]. ولقد اتفقت المؤتمرات المحلية التي عقدت عام ١٩٢٤ في القدس وبرمانا (لبنان) وقسطنطينة (الجزائر) وحلوان (مصر) وفي بغداد على التعاون بين المبشرين كلهم للوصول الى اهدافهم في العالم الأسلامي [٤] . والتبشير من طريق التعليم مقصود به المسلمون خاصـــة [٥].

ولقد استطـاع المبشرون ان يبعثوا كثيراً من العداوة بين الطلاب حينما اتبعوا سياسة تقضي باستخدام الطلاب النصارى في مـدارسهم وسطاء الى التبشير بين الطـلاب المسلمين كما حدث في مصر [٦] .

اجبار المسلمين على دخول الكنيسة في مدارس المبشرين

ان المدارس الاجنبية كانت تجبر جميع طلابها على دخول كنيسة المدرسة مرة كل يوم، ولا تزال مدارس الأرساليات الفرنسية تفعل ذلك الى يومنا هذا أو أنها ظلت تفعل ذلك الى زمن قريب على الاقل .

---

1) *Les Jesuites en Syrie* 5 : 8

٢) راجع الفصل التالي .

3) Bliss (R) 328, cf.329

4) Christian Workers 27-8, 40-42, 53 f., 77-9, 105 f., 135 f.

٥) راجع ما قبل .

6) Methods of Mission 64.

وكذلك كانت الكلية السورية الانجيلية (الجامعة الاميركية اليوم) تفعل فتجبر جميع طلابها على دخول الكنيسة وعلى حضور درس التوراة. فلما اعلنت الحرية عام ١٩٠٨ اقسم عدد من الطلاب الا يحضروا دروس الدين المسيحي وألا يدخلوا الكنيسة. وعجزت الكلية عن ان تطردهم لأن عددهم كان مائة وستين تلميذاً. فاضطرت الى ان تعفيهم من حضور دروس التوراة ومن دخول الكنيسة معاً.

في ذلك الحين كان هوارد بلس، مدير الكلية، غائباً فلما عاد عمد الى تسوية مبنية على ان الطلاب غير النصارى مُعفَوْنَ من دخول الكنيسة، ولكنهم غير مُعفَيْنَ من حضور دروس التوراة. وهذا هو الذي ابقى في رأي المبشرين على الشخصية الدينية للكلية[1]. وفي سنة ١٩١٢ كان على جميع الطلاب ان يحضروا قداس الوعظ يوم الاحد. وكان ثمت اجتماعات دينية يتوجب حضورها على بعض طبقات الطلاب[2].

وحتى عام ١٩٢٢ كانت الجامعة الاميركية لا تزال تصر على تعليم التوراة في صفوفها اذا استطاعت. في العام المدرسي ١٩٢١—١٩٢٢ انتقلت[١] من مدرسة رأس بيروت التابعة لجامعة بيروت الأميركية الى الجامعة نفسها ودخلت الى الصف الثالث الاستعدادي. كانت الجامعة لا تزال يومذاك في عهدها المخضرم تخير طلابها بين ان يحضروا صفوف التوراة وبين ان يتلقوا دروساً في الاخلاق. ولم يكن مستغرباً ان تختار الفرقة التي كنت انا فيها دروس الاخلاق. على اننا فوجئنا بكتاب وضعته الجامعة بين ايدينا لا يختلف عن التوراة في شيء الا في اسمه فقط، اما موضوعاته فقصص مأخوذة من التوراة ومن اخبار القديسين. فرفضنا نحن شراء الكتاب او قبول تعيين درس منه.

---

1) Jessup 788
2) Bliss (R) 331.

١) الكلام هنا للدكتور عمر فروخ

ولقد احسنت ادارة الدائرة الاستعدادية يومذاك الاختيار فاستدعتني أنا وألقت علي تهمة تحريض الصف — مع ان هذا الشرف لم يكن لي وحدي — وخاطبني الرئيس وليم هول بكلام قاس ، ثم قال لي : بما ان اعتراضك كان حقاً فقد ألغينا الكتاب ، ولكن بما ان ردك على المستر كلانس في اثناء الصف كان خارجاً عن اللياقة المدرسية فقد وجب عليك « الحجز » بعد ظهر الاربعاء . ولقد كان مراقب الحجز في ذلك اليوم الاستاذ فريد مدور .

وكان من الحكمة ان اتقيد بامر الرئيس وليم هول طائعاً مختاراً ، لأن حجزي ألقى على قضية الاختيار بين دروس التوراة ودروس الاخلاق نوراً فاضحاً . وبعد اسبوع دعا الاستاذ كلانس تلاميذ الفرقة التي انا فيها واقام لنا في غرفته حفلة بسيطة دلت على ان الهيئات التبشيرية قد تستطيع احياناً ان تسدل دون الضمير الانساني ستاراً ، ولكنها لا تستطيع ان تميته . ان هذا الحجز القصير قد ربح قضية لم تكن تافهة على الاطلاق : لقد ألغي منذ ذلك اليوم درس التوراة نهائياً في الجامعة الامريكية واستعيض عنه بدرس للاخلاق والتربية المدنية علمناه اياه في العام التالي للمستر بيارد ضودج (الرئيس ضودج فيما بعد).

التبشير بين الاميين

يستطيع المبشرون من طريق المدارس ان يصلوا الى المتعلمين ، اما الاميون فلا سبيل الى الوصول اليهم من هذه الطريق . ولقد عد المبشرون ذلك صعوبة بالغة [1] ، ثم تفتقت قريحتهم عن ان يعمد المبشر الى الاتصال الشخصي بالاميين وان يبدأ الكلام معهم على مقام عيسى عليه السلام في القرآن الكريم ، فيتكلم مثلا عن المسيح بانه روح الله كما جاء في القرآن ، او يقول عنه « حضرة عيسى » كما يقال في الهند . وعلى المبشر ان يقول امام الاميين « القرآن

---

1) Christian Workers 86.

الكريم » وان يذكر الشفاعة والجنة وما الى ذلك من الالفاظ الاسلامية استمالة للسامعين الاميين . فاذا وثق من آذانهم صب فيها تبشيره [١] .

ولقد وقع لويس ماسينيون استاذ جامعة فرنسة في باريس والداعية المبشر في قسم الشؤون الشرقية في وزارة المستعمرات الفرنسية على هذه الطريقة فمضى يقول بها في خطبه ومقالاته واحاديثه . الا ان لغته في هذا الباب لغة مثقلة بالاستعارات والرمز لا تعذب احياناً في السمع . ومع ان هذه الخطب والمقالات والاحاديث تدل على اطلاع واسع ، فانها لا تدل على صفاء في التفكير او على صفاء في الضمير على الاصح . يتمنى ماسينيون في احدى مقالاته ان يعود الاعتقاد الاسلامي في رجوع عيسى بن مريم فيتفق مع الحادث الثاني للمسيح النصراني الذي يعمل للمهدي العربي على انتصاره [٢] . ويقصد ماسينيون بكلمة ثانية اوضح ان يعود المسلمون عن قولهم : عيسى بن مريم الى القول : عيسى ابن الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وفحوى مقال ماسينيون كله انه ما دام لدى المسلمين اخبار برجوع المسيح عيسى بن مريم ، فلماذا لا يكون هذا المسيح الراجع هو المسيح الذي يعتقد به النصارى اليوم ؟

ولقد ردد ماسينيون هذه الفكرة المأخوذة عن غيره والمدخولة في نفسها وجعلها عمدة عبقريته في الدعوة الى ان يحمل المسلمون على ترك دينهم حتى يسهل استعمارهم على اهل الغرب. اقول [٣] هذا وانا اتألم اذ اقوله عن رجل عرفته استاذاً لي استمع منه [٤] . ولكن الحق اكبر من ماسينيون ، ومن علمني حرفاً كنت له عبداً في الحق لا في الباطل .

---

1) Methods of Mission 36 f.

2) L'islam et l'occient (Les cahiers du Sud 1497) p. 164

٣) الكلام هنا للدكتور عمر فروخ

٤) في كلية فرنسة في باريس ١٩٣٦

التعليم الرسمي والتبشير

لما فرض الانتداب الافرنسي على سورية ولبنان عام ١٩١٩ فُرض معه منهاج للتعليم الرسمي . وكان هذا التعليم الرسمي في مناطق الانتداب يساعد المبشرين في اعمالهم . لقد كان المبشرون في اول امرهم (قبل الانتداب) ينشئون المدارس في جبل الدروز (على الاخص) بطلب من بعض زعماء الجبل . و لكنهم كانوا يغلقون تلك المدارس اذا قصرت مواردهم عن ادارتها (او اذا لم يستطيعوا التبشير فيها بنجاح على الاصح) . اما بعد الانتداب فقد اصبح التعليم ، وعلى الاخص في جبل الدروز ، موضع تعاون . وثيق بين المبشرين و بين السلطات العامة (١) .

وبما ان الحكومة الافرنسية كانت تساعد الارساليات الكاثوليكية في عملها ، فان مدارس تلك الارساليات كانت تحبب فرنسة الى التلاميذ النصارى (٢) .

ولم يكتف الافرنسيون طوال مدة انتدابهم ، بان يساعدوا اليسوعيين في اعمالهم المستقلة ، بل لقد اصبح لليسوعيين نفوذ كبير في توجيه المستشارين الافرنسيين المشرفين على التعليم في منطقة الانتداب ، وخصوصاً فيما يتعلق بالمناهج ومنح الشهادات الرسمية . وهذا ما جعل المناهج الرسمية كأنها خاضعة لليسوعيين مباشرة ، مما لا صلة له ببحثنا . ولكننا نود ان نقول كلمة واحدة في سياسة الافرنسيين في التعليم الرسمي في منطقة انتدابهم ، وسنستعير ما نقوله من « تقارير عن احوال المعارف في سورية خلال سنة ١٩٤٥ » وضعها ساطع الحصري (٣) .

لما درس العالم الاجتماعي ساطع الحصري مناهج التعليم في الجمهورية السورية لفت نظرَه اشياء كثارٌ تدعو الى الغرابة فقال (٤) :

---

1) *Les Jesuites en Syrie* 10 :65
2) *ibid.* 2 : 8

٣) دمشق ، مطبعة الجمهورية السورية ، ١٩٤٦
٤) ص ٢٣ — ٢٤ .

«هذا ويجدر بنا ان نتساءل ، في هذا المقام : كيف تأسست هذه النظم الغربية في سورية؟ وكيف دخلت في عداد تقاليد دوائرها الحكومية ؟

« انني كنت عثرت على جواب هذا السؤال من خلال التصريحات التي كان ادلى بها إلي احد المطلعين على هذه النظم ودخائلها . ان هذه النظم انما وضعت لغايات تحكمية ، خدمة لمصالح الدولة المنتدبة وحدها .

« فان رجال الانتداب عندما شعروا بضرورة اعطاء بعض السلطات الى الحكومات المحلية والموظفين الوطنيين ، ارادوا ان يوجـــدوا نظاماً ادارياً خاصاً يضمن لهم تحقيق الغايتين التاليتين :

آ — إلهاء الموظفين بمعاملات قرطاسية مطولة ومعقدة لا تترك لهم مجالا للالتفات الى الامور الجوهرية من جهة ، ثم تخفي عن الانظار زمام السلطة الحقيقية من جهة اخرى .

ب — تنظيم مجارى المعاملات الادارية على اساس « مركزية مفرطة » لا تترك مجالا لافلات معاملة من المعاملات عن نطاق اطلاع رجال الانتداب ، وشبكة سيطرتهم السافرة او المقنعة .

«هذا هو السر الحقيقي في نشأة البوروقراطية المضحكة والمركزية الغريبة التي تشاهد في جميع نظم الادارة السائدة في سورية . ان هــذه النظم التي تخالف ابسط قواعد الادارة السليمة واوضح مبادىء العقل والمنطق — انما وضعت لهذا السبب ولهذه الغاية .

«ان انسحاب الايدي الاجنبية التي كانت تحرك اهم عتلات هذه الماكينة ، وانتقال هذه المعاملات الى الايدي الوطنية لا يغير شيئاً من حقيقة الحال . ان هذه الماكينة — لا تزال كما كانت — ماكينة مرتبة لخدمة المصالح الاجنبية — بعيــدة عن خدمة مصالح البلاد الحقيقيـــة .

«اعتقد ان التخلص من هذه الماكينة — الباقية من عهد الانتداب — والاستعاضة عنها بماكينة ادارية جديدة مرتبة ترتيباً تخدم مصالح البلاد الحقيقية — وفقاً للقواعد المألوفة في البلاد المستقلة — يجب ان يعتبر من أوجب الواجبات التي تترتب على رجال سورية في عهدها الاستقلالي هذا » .

هذه كلمة عامة قالها ساطع الحصري في تنظيم الادارة لخدمة مصلحة الانتداب يوم كان الانتداب السافر موجوداً . ثم هو يعتقد ان زوال الانتداب لم يزل آثاره . واما فيما يتعلق بالثقافة خاصة فقد بسط ساطع الحصري رأيه في نحو ثلاثين صفحة من « تقاريره » . ولقد بين في اثناء ذلك ان الانتداب لم يسخر التعليم الرسمي لاغراض فرنسة المنتدبة ، بل سخره ايضاً لاغراض المعاهد التعليمية الفرنسية ثم تحيز لها تحيزاً مفرطاً جعلها في الحقيقة صاحبة «امتياز» ، او صاحبة « احتكار » على الاصح . قال[١] :

« ان النظم العديدة التي وضعت في سورية — في عهد الانتداب الفرنسي — انما
« كانت وضعت تنفيذاً لسياسة مرسومة بوضوح واتقان . ونستطيع ان نقول ان غاية هذه
« السياسة كانت تأمين سيطرة الثقافة الفرنسية والنظم الفرنسية على معارف البلاد سيطرة
« مطلقة من غير التفات الى ما تتطلبه اصول التربية السليمة والعلم الصحيح . انها كانت تعطي
« للغة الفرنسية وللشهادات الفرنسية امتيازات هامة ، وتتحيز للمعاهد التعليمية الفرنسية تحيزاً
« مفرطاً ، يجعلها احياناً — ليست صاحبة امتياز فحسب — بل صاحبة انحصار واحتكار
« ايضاً » .

بعدئذ يمضي ساطع الحصري مؤيداً حكمه هذا بوقائع من نظم المعارف السورية في ايام الانتداب (ص ٦٩ الى ٩٠) .

*

١) تقارير عن احوال المعارف في سورية، ٦٩ وما بعدها.

وهكذا ترى بجلاء ، كيف ان الانتداب الافرنسي قد سخر التعليم كله لاغراض المدارس التبشيرية : والمدارس الافرنسية منها خاصة .

التعليم النسائي خاصة

ان للتعليم النسائي اهمية خاصة في بناء المجتمع . هذه الاهمية لم تغب طبعاً عن اعين المبشرين فأولوها عناية عظيمة . ولن نتعرض هنا لموضوع المرأة في التبشير ، فذلك له فصل خاص ، ولكن سيقتصر هذا الفصل على تعليم البنات فقط .

وكذلك نرى من اضاعة الوقت ان نعيد في الكلام عن التعليم النسائي ما ذكرناه في باب تعليم الصبيان . من اجل ذلك سنقتصر في هذا الفصل ايضاً على ما هو خاص بتعليم البنات مما لم يرد في تعليم الصبيان .

لما جاء المبشرون الى العالم العربي كان العلم بين الرجال قليل الانتشار ، اما بين النساء فكان اقل انتشاراً . وادرك المبشرون ان هذه حال لا يمكن ان تدوم ، وان المرأة ذات أثر في التربية أكثر من الرجل فأولوها اهتماماً عظيماً ، حتى قال جسب : « ان مدرسة البنات في بيروت هي بؤبؤ عيني . لقد شعرت دائماً ان مستقبل سورية انما هو بتعليم بناتها ونسائها . لقد بدأت مدرستنا (للبنات) ، ولكن ليس لها بعد بناء خاص بها . وها هي قد اثارت اهتماماً شديداً في اوساط الجمعيات التبشيرية »[1] .

ان المبشرين لم يتأخروا في فتح مدارس البنات . ان اول مدرسة للبنات في الامبرطورية العثمانية فتحها المبشرون في بيروت عام ١٨٣٠[2] . ولقد فتح المبشرون مدارس كثيرة للبنات في مصر والسودان وسورية كلها وفي الهند والافغان[3] .

---

1) Jessup 280
2) Bliss (R) 327
3) Milligan 121 ff., 102 ; Richter 249 ; Gairdner 203-5.

وكان اهتمام المبشرين بالمدارس الداخلية للبنات اشد . قالوا : ان التبشير يكون اتم حبكاً في مدارس البنات الداخلية لما يكون فيها من الاحوال المؤاتية والفرص السانحة . ان المدرسة الداخلية تَفْضُلُ المدرسة الخارجية لأنها تجعل الصلة الشخصية بالطالبات اوثق ، ولانها تنتزعهن من نفوذ حياة بيتية غير مسيحية [١] . ويفرح المبشرون اذا اجتمع في مدارسهم الداخلية بنات من أسر معروفة ، لان نفوذ هؤلاء يكون حينئذ في بيتهن اعظم . وتتكلم المبشرة أنّا ميليغان فتقول : في صفوف كلية البنات في القاهرة بنات اباؤهن باشاوات و بكوات . وليس ثمت مكان آخر يمكن ان يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحي ، وليس ثمت طريق الى حصن الاسلام اقصر مسافة من هذه المدرسة [٢] .

من اجل ذلك طلب المبشرون الامريكيون منذ عام ١٨٧٠ مبلغ ثلاثين الف دولار لمدرسة دينية للبنات في بيروت وعللوا طلبهم هذا بقيمة المرأة في الحياة البيتية وان تلك المدرسة ستساعد على تنصير سورية في المستقبل [٣] .

التبشير بين الدارسين في الخارج

على الرغم من كل ما ادعى المبشرون من أنهم جعلوا طلاباً مسلمين يصبأون الى النصرانية ، فانهم يبالغون كثيراً في نجاحهم . نحن لا نشك في ان افراداً مسلمين قد انقلبوا بعد ايمانهم . ولكن هؤلاء افرادٌ قليلون جداً ، ثم انهم يعيشون في عزلة او شبه عزلة لا يستطيعون ان يتحدّوا المجتمع الذي يعيشون فيه .

ولقد ادرك المبشرون ذلك كله . و بما ان غاية المبشرين ليست دينية في الدرجة الاولى بل هي « إفسادية » : يحاولون بها ان يفككوا وحدة الأمة الاسلامية ليحكموا شعوبها ،

---

1) Milligan 102
2) Milligan 121
3) *cf.* Jessup 223

فانهم قنعوا ان يفسدوا هذه الشعوب،لأن افساد الشعوب يصل بالمبشرين الى غايتهم القصوى، وهي تمكين الدول الغربية من حكم البلاد الاسلامية . اما النصرانية فان الذين يمولون المبشرين لا يهتمون بها البتة . ان هؤلاء المبشرين الذين يُرسلون الى الشرق لاكتساب نفوساً جديدة الى صفوف النصرانية — في الظاهر — يصرخون في كل مكان:« اعيدوا أولاً الى الكنيسة طلابنا نحن ،وفي امريكة نفسها»[1] .

إذن يجب على المبشرين ان يفسدوا الطلاب المسلمين ، يقول المبشر تكلي[2] : « يجب ان نشجع انشاء المدارس ، وان نشجع على الأخص التعليم الغربي . ان كثيرين من المسلمين قد زُعزِعَ اعتقادهم حينما تعلموا اللغة الانكليزية . ان الكتب المدرسية الغربية تجعل الاعتقاد بكتاب شرقي مقدس امراً صعباً جداً » .

ويبدو بوضوح ان المبشرين لم يستطيعوا افساد المسلمين بالقدر الذي تمنّوه فقنعوا بان « يلوّنوا » الطلاب المسلمين بالنصرانية تلويناً يبعدهم بعض البعد عن عقيدتهم الاولى ثم يدنيهم بعض الدنو من النصرانية .

*

مما لا ريب فيه ان ذهاب الطلاب الشرقيين الى اوروبة وامريكة يكسبهم شيئاً من اساليب الحياة الغربية ومن الاتجاه الغربي في التفكير والعلم والسلوك وما الى ذلك . ولا ريب ايضاً في ان لذلك حسناته وسيئاته . ولكن المبشرين يريدون ان يُفيدوا من دراسة الطلاب الشرقيين في الخارج امراً اخر . انهم يريدون ان يجعلوا من هؤلاء الطلاب « نصارى » بالفعل او مما لئين للنصرانية[3] .

1) *Missionary Outlook* 275

2) Takle, *cf.* 217 ; *cf. Islam and Missions* ; *cf.* also *Missionary Outlook* 275-6.

3) *Missionary Outlook* 276 ff.

وتطيب هذه الفكرة للمستشرق المبشر وللمستشار الشرقي في وزارة المستعمرات الافرنسية، لويس ماسينيون ، فيدبج المقالات الطوال ويقول لقومه: ان الطلاب الشرقيين الذين يأتون الى فرنسة يجب ان يلونوا بالمدنية المسيحية [1] .

*

وهكذا يجب ان نخرج من هذا الفصل بهذه الفكرة : ان المبشرين والذين هم وراء المبشرين ، يبذلون كل جهد لاستخدام العلم والتعليم في سبيل التبشير . غير ان لتبشيرهم ظاهراً وباطناً . اما ظاهره فدعوة الى سلوك هم لايسلكونه ، وتلك دعوة على كل حال لم تتم : إن الذين يريدون ان يبشروا بالنصرانية بين غير النصارى ، هم انفسهم قليلو الاحتفال بالدين كله . وان من عاش مدة يسيرة في اوروبة والولايات المتحدة يدرك ذلك تمام الادراك . واما باطن التبشير فهو تفكيك اواصر القربى الروحية في الامة الاسلامية خاصة حتى يستطيع الغرب ان يحكم الشعوب الاسلامية ويستغل بلادها اقتصادياً وحربياً .

---

1) *Revue* « Dieu Vivant ». No. 4, pp. 7 ss.

الفصل الرابع

التعليم ميدان فسيح للتبشير

---

(٢) المؤسسات التبشيرية :
الكليات والجامعات خاصة

●

نشأ في الجمهورية اللبنانية احزاب ومنظمات كثيرة لا يحصيها العد . من هذه الاحزاب والمنظمات حزب (محلول اليوم) اسمه الحزب القومي السوري انشأه في عام ١٩٣٢ شاب اسمه انطون سعادة و بنى عقيدته على ان سورية بحدودها الطبيعية وحدة جغرافية . هذه الوحدة الجغرافية يجب ان تؤلف يوماً ما دولة قومية ، لأن السوريين امة . « وعلى هذا تؤلف المسألة اللبنانية جزءاً متمماً للقضية السورية ؛ وجميع المسائل السورية ، بما فيها المسألة اللبنانية يجب ان توحد في برنامج واحد وقضية واحدة »[١] .

وبعد اربعة اعوام، اي في عام ١٩٣٦، نشأ على الضفة الثانية لهذا الكفاح السياسي منظمة اسمها «الكتائب» اللبنانية (وهي ايضاً محلولة اليوم كمنظمة وموجودة كحزب). هذه المنظمة تقول «ان لبنان وحدة سياسية وتاريخية وجغرافية »[٢]، «وان اللبنانيين امة »[٣]. ولذلك قالت منظمة الكتائب ايضاً[٤]: «نابى التسليم» بنظرية سورية الجغرافية لانها لا تقر بحقيقة لبنان الطبيعية ؛ فضلاً عن ان هذه « النظرية » — وهي من صنع المستشرقين المسخرين لسياسات الاستعمار — لا ترتكز الى اساس تاريخي ...

---

١) راجع : بلاغ من زعيم السوريين القوميين الى الرأي العام ، ٥ يونيو (حزيران) ١٩٣٦، ص ١٠٤١١
٢) اهدافنا (الكتائب اللبنانية ، مصلحة الدعاية والنشر) ، ١٩٣٦ - ١٩٤٤ ، ص ٧ .
٣) مثله ٨ .
٤) مثله ١٢ .

ومع ان للحزب القومي السوري ولمنظمة الكتائب اللبنانية شروحاً لمبادئهما كثاراً ، فان الذي يهمنا هنا شيء آخر . ان الذي يهمنا هنا ان الاحتكاك والتراشق بينهما لم يفتر قط ، بل كان يقوى كلما تقدم بهما الزمن وزاد انصارهما . ومنذ اواخر عام ١٩٤٣ ، اي بعد ان خرجت الجمهورية اللبنانية من قيود الانتداب الفرنسي الى بحبوحة الاستقلال برزت العداوة بين الحزب القومي وبين الكتائب اللبنانية بروزاً ظاهراً تراءى في الانتخابات النيابية وفي الاعياد المحلية وفي حفلات الخطابة . وفي اواخر حزيران وقع الاحتكاك العلني الاول بين أفراد الحزب القومي وبين افراد منظمة الكتائب في بيروت، فقبضت الحكومه اللبنانيه على نفر من هؤلاء ونفر من هؤلاء . الا ان المقبوض عليهم من افراد الحزب القومي السوري كانوا أكثر عدداً . ثم اتسعت حركة الاعتقال بين القوميين بتهمة تدبير انقلاب سياسي بقوة السلاح .

ولم يكد ينتهي حزيران حتى اخذ افراد الحزب القومي السوري يهاجمون المخافر اللبنانية في ضواحي بيروت وفي اماكن متفرقة في جبل لبنان والبقاع . ثم انهم وسعوا حركتهم الثورية حتى اضطرت الحكومة اللبنانيه إلى ان تجرد عليهم قطعة من الجيش ، فاستطاعت في ايام قلائل ان تحبط حركتهم ، ثم قبضت على عدد غفير منهم. واخيراً تمكنت من القبض على زعيم الحزب انطون سعادة وحاكمته محاكمة عسكرية ثم اعدمته رميا بالرصاص (فجر الجمعه ٨ تموز ١٩٤٩) .

وفي صباح اليوم التالي صدرت جريدة العمل [1] ، لسان حال منظمة الكتائب اللبنانيه ، وفي صدر صفحتها الأولى مقال افتتاحي عنوانه : « كونوا متيقظين » . كان في هذا المقال الافتتاحي مقطع هو :

« ولكم اشرنا إلى ان في الكلية الاميركية في بيروت بؤرة ملأى بالدس على لبنان وعلى كيانه . ان اكثر الضالين من اللبنانيين ضلوا بين احضانها وكل المهوشين علينا من

---

١) اشارة الى ان كثيرين من الذين قاموا بالحركة التي ادت الى التصادم بين الحزب القومي وبين الحكومة كانوا سوريين او فلسطينيين يتعلمون أو يسكنون في لبنان (المقال نفسه) .

جيراننا تلقفوا بغض لبنـان واساليب السعي ضده تحت اكنافها. وهل كانت حركة انطون سعادة تمكنت لو لم يجـد لها ارضا خصبـة في تلاميذ الجامعـة الامـيركيـة ابنانيين وغير لبنانيـين ..

« فالى متى هذا الاغضاء ؟

« ان المحنـة التي اجتازتهـا البلاد ينبغي الا تتجدد ولو اقتضى الامر الى اعتقال كل « اللاجئين الاشرار [٢] والى اقفال الجامعه الأميركيـة » .

وفي اليوم التالي (١٠ تموز ١٩٤٩) صدرت جريدة الديار [١] بمقال افتتاحي عنوانه : « فضل الجامعـة الاميركيـة علينا » ردت به على جريدة العمل فقالت ، بعد ان قدمت لمقالها بالمقطع السابق الذي اقتطعناه نحن من مقال « العمل » :

« فاذا كان المقصودَ من الضُلاّل اربابُ العقيدة العربيـة السليمـة فان طلبـة الجامعـة « ليفتخرون بمعهد ايقظ فيهم روح العزة العربيـة ،وجمع ابناء البلاد العربيـة في حظيرة هذه « القومية . وانهم يشفقون على معتنقي قوميات شعوبيـة سواء كانت قوميات لبنانية او « فينيقية او سورية .

« واذا كانت العمل متأثرة من الحزب القومي السوري فعليها ان تدرس بدقة ، فيتبين « لها ان مقـاومة مبدأ (هذا) الحزب في دنيـــا العرب تقوم على اكتاف طلاب الجامعة « الاميركيـة.ان مليون حجـة تبنى على قوميـة محليـة لا تقنع سوريا او عراقيا بفساد نظاريـة

---

١) جريدة العمل بيروت ، السبت ٩ تموز ١٩٤٩ ، السنة العاشرة العدد ١٠١٥

٢) جريدة الديار ، بيروت ، الاحد في ١٠ تموز ١٩٤٩ ، السنة الثامنة ، العدد ١٩١١ .

٣) جريدة بيروت ، بيروت ، الاحد في ١٠ تموز ١٩٤٩ ، السنة ١٣ ، العدد ٣٣٩٢ ،الصفحة الاولى .

« القوميـة السوريـة ، بل الاقناع يتأتى من التطلع الى قوميـة واسعـة ناسخـة ، هي القوميـة « العربيـة . ان هذه المهمـة يتبرع بها طلاب الجامعـة الاميركيـة ، وهم رسل القوميـة العربية في « انحاء الشرق العربي وحملة اعلام التحرر والاستقلال ، يوم كان طلاب المعاهد الاخرى « يغوصون في عبادة الاستعمار الى ما فوق الرقاب » .

وفي اليوم نفسه (١٠ تموز ١٩٤٩) عقدت جريدة « بيروت » مقالا افتتاحياً [٣] في الرد على جريدة « العمل » عنوانه « الى الكتائب ! » قالت فيه تنعت مقال العمل الافتتاحي المذكـور :

« اقوال جـارفة لم يتعود ابناء الجامعة ان يطلقوها جـزافا ، فـاين الاسلوب « العلمي في التفكـير . . . واين البحث والنظر . . . واين اعينكم وعقولـكم يا رجـال « الـكتائب ؟

« ولكن المعرفه سهلة والعمل عسير . والنـاس لا يتفاوتون كثـيراً في معرفه القانون . « ولكنهم يتفاوتون جد التفاوت في تطبيق القانون . فما بال رجال الكتائب ، وجلهم من رجال « المعرفه ، يهرفون بمـا لا يعرفون ، واين برهانهم وهم يكتبون ما يكتبون ؟ انهم يكتبون ما « ما تمليه عليهم الظنون والاوهام ، وتسطره الاذهان غير العمليـة ، وما تفرضه السياسـة ذات « الاتجاه الواحد ... انحن ، شباب الجامعة ، الضالون وانتم المهتدون ، لأن رجلا كالزعيم « انطون سعادة تبنى عقيدة ما ؟ لقد استنكرنا هذه العقيدة قبل الكتائبيين ، وحار بناها قبلهم . « غير ان واحداً لا يستطيع ان ينكر ان هذه العقيدة ، مهما تكن اسسها واهيـة ، ألفت بين « المسيحي والمسلم واذا ابت الطائفيـة التي نشكو منها جميعاً ، والكتائب في الطليعـة ، الكتائب « التي لم توفق عمليا الى هذا ، او الى شيء من هذا ، فظلت على الرغم من جهاد استمر اثنتي « عشرة سنـة ذات لون واحد وصبغـة واحدة ، فهل تبني الاوطان على عنصر (واحد) من « المواطنين يحيا مع عناصر كثيرة ؟ »

لسنا هنا في مقام الموازنة بين عقيدة الحزب القومي وبين عقيدة الكتائب ، ولا نحن في مقام المقارنة بين شكل المقالات الثلاث التي استشهدنا بها . غير اننا نريد ان نوجه البحث الى صلب الموضوع : « الجامعة الاميركية » من حيث هي جامعة اجنبية ، ثم « الجامعة اليسوعية » من حيث هي جامعة اجنبية ايضاً . ان مقال جريدة بيروت ومقال جريدة الديار قد مسا هذا الموضوع مساً ، ولكنَّ مقالَ جريدة بيروت كان اكثر رفقاً — كما هو معروف من سياسة هذه الجريدة — اما مقال الديار فكان اوضح قليلا .

جريدة العمل تقول : إن الجامعة الاميركية يجب ان تزول لأن كثيرين من الذين ينتمون الى الحزب القومي السوري — عدو الكتائب — كانوا من الجامعة الاميركية .

فتقبل جريدة الديار هذا التحدي شكلا وتقول ان نظرة طلاب الجامعة الاميركية اوسع من ذلك . انهم « ارباب عقيدة عربية » . ثم انها تغمز الكتائب في ميلهم الى القومية الفينيقية ، وتغمز طلاب المعاهد الاجنبية الاخرى غمزة شديدة فتقول :

يوم كان طلاب المعاهد الاخرى يغوصون في عبادة الاستعمار الى ما فوق الرقاب

هذا هو مجال المقارنة : ما مقام المدارس الاجنبية في حياتنا القومية ؟

قد تتفاضل المعاهد الاجنبية في ذلك كثيراً او قليلا ، ولكن المعاهد الاجنبية معاهد اجنبية قبل كل شيء . ولقد اتفق للجامعة الاميركية ان اعتنقت فكرة قومية اوسع ، لأن افقها كان اوسع ، ولأن طلابها كانوا من بلاد اوسع انتشاراً في الارض ، ولأن الولايات المتحدة بلد مساحته ثمانية ملايين كيلومتر مربع ، بينما الجامعة اليسوعية وجدت لتحبب فرنسة الى اهل لبنان ، او الى قسم من اهل لبنان على الاصح . ومع ذلك فان هذا لا دخل له في موضوعنا الأساسي ، فلنلتفت الى ما كان لهذه المؤسسات الاجنبية كلها من مضار على حياتنا القومية والدينية والثقافية والاجتماعية ، والى ما كان لها من نفع .

اما نحن فنرى ان الجامعات اداة توجيه في البلاد . من اجل ذلك لا يجوز ان تكون اداة التوجيه هذه في أيدٍ اجنبية، مهما كانت هذه الايدي الاجنبية رفيقة نظيفة خيّرة ! ولكن الانسان قد يُدفع احياناً الى اختيار أهون الشرين عملياً ، وان كان لا تفاضلَ في الشر من الناحية النظرية على الاقل .

*

يعترف القائمون على المؤسسات الاجنبية بان هذه المؤسسات كانت في اول امرها تبشيرية ، ولكنها اليوم لا تُعنى بالتبشير . على ان هذا مخالف للواقع ، وانما هو قول يتسترون به لأن العصر الذي نعيش فيه اصبح يأبى هذا التعبير : « في سبيل التبشير » . وحتى نستطيع ان ندل على ان هذه المؤسسات لا تزال الى اليوم تبشيرية فاننا سنقص طرفاً من تاريخ عدد منها ، وسنتوسع في تاريخ الجامعة الاميركية ونتخذه نموذجاً للمؤسسات الاجنبية كلها .

رأى المبشرون ان التبشير يجب الا يقف عند انتهاء مرحلة التعليم الابتدائي او الثانوي ، بل يجب ان يستمر الى مرحلة التعليم العالي لأنه هو الذي يهيء قادة الشعوب . فاذا استمال المبشرون ، اذن ، بعض هؤلاء الذين ينتظر ان يكونوا قادة في بلادهم ، فقد كفلوا التأثير على الشعب كله . من اجل ذلك تبلورت سياسة الارساليات الاميركية حول اقامة كليات مجهزة تجهيزاً جيداً في استانبول و بيروت وازمير والقاهرة وفي غيرها من مراكز البلاد الشرقية [1] .

ومع الايام اصبح الاميركيون يعتقدون ان المؤسسات التبشيرية ، سواء أكانت معاهد علمية أم مؤسسات اخرى ، فانما هي «مصالح امريكية » تجب المحافظة عليها. وهم لا ينكرون ان هذه « المصالح » كلها قد نشأت من التبشير وعلى ايدي المبشرين [2] .

---

1) *cf.* Enc. of Missions 600.
) *cf* MW. Apr. 1939, pp. 121 ff.

١) مدرسة عبيه (لبنان) :

اهتمّ المبشرون الامريكيون ببلدة عُبَيه منذ نزولهم بسورية لأنهـا بعيدة عن مراقبة الحكومة المركزية في بـيروت ولأنها في وسط ظنوه يسهّل عليهم عملهم التبشيرى : بعدٌ عن العمران السياسي ووجودُ طوائفَ مختلفة في عبيه وما جاورها . من اجل ذلك نزل فيها دانيال بلسّ وزوجته ومكثا فيها في اول الامر عامين ونصف عام [1] .

وفي عام ١٨٤٣ انتقل الدكتور طومسون والدكتور كرنيليوس فانديك الى عبيه وأدار مدرسة دينية للصبيان ، ثم ظلا هنالك يعلمان ويعظان حتى نقلا الى بلدة صيداء عام ١٨٥١ [2] . على ان مدرسة عبيـه نفسها تأسست في الرابع من تشرين الثاني عام ١٨٤٦ على يد الدكتور كرنيليوس فان ديـك [3] . وفي عام ١٨٤٩ انتقلت ادارة هذه المدرسة الى عهدة المبشر سيمون كالهون . وهكـذا استطاعت مدرسة عبيه ان تساعد كثيراً على الغاية التي جاءت الارساليات من اجلها [4] . ولقد ظلت مدرسة عبيه تمثل دورها حتى تأسست الكلية السورية الانجيلية عام ١٨٦٥ في بيروت [5] . لقد كانت مدرسة عبيه سلفاً للكلية السورية الانجيلية [6] .

وكذلك انشأ المبشرون الاميركيـون مدرسة للبنات في عبيه ايضاً عـام ١٨٤٧ بادارة السيد دي فورست وزوجته [7] .

٢) كلية روبرت في استانبول .

هي كلية مسيحية غير متسترة لا في تعليمها ولا في الجو الذي تهيئه لطلابها [8] . ويقول

---

1) Bliss p. 111; cf. Jessup 59, 60, 76, 107.
2) Jessup 60
3) Jessup 96 ; Bliss 111.
4) Jessup 163.
5) Jessup 96.
6) Bliss 111.
7) Jessup 96.
8) Jessup 513.

دانيال بلس ان كلية بيروت وكلية استانبول ليستا اختين فقط بل توأمان [1]. ان هذه الكلية قد انشأها مبشر ولا تزال الى اليوم لا يتولى رئاستها الا مبشر [2].

٣) الجامعة الامريكية في بيروت :

ومع ان المبشرين الاميركيين قد انشأوا في عبيه مدرسة للصبيان واخرى للبنات ، فانهم لم يعفوا بيروت من نشاطهم ، فقد اسس سيمون كالهون منذ عام ١٨٣٥ مدرسة في بيروت ليساعد في حملة التبشير [3] التي شنهـا البروتستانت على سورية . ولكن لما تأسست الكلية السورية الانجيلية (الجامعة الأمركية اليوم) في بيروت (عام ١٨٦٥) لم يبق من حاجة الى مدرسة عبيه ولا الى مدرسة كالهون ، فان الكلية السورية الانجيلية اخذت مكانها .

وجاء في تقرير لدنيال بلس ، الرئيس الاول للكلية السورية الانجيلية في بيروت ، هذه الحقائق نثبتها موجزة فيما يلي [4] :

في عام ١٨٦١ و ١٨٦٢ كان دانيال بلس والدكتور وليم طومسون يبحثان في ضرورة ايجاد معهد عال لسورية ولسائر العالم العربي في الشرق الادنى ، فان ذلك افضل من ان يتعلم الطلاب علومهم العالية في الخارج : في اميركة وانكلترة مثلا . ذلك لأن ثمت افراداً تعلموا قليلا او كثيراً في انكلترة واميركة ثم انهم استقروا نهائياً حيث تلقوا علومهم ، أو أنهم رجعوا الى بلادهم في الشرق الادنى من غير أن يؤثروا في قومهم قط (أي لم يساعدوا المبشرين على التبشير بين اهل البلاد) بينما الذين تعلموا في مدرسة عبيه قد اتخذ منهم المبشرون مدرسين لمدارس التبشير وواعظين ومساعدين في اعمال مختلفة ...

---

1) Addison *91*, *cf.* 296, 298.
2) MW. Apr. 1933, p. 150.
3) Bliss 163, 212.
4) Bliss 162 ff ; *cf.* Penrose *8*.

واعتمدت الكلية السورية الانجيلية في تأسيسها علـى الرجال الذين يمولون التبشير ، وخصوصاً من الانكليز والاميركيين .

في ٢٣ كانون الثاني من عام ١٨٦٢ اقترح الدكتور طومسون ان يكون دانيال بلس رئيساً للكلية . وفي ٢٧ كانون الثاني اقترح طومسون وبلس معاً ان يكون الاعتماد الاول على الارسالية الاميركية (للتبشير) . وقـد وافقت الارسالية على ذلك وعلى ان يكون دانيال بلس رئيساً للكلية ايضاً [1] ... على الا يتعارض ذلك مع عمل الارسالية في سورية ..

وعلى هـذا الاساس سافر دانيال بلس في ١٤ آب ١٨٦٢ الى نيويورك فوصل اليها في ١٧ ايلول . وفي ايار من عام ١٨٦٣ خطب دانيال بلس في الكنيسه المشيخية [2] في نيويورك فاكد الحـاجة في الشرق الأدنى الى اطباء والى تعليم ديني تكون التوراة فيه كتاب تدريس دائم . اما عمل الكلية فيجب ان يكون وضع كتب مسيحية تساعد على الاتصال بملايين الناس في آسية وفي افريقية وعلى اسباغ النعمة (المسيحية) عليهم .

وبعد ان عاد دانيال بلس من الولايات المتحدة ببضعة اشهر انعقد اجتماع في بيت الدكتور فانديك في الثلاثين من كانون الاول ١٨٦٣ حضره فانديك نفسه وفورد وجسب وهرتر من الارسالية الاميركية . ثم حضر جونسون قنصل الولايات المتحدة في بيروت . وقـد قرر المجتمعون يومذاك ، بعد أن تذاكروا في إنشاء الكلية السورية الانجيلية ، اتجاه تلك الكلية فقالوا :

---

1) *cf.* Jessup 241.
2) Presbyterian
من فرق المذهب البروتستاني

« نحن نصرّ على الطابع التبشيري للكلية ، وعلى أن يكون كل أستاذ فيها مبشراً مسيحياً » . وكذلك تبنى المجتمعون شرعة الاتحاد التبشيري على أن تكون تلك الشرعة هي الخطة التي يجب أن يعمل كل أستاذ عليها . وفي عام ١٩٠٢ — أي في العام الذي اعتزل فيه دانيال بلس رئاسة الكلية — زال الاصرار على الفقرة الاخيرة فقط [١] .

وهكذا نرى أن الكلية السورية الانجيلية قد ولدت في رؤوس المبشرين ثم تعهدها المبشرون بعد ذلك ايضاً . ولقد اشترط المبشرون على القائمين بأمر الكلية ألاّ تفسد هذه الكليةُ عليهم عملَهم (أي ألاّ تعلّمَ ما يناقض مبدأهم التبشيري) وأن تكون مؤسسة بروتستانتية [٢] .

وهكذا نرى بكل وضوح ان الكلية السورية الانجيلية كانت نتاج التعليم البروتستانتي ووليد الارسالية الامريكية (للتبشير) [٣] . ومع ان الكلية كانت تعتمد في أول أمرها فقط على مساعدة الارسالية المادية ، فإنها كانت دائماً تتفق معها في الغاية : في السياسية التبشيرية وفي العمل معها في هذه السبيل [٤] .

وفي أول الامر مالت الكلية إلى كتمان جهودها التبشيرية — وإن ظلت تبذلها — تجنباً لسخط الحكومة العثمانية ، ولذلك قال دانيال بلس نفسه :

« إن السنوات الأولى التي شهدت تطور الكلية قضت ان تسير الكلية في مجراها بهدوء قدر الامكان ، فلا تلفت اليها نظر رجال الحكم قبل أن تثبت جذورها في الارض [٥] » .

---

1) Jessup 274
2) Bliss 163-9.
3) cf. Jessup 298 ; Bliss (R) 329.
4) Pliss (R) 392 ; Jessup 298. 817,
5) Bliss 217.

فلما ثبتت جذورها تركت التستر وأصبح لها اجتماعات دينية ظاهرة فأجبرت جميع الطلاب على حضور الصلوات في الكنيسة كل يوم ، وأجبرت الطلاب الداخليين خاصة على ان يحضروا صلاة يوم الاحد ايضاً .

ولما زار المبشر جون مُوط الكلية السورية الانجيلية عام ١٨٩٥ أسست الكلية فرعاً لجمعية الشبان المسيحيين[١] إلا أن الاسم كان محرجاً أمام غير النصارى ، فغيرته الكلية وجملته « الاخوية »[٢] . وهذه الاخوية لا تزال قائمة الى اليوم ولكنها كانت تدعى باسماء مختلفة في الادوار المختلفة . ومع ان الدخول في هذه الجمعية « جمعية الاخوية » كان اختياريا لجميع الطلاب ، فان اساتذة الكلية السورية الانجيلية[٣] كانوا كثيراً ما ينحدرون الى مستوى يعطفون فيه على التلاميذ المتأخرين في التحصيل اذا كانوا اعضاء في هذه الاخوية . وتخرج احدنا عام ١٩٢٨ وكان كل طالب لا يزال يشعر هذا الشعور . ولقد اصطدمت[٤] أنا بعقبات كثيرة ذللتها بجهد شخصي ، ولو انني كنت أحضر الصلوات في الكنيسة أو أنني كنت عضواً في الاخوية لوفرت على نفسي كثيراً من الازعاج :

لقد كان حضور اجتماع الصباح إجبارياً إما في الكنيسة وإما في منتدى وست هول. وكان بديهيا ان اختار الحضور في وست هول حيث تكون الاجتماعات بعيدة عن الدين قليلا أو كثيراً . وفي يوم من الايام دعاني عميد الدائرة العلمية الاستاذ ادورد نيقولي وسألني لماذا كنت غائبا عن الكنيسة . فقلت له أنا لا أحضر الكنيسة ولكن أحضر اجتماعات وست هول ، فصرفني. ولكن في اليوم التالي دعاني ثم ذكر أنه يستغرب كثرة غيابي عن الكنيسة ، فأعدت عليه القول بأنني منذ أول العام قد اخترت الحضور في وست هول . واخيراً أدرك الاستاذ نيقولي ان الايحاء إلي بحضور الكنيسة غير ممكن ، فتركني وشأني .

---

١) وهي اليوم « الجمعية المسيحية للشبان» او جمعية الشبان المسيحية

2) Bliss 217 - 8 Brotherhood

٣) الجامعة الاميركية في بيروت

٤) الكلام هنا للدكتور عمر فروخ

ولا يزال الاصرار على الطابع الديني التبشيري للكلية السورية الانجيلية قائما الى اليوم . نشر الكاتب لدفيك برنهارد في الكتاب السنوي الروسي لعام ١٩٠٥ مقالا عنوانه «اميركة في الشرق» صور فيه الكلية السورية الانجيلية على انها محاولة مدروسة لتمهيد الطريق امام المصالح الاميركية والتجارية منها خاصة . فرد عليه رشتر [١] بقوله : ان مثل هذا الرأي في هذه المؤسسة يصدق على ناحية واحدة منها ويضلل عن هدفها الحقيقي . ان الكلية مؤسسة تبشيرية . وليس هذا فقط بل هي كما يقول جسب [٢] اوضح سياسة دينية وتبشيرية من سائر المدارس الاميركية في الشرق ، ككلية روبرت في استانبول مثلا . اما رشتر فقال عنها [٣] : انها ارقى مدرسة مسيحية في الامبرطورية العثمانية . ان عمل الكلية التبشيري يتناول المسلمين في الدرجة الاولى ، وهذا ما يجعلها بارزة في ذلك بين جميع المدارس الامريكية في في الامبرطورية العثمانية وايران [٤] ، اذ هي التي تهيء المدرسين المبشرين للمدارس الامريكية المنثورة في الشرق الادنى كله [٥] .

فالجامعة الامريكية في بيروت كانت عند انشائها مؤسسة تبشيرية ، ولم تؤسس للتعليم العلماني ، ذلك لأنها كانت نتاج حركة التبشير الامريكية [٦] . هذا ما اجمع عليه الذين كتبوا عن هذه الجامعة [٧] .

على ان الغريب ان الجامعة الاميركية لا تزال الى الآن تبشيرية يقول ستيفن بنروز [٨] .... : مع ذلك فان (الجامعة الاميركية) كانت ولا تزال مؤسسة تبشيرية . ثم انه يصر على انها

---

1) Richter 220
2) Jessup 737
3) Richter 74
4) Gairdner 27-8
5) Richter ?21
6) Penrose 307, 309, *cf.* 5. 13, 139 f.
7) *cf.* Bliss ?14 f. Gairdner 277-8 ; Jessup, 274, 298, 737, 818 ; Richter 74; 220 ; Bliss (R) 329 ; Addison 91
8) Penrose 46

تبشيرية ، بل ان التبشير كان المبرر الوحيد لتأسيسها [١] . وذلك بعد ان صرح فقال : ان الغاية القصوى للكلية (السورية الانجيلية) ان تحتضن التبشير المسيحي وتبذر بذور الحقيقة الانجيلية . وعلى هذا الاساس ذهب دانيال بلس الى امريكا ليثير رغبة الجمهور المسيحي لمحاولة تأسيس معهدادبي يعمل على نشر الارساليات البروتستانتية والمدنيةالمسيحية في سورية والاقطار المجاورة [٢] .

ولما اعتزل دانيال بلس ادارة الكلية عام ١٩٠٢ ، وقد بلغ يومئذاك ثمانين عاماً [٣] ، خلفه ابنه هوارد بلس .

هوارد بلس

ولد هوارد بلس عام ١٨٦٠ في سوق الغرب بجبل لبنان [٤] . ولكنه نشأ في الولايات المتحدة ، وكان قسيسا راعيا [٥] . ظل هوارد بلس بعد ان تولى الكلية السورية الانجيلية قسيساً مبشراً ومعلماً مبشراً [٦] . ولقد حضر ، وهو رئيس للكلية ، مؤتمراً لأتحاد الطلاب المسيحيين في العالم عقد في كلية روبرت في استانبول عام ١٩١١ ، وحضر معه من الاشخاص [٧] الآنسة مريم بارودي ، الدكتور فيليب حتي واخوه حبيب حتي ، الآنسة ماري كسّاب (موسسة المدرسة الأهلية للبنات في بيروت) ، الإستاذ بولص الخولي ، طانيوس سعد [٨] وادورد نيقولي عميد الدائرة العلمية (ت ١٩٣٧) .

1) *ibid*, 180, 181
2) *ibid*. 81 f.
3) *cf*. Bliss II, 214-5
4) Bliss 130
5) Bliss 214-5 (يسميه نصارى لبنان : خوري رعية)
6) Bliss 228
7) World Student Christian Federation 5, *cf*. 236 f.
٨) كذا في الاصل : ولعله (القس) طانيوس سعد ، مؤسس مدرسة الشويفات الوطنية (ت ١٩٠٣).

اما غاية هذا المؤتمر فهي مثبتة على الصفحة الاولى من المتن [1] : انها توحيد حركات الطلاب المسيحيين ومنظماتهم في العالم ... وجمع المعلومات المتعلقة بالاحوال الدينية للطلاب في كل العالم ... وقيادة الطلاب حتى يصبحوا تُبّاعاً ليسوع المسيح على انه مخلصهم الوحيد وربهم ... ثم ضم جهود الطلاب التعاون على مد مملكة المسيح في جميع العالم.. وعلى الاخص في البلدان غير المسيحية . ولقد تكلم في هذا المؤتمر هوارد بلس نفسه (ص ١٣١—١٣٨) والدكتور فيليب حتي (ص ٢٢٩ — ٢٣٠).

بيارد ضودج

ولما توفي هوارد بلس عام ١٩٢٠ بقيت الجامعة الاميركية في بيروت بلا رئيس اصيل حتى عام ١٩٢٣ حين عُيّن لها بيارد ضودج .

كان بيارد ضودج في الاصل تلميذ لاهوت ثم نال شهادة دكتور في اللاهوت [2] ، ولقد بقي سبع سنوات رئيسا مساعداً لجمعية الشبان المسيحيين (٩١٣—١٩٢٠) ، ومع ذلك فانه لم يتسامح في ان يصبح احدنا الدكتور مصطفى الخالدي رئيسا لجمعية الشبان المسلمين في بيروت وان يظل في الوقت نفسه استاذاً في الجامعة ولقد صارحه بان جهوده في سبيل فلسطين وفي سبيل الشبان المسلمين لا يمكن ان ترضى عنها الجامعة . ولم يكن من المعقول ان يتخلى الدكتور مصطفى الخالدي عن خدمة اجتماعية في رئاسة الشبان المسلمين والشابات المسلمات تشبه الخدمة الاجتماعية [3] التي يقوم بها بيارد ضودج نفسه في رئاسة الشبان المسيحيين [4] او كذلك لم يكن من المعقول ان يتخلى الدكتور مصطفى الخالدي عن الاهتمام بقضية فلسطين وهي

---

1) World Student Christian Federation 5 *cf.* 6 f.
2) *cf.* Penrose 204 ff.
٣) تخلى الدكتور مصطفى الخالدي عن الرئاسة في جمعيتي الشبان المسلمين والشابات المسلمات فيما بعد للانصراف الى رئاسة مدرسة التمريض الوطنية التي أنشأها هو ، والسهر على المستشفى الذي اسسه .
4) Penrose 204.

القضية التي كان يهتم لها الرئيس ضودج نفسه . وهكذا فضل الدكتور مصطفى الخالدي ان يعتزل التدريس في الجامعة .

ولا ريب في ان شعور الطلاب بالتبشير المكشوف كان **قليلا** جداً في رئاسة الدكتور بيارد ضودج ، وذلك لسببين اثنين : اولهما وأهمهما بلا ريب أن شخصية الرئيس بيارد ضودج لم تكن مهاجمة قهارة ، كالذي يروى عن دانيال بلس مثلا . وكان في الرئيس ضودج تسامح كبير ، إلا أننا نعلم ان في الجامعة وللجامعة اناساً كان الرئيس ضودج مضطراً الى تنفيذ رغباتهم: ثم إن الجامعة لم تتخل بعد عن سياسة التبشير قط . ويكفينا دليل واحد على ذلك :ان الجامعة قد استغنت عن العدد الاكبر من المدرسين المسلمين في رئاسة الرئيس ضودج . وان النشاط اليهودي كان في ايامه كبيراً . واذا نحن رجعنا الى المساعدات المالية التي تعطيها الجامعة رأينا قسماً منها بلا ريب خاصاً بافراد مسلمين او بمؤسسات تساعد افراداً مسلمين ، ولكننا اذا نظرنا الى « المساعدات المنظمة » رأيناها شيئاً آخر .

وثاني السببين أن اليقظة العربية تطورت تطوراً كبيراً في مدة رئاسة الدكتور ضودج (١٩٢٣ — ١٩٤٧) ، فمن الثورة السورية الى قضايا فلسطين الى استقلال البلاد العربية الى ولادة جامعة الدول العربية » ، كل ذلك غمر العالم العربي حتى اصبحت كل سياسة تبشيرية مكشوفة بجانبه تدعو الى كثير من الاستغراب .

على ان هذا كله لا ينسينا الاعمال العظيمة التي عملتها جامعة بيروت الاميركية ولا الرجال الذين نثرتهم في العالم نجوماً للسارين وشهباً على الظالمين المستبدين وعلماء وادباء ، ولكننا كنا نحب ان لو كانت هذه الاعمال خالصة من غاية لم يبق لها اليوم قيمة في عالم العقل والقومية .

ستيفن بنروز

والدكتور بيارد ضودج لم يكن قليل الذكاء ، ولكن القصة التي يرويها عنه ستيفن

بنروز [1] ، الرئيس الحالي للجامعة الاميركية في بيروت ، بعيدة عن المعقول . قال بنروز :

كان الدكتور ضودج كثيراً ما يروي انه رأى مرة في القطار الكهربائي في بيروت رجلاً مسلماً مسناً يحاول ان يصلي . كان هذا الرجل المسن لا يكاد يوجه نفسه في وقوفه نحو مكة (القبلة) حتى يكون القطار قد دار حول منعطف في الشارع فيضطر المسكين الى ان يصحح اتجاهه . وقبل ان يمضي وقت طويل كان هذا المسكين قد اضطرب تماماً واخذ ينظر الى الراكبين بذلة وانكسار كأنه يطلب منهم معونة لا يستطيعون ان يسدوها اليه . ان هذا الرجل (والكلام للدكتور ضودج ، كما يزعم بنروز) كان يمثل الصعوبة التي تواجهها التقاليد الاسلامية في عصر يتبدل بسرعة لا تصدّق » .

واستغربت انا [2] هذه القصة يرويها الدكتور ضودج لانني اعرفه معرفة تامة ، فلقد كان يعلمنا « دروس الاخلاق » في الدائرة الاستعدادية ، قبل ان يصبح رئيساً للجامعة . من اجل ذلك كتبت الى بنروز اسأله اذا كان قد نقل هذه الحكاية من كتاب مطبوع او انه سمعها سمعاً فقط . فتلقيت من بنروز الرسالة التالية (انقلها اولاً الى اللغة العربية ثم اثبتها بنصها الانكليزي مصوراً بالزنكوغراف) .

الجامعة الاميركية في بيروت والكلية الثانوية

دائرة الرئيس

١٣ ايار ١٩٥٢

الدكتور عمر فروخ

ص.ب. ٩٤١

بيروت ، لبنان .

عزيزي الدكتور فروخ :

تلقيت رسالتك المؤرخة في ١٢ ايار تسألني عن قول استشهدت به في كتابي

1) Penrose 301.

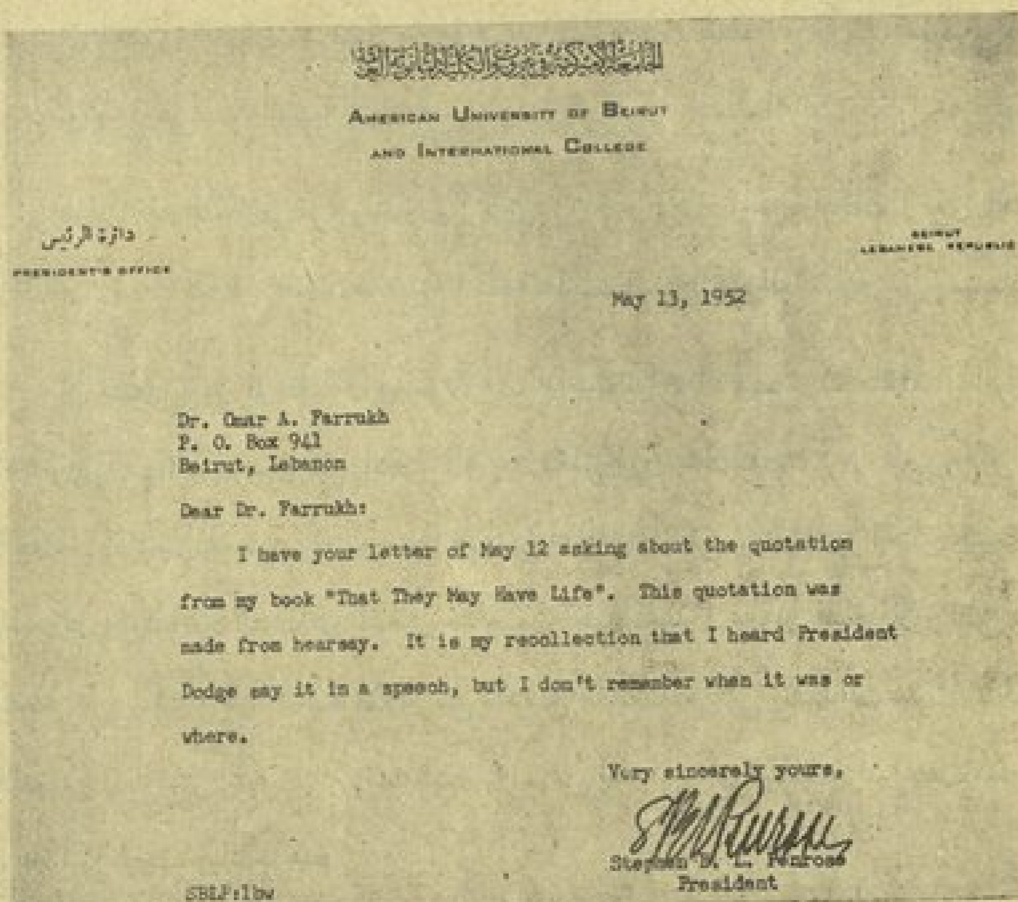
٢) الكلام هنا للدكتور عمر فروخ .

« كيما تكون لهم الحياة » . ان هذا القول قد اخـذته من طريق السماع . والذي اذكره انني سمعت الرئيس ضودج يقوله في خطاب له ، ولـكنني لا اتذكر متى كان ذلك ولا اين كان .

المخلص لك كثيراً

الأمضاء : ستيفن ب ل. بنروز

الرئيس



AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
AND INTERNATIONAL COLLEGE

دائرة الرئيس
PRESIDENT'S OFFICE

BEIRUT
LEBANESE REPUBLIC

May 13, 1952

Dr. Omar A. Farrukh
P. O. Box 941
Beirut, Lebanon

Dear Dr. Farrukh:

I have your letter of May 12 asking about the quotation from my book "That They May Have Life". This quotation was made from hearsay. It is my recollection that I heard President Dodge say it in a speech, but I don't remember when it was or where.

Very sincerely yours,

Stephen B. L. Penrose
President

SBLP:lbw

ان مثل هذه القصـة ، قصـة المسلم العجوز الذي يصلي في حافلـة القطار الكهربائي ، لا يمكن ان تجـــد الا راوياً اميركياً . والذين يعرفون بيروت والقطار الكهربائي في بيروت

ويرون المسلمين في الشوارع يستطيعون ان يدركوا الى اي حد بلغ الخيال بواضع هذه القصة .

اما نحن فنستغرب ان يشترك رئيسان لأعظم جامعة في الشرق الادنى في رواية مثل هذه القصة التي لا يمكن ان تكون الا سخيفة . نقول هذا بصرف النظر عن انها بعيدة عن الحقيقة ، وخصوصاً اذا قبلنا ان تكون منسوبة الى الدكتور بيارد ضودج الذي قضى في الشرق خمسة وثلاثين عاماً ، ودرس اللغة العربية والدين الاسلامي على العلاّمة الشيخ احمد عمر المحمصاني ، تلميذ المصلح الكبير الشيخ محمد عبده (رحمهما الله) . على اننا نحب ان نقول رأينا في هذه الحادثة .

ان اغلب الظن ان الدكتور بنروز قد اختلق هذه القصة رأساً من أساسها ، بعد ان دلّه مبشر جاهل على المسألة الفقهية المتعلقة بها ، أو أنه هو قد قرأ هذه المسألة الفقهية ولكن لم يفهمها :

« في الفقه الاسلامي ، ان المسلم اذا كان سائراً (على جمل او في واسطة اخرى للنقل) وأراد الصلاة ثم اتجه الى القبلة ، فانه يلزم اتجاهه هذا مهما تبدل اتجاه الواسطة التي يستعملها » .

ان الذين يأتون الى الشرق ليعلمونا يجب ان يكونوا هم انفسهم اكثر علماً منا ، او يجب الا يتعرضوا لما لا يعرفون على الاقل ! وبعد ، فاي وزن لحادثة يذكرها المؤرخ او العالم الاجتماعي اذا كان لا يعرف اين وجدها ولا متى سمعها . ولكن المستر بنروز اختلق قصة ثم جعل يزعم ، بالاستناد اليها ، ان المسلمين متأخرون جهلة أغبياء ! على ان المستر بنروز ليس ملوماً لأنه صرّح في كتابه بان الغاية الاولى من تأسيس الجامعة لم يكن تعليم العلم وبث الاخلاق الحميدة ، بل نشر المذهب البروتستانتي . ولكن لعله نسي ان الجامعة قد اعلنت منذ مدة طويلة انها غيرت سياستها هذه !

وهنا نحب نحن ان نشير الى ان القائمين على امر الجامعة الاميركية في بيروت لم يكتفوا ، من اول امرهم ، بان يكون رئيس هذه المؤسسة مبشراً ، بل اصروا على ان يكون جميع المدرسين فيها مبشرين . ان الدكتور جورج بوست جاء الى الشرق الادنى مبشراً كزملائه

ثم ذهب الى طرابلس عام ١٨٦٣ كطبيب مبشر [1]. وكذلك كان كورنيليوس فانديك ، وابنه هنري فانديك ويوحنا ورتبات كلهم اطباء مبشرين [2].

وكان على هؤلاء المدرسين ان يوقعوا يميناً يقسمون فيها بان يوجهوا جميع اعمالهم نحو هدف واحد ، هو التبشير ، ولم يقبل منهم ان يكونوا نصارى بروتستانتيين فقط ، بل وجب ان يكونوا مبشرين ايضاً [3]. ومع الايام ألغت الجامعة توقيع هذا اليمين ، ولكنها لم تلغ مؤداها .

وكانت الجامعة تحرص على ان يظهر جميع اساتذتها بمظهر المبشرين ثم تحملهم على ان يحضروا للمؤتمرات التبشيرية . ولعل المرحوم الاستاذ بولس الخولي لم يعن بالتبشير — مما نعرفه نحن — ولكنه حمل بلا ريب هو والدكتور فيليب حتي على ان يحضرا مؤتمر استانبول مع الدكتور هوارد بلس عام ١٩١١ ، تكثيراً للاسماء الوطنية .

ومع ان الجامعة الاميركية لم تعلن سياستها التبشيرية في مطلع حياتها خوفاً من ان يغلقها العثمانيون ، فانها لم تأل جهداً في التبشير في كل درس . حتى في الدروس التي لا صلة خاصة بينها وبين الدين ، كانت المبادىء المسيحية موضع تأكيد وتزيين كلما سنحت لذلك فرصة . فمن امثال ذلك مثلا ان درس اللغة الانكليزية كان يستغل في نقل نصوص التوراة الانكليزية الى العربية . وفي هذه الاثناء كان الاستاذ ينتقل الى مناقشة المشاكل الدينية ، من الزاوية التبشيرية طبعاً [4].

---

1) Penrose 39

2) *ibid.* 8, 36, 37 etc.

3) *ibid.* 83 f.

4) Penrose 46.

وهذا امر غير مستغرب في المدارس التبشيرية . لقد قرر مؤتمر القدس المنعقد عام ١٩٣٥ ان يستغل كل درس في سبيل تأويل مسيحي لفروع العلوم كالتاريخ وعلم النبات الخ [١] .

ومع ان الجامعة الاميركية ، كما يقول بنروز ، لم تفكر بان تفرض المذهب البروتستانتي على طلابها فرضاً ، فأنها كانت تستغل كل فرصة سانحة ليعرف اولئك الطلاب الحقيقة كما تريدها النصرانية البروتستانتية . وكان الدخول الى الكنيسة فرضاً على كل تلميذ [١] :

واتفق في عام ١٩٠٩ ان احتج الطلبة المسلمون على اجبارهم على الدخول الى الكنيسة فاجتمعت عمدة الجامعة الموقرة واصدرت منشوراً طويلا جداً ، جاء في مادته الرابعة ما يلي [٢] :

ان هذه كلية مسيحية ، اسست باموال شعب مسيحي : هم اشتروا الارض وهم اقاموا الابنية ، وهم انشأوا المستشفى وجهزوه ، ولا يمكن للمؤسسة ان تستمر اذا لم يسندها هؤلاء . وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليماً يكون الانجيل من مواده فتعرض منافع الدين المسيحي على كل تلميذ .. وهكذا نجد انفسنا ملزمين بان نعرض الحقيقة المسيحية على كل تلميذ ... وان كل طالب يدخل الى مؤسستنا يجب ان يعرف مسبقاً ماذا يطلب منه .

وكان هذا التهديد المجرد من الذوق والروح العلمية كافياً لأن يعلن الطلاب الاضراب . الا ان العمدة تصلبت في ظاهر امرها فترك ثمانية طلاب العلم في المؤسسة

---

1 Danby 31 etc.

2) Penrose 135 f.

المتعصبة [١] . ولم تتأخر الكلية عن ان تعلن بلسان مجلس الامناء ان الكلية لم تؤسس للتعليم العلماني ولا لبثّ الاخلاق الحميدة (كذا) ، ولكن من اولى غاياتها ان تعلم الحقائق الكبرى التي في التوراة ، وان تكون مركزاً للنور المسيحي وللتأثير المسيحي ، وان تخرج بذلك على الناس وتوصيهم به [٢] .

الا ان الروح الحرة لم تلبث ان انتصرت فثابت الجامعة الاميركية الى نفسها ورأت ، ولو بعد حين ، وجه الصواب فتنازلت حينئذ عن رأيها الذي لم يكن من العلم في شيء ، ولا من الحرية في شيء ، ولا من الانسانية في شيء .

لقد شاهدت الجامعة الأميركية يقظة العرب على هذا التراب الطاهر في الشرق الأدنى ، وشاهدت جموع الشرقيين والعرب يتجهون افواجاً نحو هيكل العلم النبيل ، في افق يسع المشرق والمغرب ويسع الاديان كلها والالوان جميعها. فأي فضل للجامعة بعد ذلك اذا اعترضت هذا الموكب الفخم المهيب لتسوق جزءاً منه نحو الكنيسة البروتستانتية ! اما حجتها فكانت أوهى من عملها . انها احتجت بان نفراً من المتمولين الاميركيين لا يعينون الجامعة باموالهم التي جمعوها الا اذا علموا انها تزيد عدد البروتستانت في الشرق . وهكذا حكمت الجامعة الاميركية على نفسها بأنها مسوقة في تيار قوم آخرين ، وأنها مستأجَرَة لتنفيذ رغبات لا تشرف صاحبها فضلا عن منفّذها .

*

على ان استغرابنا قد زاد عام ١٩٤٨ ولم ينقص . ان الجامعة الامريكية تعترف بأنها بدأت تبشيرية ثم تخلت عن التبشير في عصر القومية الواسعة والتسامح العظيم والتعاون الشامل .

---

1) Penrose 137 f. ; *cf.* Bliss (R) 331 ; Jessup 788.
2) Penrose 139.

الا ان الدكتور ستيفن بنروز — رئيس الجامعة الامريكية الحالي — قد أتى ، مما هو ظاهر واضح في كتابه ، بعقلية دانيال بلس لا بعقلية بيارد ضودج على الاقل : لقد جاء مبشراً لا معلماً. ولو انه جاء معلماً لا مبشراً لأرخ الجامعة الاميركية في بيروت تاريخاً مختلفاً — من حيث الاتجاه والتوجيه على الاقل ، لا من حيث المادة .

ولكننا نعود فنقول : اننا نحن نعرف الجامعة الامركية ونعرف الرجال العظام الذين نثرتهم في العالم العربي خاصة ، فلا نحكم عليها بما فعل دانيال بلس ولا بما يقول ستيفن بنروز . ولكننا كنا نود ان لو كان الذين تولوا امرا الجامعة اصدق في التعبير عن حقيقة انفسهم وابصر بمقام الجامعة الحقيقي .

٤ — اثر المدارس الامريكية

ان الكلمة المفصلة التي سبقت في الكلام على الجامعة الاميركية (والكلية السورية لانجيلية سابقاً) تغنينا عن التفصيل في الكلام على الكليات الاميركية الاخرى .

نشأت كلية جيرارد (كلية الاميركان في صيداء) [1] من حاجة تبشيرية خاصة . ان المبشرين الاميركيين قد ادركوا بعد خمس عشرة سنة من التجارب ان المتخرجين من الكلية السورية الانجيلية في بيروت لا يصلحون لاعمال التبشير في القرى ، ذلك لأنهم يأتون عادة من بيئة بعيدة عن القرى . من اجل ذلك قرروا انشاء مدرسة عالية في مكان قريب من البيئة القروية لاعداد معلمين ومساعدين على التبشير في القرى نفسها [2] .

ومثل هذا يقال في الكليات الاميركية المختلفة في خربوط وعينتاب ومرعش وطرسوس واسيوط [3] ، وطرابلس والقاهرة وسواها .

---

1) *cf.* Jessup 313 ; Richter 222.
2) *cf.* Bliss 170.
3) Richter 74.

كلية غوردون في الخرطوم

ومن اطرف ما يمكن ان يستشهد به هنا موقف المبشر هري جسب ورأيه في كلية غوردن في الخرطوم بالسودان المصري .

اسس الانكليز عام ١٩٠٣ كلية في الخرطوم سموها « كلية غوردن » باسم ضابط انكليزي هو تشارلس غوردون ، ويعرف ايضاً باسم غوردون باشا . وكان غوردون قد قتل في السودان لما استولى المهدي على الخرطوم عام ١٨٨٥ .

عرض المبشر جسب لسياسة الحكومة الانكليزية في هذه المؤسسة فسماها « فضيحة كلية غوردون » وقال : ان الحكومة الانكليزية لما قررت فتح هذه الكلية جمعت لها مائة الف جنيه من انكلترة ، ولكنها اغلقتها في وجه التبشير المسيحي . ثم يستغرب جسب كيف ان هذه الكلية تعلم القرآن ولا تعلم التوراة والانجيل ، ثم تفتح ابوابها يوم الاحد وتعطل دروسها يوم الجمعة . بعدئذ يتابع جسب حملته الشعواء فيقول : وما دام غوردون مسيحياً فيجب ان تكون الكلية التي سميت باسمه تبشيرية مسيحية لا ان تكون حجابا بين السودانيين والتوراة[1] .

ان جسب يريد ان تكون المدرسة المسلمة بتلاميذها والمسلمة بالادارة في بلادها (لأن الحكم في السودان لا يزال الى اليوم انكليزيا مصريا)[2] مؤسسة تبشير مسيحية ، لان الرجل الذي تحمل اسمه كان مسيحيا .

٥ - المؤسسات الافرنسية

تختلف المؤسسات الافرنسية عن المؤسسات الاميركية في انها تحمل اسمها على ثيابها ،

---

1) Jessup 664 - 5.

٢) ان التقارب الاخير (١٩٥٢) بين مصر والسودان يدل دلالة واضحة على ان المبشرين كانوا ، حتى في عام ١٩٠٣ ، يخلطون فهم الصلات بين مصر والسودان ، وبين السودان والتبشير ايضاً .

سواء اكانت بروتستانتية ام كاثوليكية . وقد يجوز لنا ان نستثني المؤسسات العلمانية التي تهتم ببسط السياسة والثقافة الفرنسيتين اكثر من بسط المذهب الكاثوليكي او البروتستانتي .

واذا نحن اقتصرنا في الكلام على مؤسسة واحدة من هذه ، على المؤسسة اليسوعية ، فاننا لا نعدو الصواب لأن هذه المؤسسات كلها توجه من مكان واحد ، من رومية ، ومن فرنسة احيانا : توجه توجيها دينيا من رومية وتوجيها دينيا سياسيا من فرنسة .

كانت سورية على الاخص ميدانا للسباق بين البروتستانت الاميركين و بين اليسوعيين ذوي اللون الافرنسي . ويظهر ان اليسوعيين بدأوا يتسربون الى سورية منذ القرن الثامن عشر حينما انشأوا مدرسة عينطورا في مقاطعة كسروان في جبل لبنان في عام ١٧٣٤ ثم تخلوا عنها للرهبان اللعازريين . وبعد مائة عام ، بعد حملة ابراهيم باشا على سورية ، عاد اليسوعيون الى سورية بنشاط جديد ، واخذوا ينافسون البروتستانت منافسة شديدة [١] . ولقد اهتم اليسوعيون في اول امرهم بالتعليم الديني لاعتقادهم انهم اذا سيطروا على رجال الدين المسيحيين ، باعدادهم في مدارسهم هم ، استطاعوا ان يسيطروا على القرى النصرانية كلها [٢] . وكان الاستعمار في التعليم اليسوعي ظاهراً غير مستتر ، كما كان عند منافسيهم ، ولذلك بنوا برنامج مدارسهم منذ ١٨٦٤ على البرنامج الفرنسي رأسا مع اضافة دروس اللغة العربية [٣] . ولقد بسط هؤلاء غايتهم من ذلك فقالوا : ان اليسوعيين المبشرين يريدون ان يقدموا الى تلاميذهم النصارى العلم مع التعليم ، وفي الوقت نفسه يريدون ان يجعلوهم يعرفون فرنسة و يحبونها [٤] .

ولقد كان اليسوعيون قد اختاروا بلدة غزير للتعليم ، لما كان منافسوهم قد اختاروا بلدة

1) Bliss (R) 382 - 329 and fooinote 3·
2) *Les Jesuites en Syrie* 1 : 7 - 12,
3) *ibid.* 1 : 9.
4) *ibid.* 2 : 8.

عينها الغاية عينها . فلما انتقل الامريكيون الى بيروت لم تبق غزير في رأي اليسوعيين المركز الذي يمكن الكاثوليك من الدفاع عن عقائدهم في ميداني العلم والتعليم ، ولذلك عزموا على نقل كليتهم من غزير الى بيروت أيضاً[1] . و نعم اليسوعيون في القرن الاخير بامتيازات لم تتوفر للاميركيين . اجل ،ان الانتداب قد رفع الرقابة عن اعمال الاميركيين وترك لهم الحرية في نشاطهم الديني ، ولكن الانتداب نفسه قد سخر جيوشه ورجاله لخدمة اليسوعيين . قال اليسوعيون :

« كان المبشرون اليسوعيون في اول امرهم (قبل الانتداب الافرنسي على سورية) ينشئون المدارس في جبل الدروز ثم يغلقونها اذا قصرت مواردهم الاقتصادية عن ادارتها . ولكن التعليم (التبشيري) اليوم — اي بعد الانتداب — وخصوصاً في جبل الدروز يقوم على تعاون وثيق بين المبشرين و بين السلطات العامة[2] .

ولا نحب نحن هنا ان نسهب في الكلام على المؤسسات اليسوعية ولا المؤسسات الشبيهة بها ، فالغايات اليسوعيه معروفة . ولكن الغريب ان اليسوعيين لا يزالون في لبنان وحده قوة تتحدى كل اصلاح في التعليم الرسمي . الا ان هذا الكتاب ليس موضعاً لبحث ذلك .

علينا ان نقتدي بامم الغرب التي لم تستطع ان تسير بلادها في معارج الاستقلال والرقي الا بعد ان وضعت اليسوعيين خارج حدودها : يجب ان نتعلم من غيرنا ما ننفع به انفسنا .

لقد تعثر الشرق في حياته السياسية والقومية لأن المدارس الاجنبية المختلفة قد فرقت

---

1) *ibid* 5 : 8.

2) *ibid* 10 : 65.

ابناء الوطن الواحد طرائق مختلفة فتشتت اهدافهم و باعدت بين الطرق الى تلك الاهداف .
ان التعليم قوة توجيهية عظمى فلا يجوز ان تكون في ايد اجنبية تلعب بها وتستغلها لمآرب واغراض اجنبية .

ان التعليم الوطني الموحد ، ولو كان ناقصاً بعض النقص ، افضل من التعليم الاجنبي المتنافر ، ولو كان كاملا كل الكمال .

الفصل الخامس

السياسة طريق التبشير

---

(١) تعاون التبشير والسياسة

•

لقد خابت الجمعيات التبشيرية في جهودها الفردية بين المسلمين . لقد تبين لهذه الجمعيات ، لاسباب كثيرة ، ان انتقال المسلم من الاسلام الى النصرانية قد يتم مرة في العام بعد العام . ولكن ذلك يعني ان الجهود لا تتناسب مع النتائج ، فيجب البحث عن طريق اشد تأثيراً .

اما الاسباب الحقيقية التي تصرف المسلم عن هذا الانتقال — كما ذكرها المبشرون انفسهم — فلن نتعرض لها ، ذلك لأنها تثير مشكلة عظيمة بين مواطنين في الشرق يعيشون على الاخوة والوداد ، وهذا ابعد شيء عن غايتنا في هذا الكتاب . ان لكتابنا هدفاً واحداً : اننا نريد ان نبرهن على ان رجال الدين الاجانب هم المسؤولون عن نكبات الشرق السياسية والخلقية ، وعن الفتن التي كانت تثور بين اهل الأديان والمذاهب .

من اجل ذلك كله تلفت المبشرون منذ زمن قديم جداً الى سبيل احسن تمهيداً واشد تأثيراً ، فلجأوا الى حكوماتهم . وبعد ان رضي المبشرون ان يجعلوا الدين آلة في يد الدول ، انتهزت الدول هذه الفرصة وجعلت تساعد المبشرين ، إلا انها في الحقيقة كانت تسعى الى اهدافها الخاصة .

الحروب الصليبية

من الامور التي اصبحت معروفة في اسباب الحروب الصليبية ان تلك الاسباب كانت في ظاهرها دينية ، غايتها تخليص بيت المقدس من يد المسلمين ، بينما كانت في حقيقتها سبيلا للسيطرة على الشرق الاسلامي بما فيه من خيرات اقتصادية ومراكز حربية .

وأوجز رشتر القضية فقال [١] : « جهد الصليبيون طوال قرنين لاستعادة الارض المقدسة من ايدي المسلمين المتعصبين ، فكان عهد الحروب الصليبية من اجل ذلك اروع العهود في العصور الوسطى كلها ... ولكن ذلك الجهد قد خاب ، وتراجعت الحملة الصليبية امام سدود عتيدة من التعصب الاسلامي » .

ولكن غاردنر ولطفي ليفونيان قد كشفا عن حقيقة القضية ستاراً آخر ، فقد قال غاردنر [٢] : « لقد خاب الصليبيون في انتزاع القدس من ايدي المسلمين ليقيموا دولة مسيحية في قلب العالم الاسلامي ... والحروب الصليبية لم تكن لانقاذ هذه المدينة بقدر ما كانت لتدمير الاسلام » . اما ليفونيان فيرى [٣] ، وهو على حق ، ان الحروب الصليبية كانت اعظم مأساة نزلت بالصلات بين المسلمين والنصارى في الشرق الادنى . لقد احب الصليبيون ان ينتزعوا القدس من ايدي المسلمين بالسيف ليقيموا للمسيح مملكة في هذا العالم . على انهم لم يستطيعوا ان يقيموا تلك المملكة . ولكنهم تركوا بعدهم العداوة والبغضاء .

خابت دول اوروبة في الحروب الصليبية الاولى من طريق السيف فارادت ان تثير على المسلمين حرباً صليبية جديدة من طريق التبشير ، فاستخدموا لذلك الكنائس والمدارس والمستشفيات ، وفرقوا المبشرين في العالم [٤] . وهكذا تبنت الدول حركة التبشير لمآربها

1) Richter 14,
2) Gairdner 9, 221.
3) Levonian 124.
4) Richter 14.

السياسية ومطامعها الاقتصادية . ولقد استطاع رامون لل في عام ١٢٩٩ وعام ١٣٠٠ للميلاد ان يحصل على اذن من الملك يعقوب صاحب ارغونة ليبشر في مساجد برشلونة محتمياً بالسلطة المسيحية في اسبانية [1] .

وجهدت الكنيسة زمناً طويلا لتنصير المغول . فلما اعتنق المغول الاسلام من تلقاء انفسهم زال امل كبير من آمال الدول الغربية للسيطرة على الشرق من طريق الدين [2] . من اجل ذلك كانت جميع الحروب الاوروبية التي شنت فيما بعد على الدولة العثمانية حروباً دينية صليبية في اساسها [3] . ثم ان هذه العقلية الدينية استمرت الى العصور الحديثة على الرغم من جميع التقدم الانساني والتطور العقلي في البشر . لم يخجل اليسوعيون من معالجة هذه النقطة باسلوب زاه لماع . انهم قالوا [4] : « ألم نكن نحن ورثة الصليبيين ، أو لم نرجع تحت راية الصليب لنستأنف السرب التبشيري والتمدين المسيحي ولنعيد ، في ظل العلم الفرنسي و باسم الكنيسة ، مملكة المسيح ؟ » .

لم يكن لنا بد من ذكر هذه الفقرات تمهيداً للبحث المقبل ، ولقد اجتزأنا بهذه فقط تجنباً لكل أشارة مما تحفل به كتب المبشرين وكتب نفر من المستشرقين والمؤرخين من الغربيين .

التبشير والنفوذ الاجنبي

لقد كانت تركية على حق حينما بدأت ، منذ امد ، ترتاب في حركات التبشير في امبرطوريتها ، ولا غرو فالمبشر يسبق الجيش الى كل مكان . ولذلك اخذت تركية تراقب

---

1) Addison 46.
2) Addison 59.
3) Richter 21.
4) *Le Jesuites en Syrie* 10 !8.

المبشرين مراقبة دقيقة حتى تضيّق عليهم [١] . وكان الاتراك يرتابون خاصة بالمبشرين البروتستانت ، لأن هؤلاء كانوا يتوارَون وراء العلم البريطاني في الاكثر [٢] ، وبالمبشرين اليسوعيين لانهم يعملون للسياسة الفرنسية أيضاً . وكذلك لما تشعبت مطامع الدول في شبه جزيرة العرب جعلت تركية تحول بين المبشرين وبين بلاد العرب [٣] ، كما انها كانت تقاوم المبشرين في البلاد التركية نفسها [٤] . ثم وقفت من المبشرين كلهم موقفاً حازماً فألقت في سبيلهم العراقيل وعزمت على الا يصيبوا نجاحاً . وهكذا اصبح التبشير بين المسلمين في الامبرطورية العثمانية كلها مستحيلا ، للرقابة الشديدة التي فرضتها الحكومة على المبشرين . وبعد ان فتحت الجمعية التبشيرية بضع مدارس (في لبنان) لاطفال الدروز نحو عام ١٨٧٥ اضطرت الى التخلي عنها امام حزم الحكومة العثمانية وسهرها [٥] .

على ان الحكومة العثمانية لم تستطع ان تتخذ سياسة علنية تجاه المبشرين ، ذلك لأن هؤلاء كانو يأتون في الظاهر كرعايا انكليز او اميركيين أو دانمركيين او افرنسيين . فاذا استقروا في البلاد اخذوا يقومون بالتبشير سراً ما امكنهم . ولذلك كان هؤلاء ، كلما وجدوا مراقبة وسهراً من الدولة العثمانية لجأوا الى قناصلهم ، وكان القناصل يدافعون عنهم كرعايا اجانب في الظاهر ايضاً . ففي آب من عام ١٨٤١ حينما ارادت الدول الاجنبية ان تخرج ابراهيم باشا من سورية بالقوة وعزمت على ضرب بيروت من البحر ، ارسلت الولايات المتحدة سفينة حربية صغيرة اسمها سيان [٦] حملت على ظهرها المبشرين الى لارنقا في جزيرة قبرس . وبعد ان انتهى ضرب بيروت وخرج ابراهيم باشا من سورية اعادت الولايات المتحدة مبشريها الى اماكنهم السابقة في تشرين الاول من السنة نفسها [٧] .

---

1) Jessup 625 et passim.
2) *cf.* Bliss (R) 319.
3) Jessup 642.
4) Addison 107 ff.
5) Richter 239, 249.
6) Cyane.
7) Jessup 59,60.

ولما ادركت الدول الاوروبية ان المبشرين آلة فعالة لتأييد النفوذ الاجنبي في الامبرطورية العثمانية اخذت تلك الدول تتبارى في استخدام المبشرين ، وكان الدور الاول في ذلك للسياسة الانكليزية [١] . ويظهر ان انكلترة لم تكن ترهب نفوذ الولايات المتحدة في الشرق الاسلامي ، كما كانت ترهب النفوذين الافرنسي والايطالي فيه [٢] .

ولما فقدت تركية امبرطوريتها لم تفقد سياستها الحكيمة تجاه المبشرين فقد ظلت تمنع الاطفال من دخول مدارس المبشرين قبل ان ينهوا التعليم الابتدائي في المدارس الرسمية ، ثم هي كانت توجب ان يكون التعليم الديني في تلك المدارس قاصراً على المسيحيين وحدهم [٣] . اما الآن فمدارس التبشير قد زالت من تركية ومن سورية ايضاً .

ولما كانت الامبرطورية العثمانية تضعف مع الايام كانت الدول الاجنبية تزيد في تظاهرها بدعم المبشرين . ولقد كان المبشرون يطلبون من دولهم ان تؤيدهم ، ولو كان هذا التأييد مخالفاً للعرف الدولي . إن في الولايات المتحدة شريعةً تسمى شريعة مونرو تنص على ان دول نصف الكرة الشرقي (آسية واوروبة وافريقية) لا يجوز لها ان تتدخل في شؤون نصف الكرة الغربي (اميركة الشمالية واميركة الجنوبية) . وكذلك لا يجوز للولايات المتحدة ان تتدخل في شؤون الدول الواقعة في النصف الشرقي من الكرة الارضية ما لم تتعرض المصالح الاميركية للضياع [٤] . ولكن المبشرين الامركيين كانوا يودون من الولايات المتحدة ان تخالف شريعة مونرو في سبيل التبشير [٥] .

---

1) *Re-Thinking Missions* 165.
2) *Re-Thinhing Missions* 164-5 ; Jessup 22?.
3) Addison 108 f.
4) Carlton J. H. Hayes, *A Political and Social History of Modern Europe*, vol. II, N.Y. 1924 pp. 225 - 6 etc.
5) Bury 184, 186.

السلك السياسي الاجنبي يحمي المبشرين

وليس من المستغرب ان تستجيب الدول الغربية لرغبة مبشريها ، أليس في ذلك تأييد للنفوذ السياسي ؟ من اجل ذلك كانت هذه الدول تضغط على الدولة العثمانية بين الحين والحين من اجل مبشريها ، فتلين الدولة العثمانية امام هؤلاء المبشرين [1] . اراد الاتراك مرة اغلاق بعض مدارس المبشرين ولكنهم تراجعوا امام ضغط سياسي خالص لا علاقة له بالتبشير [2] .

ولا حاجة الى القول بان وجود حاكم قوي او ضعيف يؤثر كثيراً في موقف حكومته من التبشير والمبشرين . . لما تولى الخديوي سعيد باشا اريكة مصر ، وكان حاكماً مستضعفاً ، أحبه المبشرون لأنه لم يسمح لأحد ان يمسهم بسوء. ثم انه وهب المبشرين البروتستانت عام ١٨٦٢ قطعة ارض ثمينة في القاهرة اسوة بالارسالية الكاثوليكية التي كان قد وهبها مثل هذه الارض من قبل . ولقد تقدمت اعمال التبشير في اثناء حكم سعيد باشا . ولكن لما جاء اسماعيل باشا عام ١٨٦٣ تبدلت الحال لأن اسماعيل باشا كان قوياً فضيّق على المبشرين كثيراً . من اجل ذلك وصف المبشرون اسماعيل بانه متكبر مستبد ، كل ذلك لأنه اراد ان يضع حداً للنفوذ الأوروبي في مصر [3] إذ اهتدى الى الاصابع الحقيقية التي كانت «تُهرّب» ذلك النفوذ الى مصر فقطعها .

وحرصت بريطانية على ان تحمي الارساليات البروتستانتية خاصة ، سواء اكانت هذه الارساليات انكليزية ام اميركية ، ام المانية ، وكان نفوذ انكلترة في ذلك الحين قد اصبح

---

1) Richter 351.
2) *cf.* Richter 274.
3) Richter 345-6.

فعّالا في الامبرطورية العثمانية [١] . فمن ذلك ان الحكومة العثمانية ارادت ان تمنع باعة الاناجيل الدّوارين من التجول في المدن والقرى ، فما زال القناصل يتدخلون حتى حملوا الحكومة العثمانية على العودة الى السماح لهم بذلك [٢] . ومن الحوادث التي تدل على مبلغ اهتمام الدول الاجنبية بالمبشرين — او بتثبيت نفوذها من طريق المبشرين ما يلي [٣] :

اراد الاتراك ان يحموا المسلمين من المبشرين فكان المبشرون يحتجون . ولقد اتفقت حادثة في هذا الباب نقل المبشر هنري جسب تفاصيلها الى دانيال بلس رئيس الكلية السورية الانجيلية ، وهو يومذاك في لندن ، ثم علق عليها بقوله : هل يتاح لنا ان نرى الزمن الذي يصبح فيه لصوت انكلترة المسيحية احترام في الشرق مرة ثانية ؟ فما كان من دانيال بلس إلا ان نقل هذا الكتاب الى المحترم جونس ، امين سر جمعية مساعدة التبشير في تركية وجونس هذا نقله بدوره الى الارل رسل وزير الخارجية البريطانية . ثم ان رسل ارسل نسخة منه الى السير هنري بلور وزير بريطانية المفوض في القسطنطينية . ولكن بلور وجد في هذا العمل المتسلسل على هذه الطريقة قلة لياقة فشكا جسب الى قنصل امريكة طالباً نفي جسب . ويتألم جسب لأن بريطانية لا تعنى بان تمثل امبرطوريتها تمثيلا مسيحيا لدى الباب العالي .

ومع ان طلب جسب لم يُنفذ فانه يدل على مبلغ اهتمام الدول الغربية بامر تافه مثل هذا .

---

1) *cf.* Jessup 660 f,

2) Jessup 590 ; *cf.* Richter 187.

) Jessup 248 f.

على ان المبشرين كانـوا احياناً ينجحون في مسعاهم ، فان الخديوي اسماعيل باشا اراد ان يغلق مدارس المبشرين البروتستانت لأن هـؤلاء كانوا يتدخلون في السياسة و يثيرون الاضطراب في البـلاد و يزيدون مشاكل الحكومة . ولكن القنصليتين الاميركية والانـكليزية ايدتا المبشرين وحملتا الحكومة المصرية على ان تتقيد بالخط الهمايوني (بالدستور) الذي ينص على احترام الحرية الدينية [1] . مع ان الدستور ينص على ان كل صـاحب دين او مذهب حر في ان يتمشى على قواعد دينه او مذهبه كما يشاء ، ولا ينص على ان لبعض الناس ان يحملوا الآخرين على تغيير دينهم بالقوة .

ولقد كان القناصل انفسهم يعملون احياناً للتبشير . حاول المستر سكين [2] قنصل انكلترة في حلب ان يعمل (عـام ١٨٦٠) على ان يحضّر البدوَ في بادية الشام وان يتوصل من هذه السبيل الى اجتذاب ابنائهم الى النصرانية . وفي العام التالي تأسست في لندن جمعية للتبشير بين المسلمين واتصلت بالمستر سكين ، ولـكن لم يكتب لها النجاح [3] .

وفي عام ١٨٨٨ اغلقت الدولة العثمانية مدارس المبشرين الاميركيين ، لأن هذه المدارس فتحت أبوابها بلا رخصة من الحـكومه . ولكن المستر بسّنغر [4] قنصل اميركة في بيروت والمستر اسكار ستراوس [5] تدخلا في الامر حتى سمح الوالي علي رضا باشا بان تعود تلـك المدارس الى فتح ابوابها، على الا تقبل الا التلاميذ المسيحيين . ولـكن الوزير والقنصل ما زالا يسعيان حتى حمـلا الوالي على الغاء هذا الشرط [6] . وهـكذا كانت الدول الاجنبية تستغل ضعف تركية السياسي لتحمي المبشرين في اعمال التنصير . مع ان الولايات المتحدة مثلا لا يمكن ان تسمح لمدرسة ان تستقبل الطـلاب الاميركيين بلا رخصـة وان تلقنهم فوق ذلك ما يخالف المبادىء الاميركيـة .

1) Richter 347.
2) Skene
3) Richter 210 and note.
4) Bissinger.
5) Oscar Straus
6) Jessup 533.

ولما صعب على المبشرين البروتستانت الوصول الى المسلمين التفتوا الى الارثوذكس والارمن . حينئذ لجاء بطريرك الارمن الى الباب العالي ، فحرص الباب العالي على ان يحمي الارمن من المبشرين البروتستانت . فتدخل السفير البريطاني السير سترافورد كاننج [1] ، ثم ما زال يسعى حتى استطاع عام ١٨٥٠ ان يحصل على فرمان يعترف بوجود طائفة بروتستانتية وطنية منحت من الحقوق ما يتمتع به الارثوذكس والارمن في الامبرطورية العثمانية [2] . ومعنى هذا ان المبشرين البروتستانت اصبحوا يعملون من وراء ستار الطائفة البروتستانتية الوطنية فلا تستطيع الدولة حينئذ ان تعد البروتستانت اجانب فتحاول ان تكسر نشاطهم ، او ان تمنعهم من العمل جهاراً ايضاً .

ومن الادلة القاطعة على ان حماية المبشرين تحمل طابعاً سياسياً لا دينياً ان المستر اوسكار ستراوس ، وزير الولايات المتحدة المفوض في تركية ، كان يهودياً . ومع ذلك فانه كان يساعد المبشرين النصارى ويقول : « انا امريكي في الدرجة الاولى ثم انا يهودي » [3] . ولما سحبته الولايات المتحدة من استانبول اسف المبشرون لذلك [4] .

الجنسية الاجنبية !

اما اذا اتفق ان اعتنق رجل النصرانية او انتقل الى المذهب البروتستانتي فكان القناصل والرجال السياسيون الاجانب يأخذونه تحت جناحهم علناً ويتدخلون في كل صغيرة وكبيرة من اجله حتى في الامور الداخلية البحت [5] . ولقد اشتهر ذلك عنهم :

---

1) Sir Straford Canning
2) Islam and Missions 160.
3) Bliss (R) 314, 315 : *cf. Islam and Missions* 161
4) Jessup 534.
5) Jessup 267.

لما انهزم يوسف كرم جاء فلاح من رجاله الى المبشر الاميركي هنري جسب وافضى اليه بانه يريد ان « يقلب انكليزياً » ، اي ان يصبح بروتستانتياً . ولما سأله جسب عن الدافع الحقيقي لرغبته هذه ، قال له : اني من رجال يوسف كرم وقد فررت بعد الهزيمة . فاذا قبض الاتراك علي الآن اعدموني . فانا اريد ان اصبح بروتستانتياً حتى انال حماية انكلترة [١]. وهكذا كان كثيرون يتظاهرون باعتناق البروتستانتية مثلا لينالوا حماية او ينالوا مالا [٢] .

على ان ميدان التدخل السياسي من طريق التبشير لم يبق ميداناً للاميركيين والانكليز وحدهم ، فان الروسية القيصرية ايضاً ارادت ان تدلي دلوها . لقد تنبهت الروسية الى ان في الامبرطورية العثمانية طائفة ارثوذكسية فـــارادت ان تسيطر اولاً على البطاركة والاساقفة الارثوذكس وتتخذهم وسيلة الى تحقيق اطماعها السياسية في الامبرطورية العثمانية. وهكذا اخذ الروس يشترون الاراضي في فلسطين خاصة ويقيمون عليها الابنية ويتدخلون، ساعة يستطيعون، في الامور الدينية والسياسية .

على ان نزول الروسية الى الميدان لم يكن نقمة كبيرة على البلاد ، بل كان ينطوي على نعمة ، هي ان المساعي الروسية في حقل التبشير وقفت في وجه المساعي الاميركية والانكليزية والافرنسية والايطاليـة ايضاً . ولما ارادت الدولة العثمانيـة ان تخرج المبشرين الاميركيين من البلاد اعتقد بعضهم ان ذلك كان نتيجـة لمسعى روسي [٣] .

اليسوعيون ايضا

وكذلك كان لليسوعيون صـولة في الامبرطوريـة العثمانيـة لأن الدول الغربية عموماً

---

1) Jessup 291
2) Jessup 355.
3) Jessup 619 f.

وفرنسة وايطالية والبابوية خصوصاً كانت تحميهم وتؤيدهم [1] ، ولان المؤسسات الكاثوليكية في الشرق كانت كثيرة . ويستغرب جسب كيف ان فرنسة قد طردت اليسوعيين من بلادها [2] ثم هي تنفق عليهم في الخارج ملايين الفرنكات ذهباً . ولا غرو فان فرنسة كانت ترسل اليسوعيين الى الخارج «الا» سياسيين لها ودعامة اجتماعية لآرائها وخاتمي مشاكل في سبيل مصالحها . ومع ان فرنسة كانت عدوة لليسوعيين في بلادها فانها كانت لليسوعيين في الخارج الصنم الذي يعبدونه، وكان اليسوعيون يعدون كل تعرض لفرنسة تعرضاً للبابا نفسه [3] .

وظل اليسوعيون يعملون بصمت في ثيابهم السود حتى جاء الانتداب الافرنسي فكشفوا القناع عن وجوههم [4] ، واخذوا يتشدقون بملء افواههم ، قالوا في كتابهم المئوي [5] : «اجل ، لقد كنا نعتمد على مساعدة فرنسة الظافرة ، والآن هـا هي فرنسة هنا» . ان فرنسة المنتدبة كانت تأتي الى بلادنا بالموظفين الأفرنسيين الذين يماشون اليسوعيين في سياستهم ، وتخلق من موظفي بلادنا من يفعل مثل ذلك .

اليسوعيون والمفوض السامي الفرنسي

وكان اليسوعيون لا يقيمون وزنـاً للتنصير الفردي ، بل كانوا يسعون الى التنصير الاجماعي ، ولذلك وجهوا اهتمامهم الى بلاد العلويين للجهل الذي كان يخيم على تلك الربوع في ذلـك الحين . ففي اول ايلول عام ١٩٢٥ (ذكرى اعلان لبنان الكبير) دعا المفوض السامي الفرنسي عدداً من الراهبات ليذهبن الى صافيتا في بلاد العلويين . ويخون اليسوعيين تمانيهم فيقولون : ان هذه المؤسسة (مدرسة الراهبات في صافيتا) ستدعى يوماً الى ان تلعب

1) *Les Jesuites en Syrie* 1 : 11.
2) *cf. also* Enc. Br. 15 : 347.
3) Jessup 659.
4) *cf.* Dictionnaire Larousse *sous* « Jesuite » : Personne hypocrite
5) *Les Jesuites en Syrie* 11 : 25, 29.

دوراً عظيماً في التبشير الذي بدأ قبل امد بين العلويين أو النصيريين [1] . ولم يكن اليسوعيون مازحين ، فقد مثلوا هم ، لا الرهبات ، و بحراب الفرنسيين لا بالدعـوة الصالحة ما بيتوه : لقد جمعوا عـــام ١٩٣٠ نفراً من العلويين في جنينة رسلان وحملوهم على ان يقروا بالمذهب الـكاثوليكي [2] .

ويهمنا ان نعود الآن الى المفوض السامي الفرنسي الذي بـدأ هذه الحركة عام ١٩٢٥ . لقد كان الجنرال ساراي — والمشهور ان ساراي كان علمانياً لادينياً،ومع ذلك فقد كان يحمي اليسوعيين. إن الجنرال ساراي كان في الحقيقة ينفذ خطة سياسية ولم يكن يعطف على حركة دينية الا بمقدار ما تساعده هذه الحركة على إحكام خطته .

*

وهكذا نرى الى اي حد كان التبشير والسياسة يتعاونان : كانت السياسة تعمل مقنّعة من وراء المبشرين الذي كانوا بدورهم يعملون مقنّعين بقناع التعليم والتطبيب و بذل الاحسان. ثم ان رجال السياسة كانوا اذا دافعوا عن المبشرين لم يدافعوا عنهم كمبشرين بل كاميركيين او انكليز او فرنسيين او ، على الاقل ، كأجانب ليس لهم من دولهم ممثل يحميهم ويسهر على مصالحهم .

حتى رجـال السياسة العلمانيون كالجنرال ساراي واليهود كاوسكار ستراوس، كانوا يتفانون في خدمة رجال الدين الاجانب ثقة منهم بان جميع مساعي الـكاثوليك والبروتستانت على السواء ترمي الى تصدير البضائع الى البلاد الشرقية او الى الحصول على مراكز حربية في البلاد الشرقية .

1) *Les Jesuites en Syrie* 11 : 27,
2) *cf. ibid.* 10 : 23 ss.

الفصل السادس

السياسة طريق للتبشير

(٢) الفتن والحروب في الشرق

•

كان التعاون السلمي بين رجال السياسة وبين المبشرين قليل النتائج. وكانت هذه النتائج على قلتها بطيئة الظهور. ولقد اعتدّ رجال السياسة هذا التعاون دَيناً لهم على المبشرين، فلما قوي المبشرون بعض القوة فعلاً رجعت عليهم دولهم تقتضيهم هذا الدَين.

وهكذا بعد ان عملت الدول الاجنبية زمناً طويلا على تأييد ارسالياتها التبشيرية في الشرق قويت تلك الارساليات فعادت هي بدورها تعمل على تأييد دولها. ولكن المبشرين لم يستطيعوا ذلك الا من طريق اثارة الاضطرابات في بلادنا، ولذلك عمدوا الى اثارة اضطرابات مختلفة وحرصوا على « اذكاء العداوة بين الذين كانوا يبشرون بينهم »[1]، وعلى ان يفسحوا المجال امام دولهم للتدخل في بلادنا.

اثارة الحروب

وكان اول ما خطر للمبشرين ان يخلقــوا في الامبرطورية العثمانية اسباباً تقود الى الحرب، لأن الحرب تضعف الدولة العثمانية فيضعف سلطانها على رعاياها فيجد المبشرون حينئذ من ضعف العثمانيين منفـذاً الى التبشير بين المسلمين. ولقد كانت اكثر الحروب التي شنتها اوروبة من قبل على الـدول الاسلامية دينية في اساسها كالحروب الصليبية والحروب في الاندلس. وكـذلك في القرنين التاسع عشر والعشرين كانت حروب الدول الغربية المشنونة

1) Jessup 160 ff.

على الامبرطورية العثمانية متميزة بعامل ديني . قال لورنس براون [١] :

« وكذلك شنت الدول الاوروبية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين حروباً عدوانية على الحكومات المسلمة ، ثم انتزعت منها اراضي ضمتها الى سلطانها هي . ولقد كانت النتائج في احوال كثيرة غير سارة لبعض الشعوب التي استعبدت ، وخصوصاً من المسلمين . ولكن هذه الشعوب لم تصل بعد الى درجة تشعر فيها انها اصبحت اقليات مضطهدة ، او انها تعيش في حابورات » [٢] . اما غاية الدول الاجنبية من محاربة الدولة العثمانية فكانت ، كما تراها المبشرون ايضاً « لعل الله الرحيم يضرب الاتراك بسيف قدرته الجبارة » .

في عام ١٩٢٠ اصدرت لجنة التبشير الامريكي ، التي تهتم بالاستفادة من مناسبات الحروب للتبشير ، كتابا ذكرت في مطلع مقدمته ما يلي : من ابرز الامور المتعلقة بدخول الولايات المتحدة في الحرب العالمية (الاولى) ان الآراء والمبادىء التي كانت تهدف اليها الارساليات التبشيرية قد تبنتها الآن الامة (الاميركية) ، ثم اعلنت انها هي اهدافها الاخلاقية وغايتها من خوض تلك الحرب ... ان هذه المبادىء التبشيرية قد سميت الآن اسماء سياسية فقط [٣] .

ولما ثار الامير عبدالكريم في ريف مراكش على اسبانية اقلقت ثورته جميع الدول الغربية ، فتراكضت هذه الدول الى مساعدة اسبانية على التغلب على عبد الكريم زعيم القوة العربية الثائرة ، كما وصفوا حركته يومذاك . ولقد علق المبشر وليم كاش في كتابه « العالم الاسلامي في ثورة » على هذه الحرب بالكلمات التالية :

لقد التقى الأسبان بالحماسة العربية القديمة واضطروا الى ان يخلوا، من مناطق نفوذهم،

---

1) Browne 8.

٢) الحابورة كلمة عامية معناها : حي اليهود . ويقابلها في اللغات الاجنبية كلمة Ghetto . ولعل اصل الكلمة في العبرية حبرة : الجماعة ، المجتمع .

3) *Missionary Outlook*. p. (xv) ff.

موقعاً بعـد موقع ، حتى اصبحوا يحار بون وظهورهم الى البحر مباشرة وعلى وشك ان يخرجوا من شمالي افريقية مرة واحدة . وهكذا نجد للمرة الثانيـة منذ الحرب العظمى (١٩١٤ — ١٩١٨) ان دولة اوروبية يتغلب عليها جيش مسلم ، فلقد اتفق ايضا لثلاث سنوات خلت ان مصطفى كمال طرد اليونان من آسية الصغرى وتحدى بذلك سلطان اوروبة القوي[1] .

بعدئذ ينصح ولـيم كاش جماعته فيقول[2] : « قبل هذه التطورات ، التي طرأت عـلى العالم الاسلامي بعد الحرب العالمية الاولى ، كان المبشرون قد اتخذوا مراكز ستراتيجية في العالم الإسلامي ، واستطاعوا في اثناء الثورات والحروب والاضطرابـات ان يتابعوا عملهم بهـدوء وثبات . ولقـد كُتب هذا الـكتاب الصغير ليدل على هذه التطورات الـتي حدثت وليبين للكنائس تلك الحاجة الملّحة للتقدم بمشروعها في يوم الفرصة الـسانحة» .

اننا نعلم علم اليقين ان حرباً كالحرب العالمية الاولى (١٩١٤ — ١٩١٨) لا يمكن ان تثور في سبيل التبشير وحده ، بل يجب ان يرجع نشوبها الى عوامل اقتصادية وسياسية بحت . ولـكن ثمت شيئين يثيران اهتمامنا نحن في كتابنا هذا ، اولهما ان الدول المتحاربة لاتتورع في سبيل ظفرهـا عن ان تستفيد من كل حزب وجماعة ، ولذلـك استغل المبشرون احوال الحرب فاستفادوا من الحرب بطريقـة غير مباشرة . وثاني ذينك الشيئين ان الدول التي تبغي الاستعمار انما تبغيه في الشرق ، لما في الشرق من الثروات الاقتصادية والمراكز الحربية . ولقد اتفق ان يكون العنصر الاسلامي من اقـوى العناصر التي تدافع في الشرق كل مستعمر بكل سبيل . ولذلك اتفقت غايات الحروب الاستعمارية وغايات التبشير وتوحدت في حروب تُثار ظاهراً باسم الاقتصـاد والسياسـة و باطنا للاستعمار وللقضاء على العناصر التي تجعل استغلال الشرق مستحيلا .

ولا تزال اوروبـة الي اليوم تنظر الى جميع حروبها نظرة دينيـة . ان انكلترة المسيحية

---

1) Cash 5.
2) Cash 6.

لا تحارب اليونان المسيحية لأن اليونـان ألقت بقيادها الى انكلترة ، ولا يمكن لملك اليونان الانكليزي النسب ان يعـارض السياسة الانكليزية في البلقان كله وفي اليونان خاصة [١] . واذا اتفق ان حاربت انكلترة المسيحية ايطالية او المانية فلأن ميدان النزاع يكون حينئذ اقتصاديا استعماريا .

من اجل ذلك لم تكن « إثارة الحرب » بين الدول الكبرى دائما وسيلة عملية للمبشرين لأنها قـد تقود الى اضعاف دولة مسيحية . وهكذا انصرف المبشرون الى البحث عن امر آخر يكون اقرب تحقيقا لاهدافهم فوقعوا على « اثارة الفتن والأضطرابات » . واذا نحن ادركنا ان الصلة كانت بـين السياسيين و بين المبشرين وثيقة دائما لم نستغرب ان تنتهز الدول المستعمرة مثل هذه الفرصة للتدخل في الشرق .

الحصار العسكري على المسلمين
ابعادهم عن الشواطىء

ورأى الاوروبيون ان الحروب مـع العالم الاسلامي — مفرّقا او مجتمعا ، تـؤدي الى خسائر كثيرة جسيمة في بعض الاحيان . من اجل ذلك اقـترح المبشرون على دولهم ان يشلّوا حياة المسلمين بابعادهم عن الشواطىء ذات الامطار الوافية وطرق المواصلات الـكافية والمراكز الحربية المهمـة ثم حصْرهم في الداخل وفي الصحارى على الاكثر . ان اقتراحات مثل هذه قـد ابديت فيما يتعلق باسكان اللاجئين بعـد كارثة فلسطين عـام ١٩٤٨ . الا ان الفكرة نفسها قديمة ، ويدعى رجل مبشر ، او متصل بالتبشير ، انه هو الذي اقترحها :

---

١) بدا تأليف هذا الكتاب في اواسط عام ١٩٤٤ وكانت الحالة في البلقان على ما اراد هذا المثل ، ولا تزال حال اليونان خاصة قريبة من ذلك .

كتب كاتب اسمه اشعيا بومان[1] في مجلة « العالم الاسلامي » مقالا عنوانه : « الجغرافية السياسية للعالم الاسلامي »[2] ، ذكر فيه ان شيئاً من الخوف يجب ان يسيطر على العالم الغربي. لهذا الخوف اسباب منها ان الاسلام منذ ظهر في مكة لم يضعف عددياً ، بل هو دائماً في ازدياد واتساع ، ثم ان الاسلام ليس ديناً فحسب ، بل ان من اركانه الجهاد . ولم يتفق قط أن شعباً دخل في الاسلام ثم عاد نصرانيا .

وكذلك يرى هذا الكاتب ان الصحراء كانت للمسلمين حصناً منيعاً ، ذلك لان « البدو » نسبة مئوية كبيرة في المسلمين. وانه ما من دولة حاولت التغلب على المسلمين واتفق ان ظفرت الا خسرت اضعاف ما خسره المسلمون في ذلك الكفاح ...

من اجل ذلك يقترح هذا الكاتب ان تتفق بريطانية وفرنسة ، ما دامتا اكثر الدول سيطرة على العالم الاسلامي[3] ، على سياسة « السيطرة على الشواطىء » حيث يمكن وصول الدوارع وآلات القتال الحديثة بسهولة .

فاذا نحن قرأنا هذا الكلام ثم ذكرنا ما فعلته ايطالية في طرابلس الغرب من اعطاء الشواطىء الى الايطاليين وطرد العرب الى الداخل ، ادركنا ان التبشير والاستعمار متفقان على ابعاد المسلمين عن الشواطىء . وكذلك لما اعطت هيأة الامم فلسطين لليهود نفذت جزءاً من هذه المؤامرة الخطيرة ، فاخلت الشواطىء من العرب المسلمين ثم قذفت بهم الى داخل البلاد والى ما وراء نهر الاردن . ولقد هال هيأةالامم ان ترى عدداً كبيراً من اللاجئين الفلسطينيين قد أمّوا لبنان — على الشاطىء — فهي لا تزال تحاول اقناعهم بالذهاب الى سورية او العراق او شرق الارض لتبعدهم عن الشواطىء .

*

1) Isaiah Bowman, New York.
2) Moslem World : the Poltical Geography of the Mohammedan World, Jan. 1930, pp. 1 - 4.

٣) نشر هذا المقال عام ١٩٣٠ .

الامتيازات الاجنبية

على ان الدول الاجنبية لم تكن ميالة الى ان تعلن بين كل حين وآخر حرباً نظامية على الامبرطورية العثمانية حتى تستفيد من الشرق امتيازاً اقتصادياً او مركزاً حربياً . ان ذلك كان يكلفها خسائر جسيمة في الاموال والارواح . ثم انه يخرج بالدول الاوروبية الى ما لم يكن في حسبانها من اختلاف فيما بينها هي احيانا . من اجل ذلك تسلحت الدول الاوروبية « بالامتيازات الاجنبية » واخذت تجابه الامبرطورية العثمانية بمطالب كثيرة .

الامتيازات الاجنبية ، كما يدل الاسم ، كانت تقوم على منح رعايا الدول الاجنبية النازلين في الامبرطورية العثمانية او السائحين فيها او المارين بها مروراً « امتيازات » لم تكن تمنح للعثمانيين انفسهم . من اشهر هذه الامتيازات اعفاء هؤلاء الاجانب من الضرائب المباشرة ومن جزء كبير من رسوم الجمارك. ثم ان السلطات العثمانية لم تكن تستطيع ولوج بيت رجل اجنبي مهما كان السبب . حتى لو ان جريمة ارتكبت في ذلك البيت لما كان للسلطة العثمانية ان تدخل للتحقيق ، بل كان الذي يقوم بالتحقيق والمحاكمة والفصل قنصل الرجل الذي يسكن ذلك البيت . ان البيت الذي كان يسكنه رجل انكليزي او افرنسي او يوناني او اسوجي او برازيلي ، كان يعتبر جزءاً من انكلترة او فرنسة او اليونان او اسوج او البرازيل

وكذلك كان لكل اجنبي ان يتجول في البلاد العثمانية كما يشاء . فاذا اتفق ان ناله سوء — ولو قضاءً وقدراً — فان حكومته تطالب بديته اضعافا مضاعفة ، وقد تشدد احيانا حتى تنال امتيازات سياسية وتجارية جديدة لم تكن لها من قبل . وكانت القوانين العثمانية لا تطبق على الاجانب النازلين في الامبرطورية العثمانية .

اما اصل هذه الامتيازات فغامض جداً . زعموا ان هرون الرشيد قد منح للفرنجة من اتباع شارلمان تسهيلات تجارية [1] ، وليس ذلك بصحيح . وكذلك يزعمون ان هذه

1) *cf.* Enc. Br. *under* Capitulations.

الامتيازات قد نقلت ، بعد سقوط امبرطورية شارلمان الى بعض المدن الايطالية .

ولكن يظهر ان امير انطاكية الصليبي قد منح مدينة جنوة الايطالية ، امتيازات تجارية في امارته ، وذلك عام ١٠٩٨ م اي في العام الذي سقطت فيه انطاكية في ايدي الصليبيين. ثم ان ملك القدس قد منح مثل هذه الامتيازات للبندقية في ايطالية عام ١١٢٣، ولمرسيلية في فرنسة عام ١١٣٦ م .

وبما ان الامبرطورية البيزنطية (الرومية او الرومانية الشرقية) كانت يومذاك مستضعفة فقد اضطرت الى ان تمنح مثل هذه الامتيازات، لدول اوروبة القوية .

ثم لما استولت الدولة العثمانية على الامبرطورية البيزنطية طمعت الدول الغربية في ان تظل لها امتيازاتها في البلاد التي انتقلت من ايدي الروم الى ايدي العثمانيين . ولم تصل الدول الغربية الى تحقيق بغيتها الا في القرن السادس عشر حينما قبل السلطان سليمان القانوني عام ١٥٣٦ م ان يمنح فرنسوا الاول ملك فرنسة شيئاً من الامتيازات التجارية ومن الاعتراف لرعاياه،اذا سكنوا في الامبرطورية العثمانية أو مروا فيها، ببعض الامتيازات القانونية والتجارية ايضاً. والذي يلفت نظرنا هنا مما يتعلق ببحثنا ثلاثة امور :

١ — ان الرجل الذي عهد اليه بالحصول على هذه الامتيازات لفرنسة من الباب العالي كان يدعى ده لا فورست [1] ، وهو راهب من فرسان القديس يوحنا الصليبيين .

٢ — ان هذه الامتيازات كانت للنصارى من الاجانب . جاء في دائرة المعارف البريطانية نفسها ما يلي :

وكيلا يُظن ان هذه الامتيازات هبة انتزعها ملك مسيحي منتصر من تركي مستضعف، يجب ان نذكر ان الدولة العثمانية كانت يومذاك في ذروة قوتها ، بينما كان فرنسوا الاول

1) De la Forest.

لا يزال يشكو من آثار «معركة بافية بايطالية التي انهزم فيها امام شارلكان» قبل عشر سنوات .

٣ — من اجل ذلك عين الراهب الصليبي ده لا فورست سفيراً في الإستانة ، فكان اول سفير لفرنسة في الامبرطورية العثمانية .

ومع الايام اخذت الامبرطورية العثمانية تضعف ، فكان ضعفها المتوالي المتزايد سبباً في ازدياد شره الدول الاجنبية ، لما في الشرق من خيرات وكنوز . فبعد ان كانت الامتيازات الأجنبية قاصرة — فيما يتعلق بما فعله سليمان القانوني — على الافرنسيين ، امتدت نعمتها الى الانكليز ثم الى الهولنديين والايطاليين والاسبان ، ثم الى الامريكان ورعايا النمسة والروسية واليونان. ولقد كان رعايا كل دولة يتوسعون في هذه الامتيازات ليتمتعوا بحقوق وإعفاء لم تكن من قبل لهم . واخيراً اصبحت الشعوب والجماعات غير المسلمة تتمتع في الامبرطورية العثمانية باستقلال طائفي فيما يتعلق بالاحوال الشخصية (من زواج وارث وغيرهما) ، و باعفاء من الخدمة العسكرية ومن كثير من الضرائب والملاحقات القانونية . حتى ان المجرم كان يرتكب جريمته فاذا لجأ الى قنصلية او اختبأ في بيت رجل اجنبي لم يجسر القضاء العثماني على ان يصل اليه . ولكن هذه الامتيازات ألغيت عام ١٩١٤ بعد ان نشبت الحرب العالمية الاولى .

زادت هذه الامتيازات في نفوذ الدول الاجنبية فاخذت انكلترة وفرنسة تتنازعان على « حماية » الاجانب في الأمبرطورية العثمانية من الذين ليس لدولهم تمثيل في استانبول [٢] . فالأرمن والبلغار واهل الجبل الاسود و بعض اهالي اميركة الجنوبية كاهل الأرجنتين والتشيلي والمكسيك لم يكن لدولهم وزراء مفوضون او قناصل في الامبرطورية العثمانية ، فلم يكونوا يتمتعون بالامتيازات الاجنبية . ولكن هؤلاء اذا استطاعوا ان ينالوا حماية فرنسة او

---

1) Pavia.
2) *cf.* Enc. Br. *under*, Capitulations.

انكلترة — وكان من السهل جداً ان ينالوها — استطاعوا ان يتمتعوا بجميع الامتيازات التي كان يتمتع بها الافرنسي والانكليزي في الامبرطورية العثمانية سواء بسواء .

واساء بعض الوزراء والقناصل من الانكليز والافرنسيين هذه السلطة في منح الحماية لرعايا الدول الذين لا تمثيل سياسياً لهم في الاستانة، وجمعوا من وراء ذلك اموالا طائلة [1] .

ثم زاد ضعف الدولة العثمانية فزادت جرأة الانكليز والافرنسيين على منح مثل هذه الحماية ، فمنحوها لعدد من « الرعايا العثمانيين » انفسهم ممن استطاع ان يشتري هذه الحماية بمبلغ كبير ليستغلها في وجوه مختلفة ، او ممن كان يستطيع ان ينفع انكلترة او فرنسة في سبيل من السبل . وكان احد هؤلاء الاجانب او المحميين يتخطى القوانين ويخالف مبادىء الانسانية، فاذا تعرض له متعرض شمخ بانفه وقال : « انا اجنبي » ، او « انا حماية اجنبية » . روى عبدالله المشنوق شيئاً من هذا ، قال [2] :

« من ذلك حادثة شهدتها بام عيني – دعست سيارة يقودها رجل اجنبي طفلا في بيروت . فامر الشرطي السائق بالوقوف فرفض قائلاً بلغته الاجنبية . القنصلية . لا شان لي معك . وتابع (السائق) طريقه تاركا الطفل المسكين يعاني سكرات الموت » .

وادرك المبشرون ما يمكن ان يستفيدوا من الاحتماء بالامتيازات الاجنبية فاستغلوها الى ابعد الحدود : لقد كانوا — بصرف النظر عن اشكال اثوابهم — يدورون في البلاد كاجانب ويعملون فيها كمبشرين .

اثارة الاضطرابات ثم استغلالها

على ان الدول الاجنبية لم يكن باستطاعتها ان تتدخل في شؤون الامبرطورية العثمانية

---

1) cf. Enc. Americana 5 : 567

٢) الامتيازات الاجنبية ، بيروت ١٩٢٢ ، ص ٢٥ .

اذا كانت تلك الشؤون تسير في سبيلها سيراً طبيعياً هادئاً . فلم يكن بد اذن من ان تثير تلك الدول الفتن والاضطرابات ثم تتقدم من الامبرطورية العثمانية بدعوى « حفظ مصالحها والدفاع عن رعاياها » في خضم هذه الاضطرابات فتنال المطلب تلو المطلب . ولو اننا احببنا ان نؤرخ المذابح التي اثيرت في الامبرطورية العثمانية بين ١٨٤٠ و ١٨٦٠ ، اي في مدى عشرين عاماً فقط ، لاحتجنا الى كتاب كامل .

كانت انكلترة وفرنسة تهتمان بسورية اهتماماً شديداً وتتنافسان علناً في سبيل تثبيت نفوذهما فيها . ونحب هنا ان نستبق الحوادث فنقول : لما تدخلت الدول في شؤون جبل لبنان بعد فتنة عام ١٨٦٠ — على ما سيأتي — اراد نابليون الثالث ان يمد اجل بقاء الجيش الفرنسي في سورية ، ولكن انكلترة رفضت ذلك . ولما اصر نابليون الثالث على رأيه اعدت انكلترة عشرة آلاف جندي في قبرص ومالطة وجبل طارق . ولو لم تسحب فرنسة جميع جنودها من سورية في الخامس من حزيران ١٨٦١ لاخرجتها انكلترة بقوة السلاح [1] .

من هنا يتبين لنا مقدار المنافسة في سبيل بلادنا ومدى استغلال الدول الاجنبية للحوادث. ونحن سنضرب صفحاً عن ذكر المذابح التي احدثتها الاصابع الاجنبية في جميع انحاء الامبرطورية العثمانية : في بلغارية واليونان وفي آسية الصغرى بين الارمن ، تلك المذابح التي كانت تثيرها الدول الاجنبية بواسطة المبشرين [2] ، وسنكتفي بحادثين فقط نذكرهما في محلهما من هذا الفصل .

لقد كانت تركية على حق في خوفها من المبشرين الذين لم يكونوا فقط يثيرون الفتن في امبرطوريتها ، بل كانوا ايضاً يتجسسون لدولهم سياسياً وعسكرياً [3] . وكذلك كانوا يفرقون

---

1) Jessup 209 f.
2) cf. Jessup 621.
3) cf. Jessup 536 f.

السكان معسكرات ، فقد كان الدروز مثلا يعتمدون على حماية انكلترة ويفضلون المدارس الامريكية [1]. اما الموارنة فكانوا يرون حليفهم الطبيعي في فرنسة ويفضلون المدارس الفرنسية. وكانوا يتلقّون السلاح من فرنسة ايضاً ، فقد رسا عام ١٨٥٨ مركب حربي قرب طرابلس وانزل اسلحة اشترى منها اهل طرابلس انفسهم خمسمائة بندقية . ولما وصل الخبر الى بيروت ارسلت الحكومة عشرة مدافع لحماية المدينة من هجوم قد يقوم به اهل زغرتا [2] . وكان الدروز ايضاً يتلقون السلاح من انكلترة . وسنرى فيما بعد ان فتنة عام ١٨٦٠ المشؤومة كانت منسوجة باصابع الدول الأجنبيـة .

وقلّ ان استطاع المبشرون التأثير في البيئة الاسلاميـة ، ولذلك وجهوا اهتمامهم الى البيئـة المسيحية يثيرون الخلاف في طبقاتها و بين اهل مذاهبها . فما ان جاء المبشرون البروتستانت الى سورية حتى وقف رجال المذهب الماروني والمذهب الارثوذكسي موقف الدفاع الشديد ، فان البطريرك الماروني هدد كل ماروني يقترب من البروتستانت او يعاملهم او يؤجرهم سكناً او يزورهم او يلبي طلباً او يساعدهم على البقاء في البلاد بالحرمان [3] . وكذلك كان الاكليروس الارثوذكسي يضطهد كل من يميل من الارثوذكس الى المبشرين البروتستانت [4] . ولم يكتف الاكليروس الماروني بحثّ اتباعه على الابتعاد عن البروتستانت بل زعم حسب انـه كـان يحمل اتباعه على اضطهاد اهل المذاهب النصرانية الاخرى [5] ، وخصوصاً بعد ان طمع البطريرك الماروني ببسط سلطـة زمنيـة على جبل لبنان [6] .

1) Jessup 157.
2) Jessup 151.
3) Richter *187* f.
4) Richter *194* et passim
5) Jessup *158*.
6) *cf.* Jessup *159*.

وهكذا نجد ان المنافسة بين المبشرين البروتستانت و بين المبشرين اليسوعيين ألقت في البلاد فتناً و إحناً ومنازعات مذهبية واجتماعية[١]. على اننا لن نفصل هذه كلها، فهي كثيرة[٢]. ولقد تبارى المبشرون البروتستانت واليسوعيون في خلق هذا الاضطراب. فقد اتفق مثلا ان حدث خلاف في الكنيسة الارثوذكسية في دمشق فصبأ ثلاثمائة من الارثوذكس الى البروتستانتية (نكاية بابناء دينهم) . ثم زال الخلاف فعاد هؤلاء كلهم الى مذهبهم القديم[٣].

ولما مرض موسى عطا مرض الموت ، وكان قد صبأ من مذهب الروم الكاثوليك الى المذهب البروتستانتي ، جاء القس الروم الكاثوليك ودخلوا عليه ثم اغلقوا باب بيته ولم يدعوا احداً يدخل ، ثم ادّعوا انه عاد الى الكثلكة. ولكن البروتستانت لم يشاءوا ان ينهزموا فحدثت فتنة في زحلة لم تهدأ ثائرتها الا بعد ان تدخل رجال الشرطة. ومات موسى عطا بعد بضعة ايام من مرضه (٨ نيسان ١٨٧٢) ، ولكن زحلة بقيت في المناقشات الدينية والاضطراب والفوضى ثلاث سنوات متوالية بعد ذلك[٤].

ولما مد البروتستانت اصابعهم الى حمص اتفق ان جاء شاب ارثوذكسي الى اسقف يسأله شيئاً يتعلق بالفرق بين المذاهب، فخبطه الاسقف بعصاه فافقده وعيه فثارت الثائرة في حمص. وكذلك جاءت ذات يوم فتاة ارثوذكسية تزور زوجة المبشر د.م. ويلسن ، فلما علم بها اهلها جاءوا فقبضوا شعرها وجروها في الشوارع[٥].

اما اليسوعيون فكانت لهم السيادة التامة على زحلة حتى جاء البروتستانت فانتزعوا تلك السيادة منهم ، ولكن ظل بامكان اليسوعيين ان يثيروا دائماً شغباً دينياً في عروس البردوني كما فعلوا مراراً[٦] .

---

1) Jessup *196* f. et passim
2) *cf.* Jessup 243 f., 289 f., et passim
3) Jessup 587
4) Jessup 415-*420*
5) Jessup *149*
6) Jessup 416 *; cf. Les Jesuites en Syrie* 6 : 25

فتنة عام ١٨٦٠

في عــام ١٨٦٠ نشبت بين الموارنة والدروز في جبل لبنان فتنة غسلت البلاد بالدماء وتركت في نفوس الناس اسوأ الأثر الى اليوم. الا ان هذه الفتنة لم تنشب فجأة ولا اتفاقاً ،وانما كانت تُهيأ خطوة خطوة . ولقد كان مهندسوها بارعين الى حد ان الذين ذهبوا وقودها لم يعلموا يومذاك ان الدول الاجنبية قد هيأتها على ايدي المبشرين .

غزا ابراهيم باشا سورية ١٨٣١ — ١٨٣٢ وظفر ظفراً عظيماً كاد يدخله الى استانبول عاصمة الامبرطورية العثمانية نفسهــا . عندئذ خافت الدول الاجنبية عواقب ذلك فاجبرت ابراهيم باشا على التراجع والانسحاب من بلاد الشام كلها . ولكن قبل ان ينسحب ابراهيم باشا ١٨٤٠ كان الامــير بشير الثاني قد استبد بحكم جبل لبنان وجعل يظلم الناس بطلب الاموال والجنود .ولقد اتفق النصارى والمسلمون من سكان الجبل على مقاومــة التجنيد خاصة . حينئذ لجــأ الامير بشير الى بذر بذور الشقاق بين النصارى والمسلمين بنزع السلاح من بعضهم ونفي بعضهم الآخر فعظمت النقمه على الامير . وكانت حملة ابراهيم باشا واستبداد الأمير بشير قــد تركا البلاد في فوضى شديدة .ثم انسحب ابراهيم باشا من سورية ونُفي الامير بشير من لبنان في عام واحد ، ولكن الفوضى ظلت سائدة .

وجاء الامير بشير الثالث او بشير بن ملحم ، الا انه كان حاكماً ضعيفاً فزاد الاضطراب وعمت الفوضى في الجبل . ثم ان الدول الاجنبيــة لم تعجزعن قسمــة اهل جبل لبنان قسمين: تعلق الموارنة منهم بفرنسة ، واستمال الانكلــيز الدروز [1] . ومن قبل فتنــة عام ١٨٦٠ كان الافرنسيون فعلا يساعدون الموارنــة ، اما الأنكليز فــكانوا يساعدون الدروز [2] . ونشبت

---

1) *cf.* Lammens, *La Syria*, II 164 s., 171 ss.
2) Penrose 3.

اضطرابات بدائية بين الدروز والنصارى، ولكنها كانت اضطرابات اقطاعية [١] في سبيل حكم جبل لبنان، اذ جعلت فروع آل شهاب تتنازع الحكم عليه. وعز على آل نكد أن يخسروا امتيازاتهم فاشتركوا في هذا النزاع.

وحاولت حكومة استانبول ان تقرّب وجهات النظر بين الاقطاعيين المتنازعين فلم تستطع، فعزلت الامير بشير الثالث لسوء سياسته وعينت مكانه عمر باشا النمساوي. فاحتج اصحاب الاقطاعات —لأن الامر خرج من يدهم بالكلية ومن يد خصومهم ايضاً— واحتجت الدول الاوروبية كذلك وطلبت اعادة الامارة الى آل شهاب، لا حباً بآل شهاب ولكن انتهازاً للتدخل في شؤون البلاد العربية. ومع ان الدولة العثمانية لم تقبل باعادة آل شهاب الى الحكم فانها نزلت عند رغبة الدول الاوروبية وضغطها فسحبت عمر باشا من جبل لبنان.

تقسيم جبل لبنان في القرن الماضي
وتقسيم فلسطين اليوم

وبلغ اهتمام اوروبة بجبل لبنان ان الامير مترنيخ، مستشار النمسة واعظم شخصية سياسية في القرن التاسع عشر، ابدى اهتماماً كبيراً بشكل الحكم الذي يجب ان يطبق على جبل لبنان. غير ان تدخل مترنيخ كان لمصلحة الدول الاجنبية ولم يكن لمصلحة الدولة العثمانية ولا لمصلحة جبل لبنان نفسه. لقد اقترح مترنيخ ان يقسم جبل لبنان قائمقاميتين احداهما اسلامية والثانية مسيحية. فاضطرت الدولة العثمانية الى قبول هذا الاقتراح،

١) اذا اراد القارىء ان يتفهم كثيراً من اسباب النزاع في هذا العهد فانه يحسن به الرجوع الى كتاب « الحركات في لبنان الى عهد المتصرفية » رواية حسين غضبان ابي شقرا وتأليف يوسف خطار ابي شقرا، نشره عارف ابو شقرا (بيروت ١٩٥٢).

وقسمت لبنان قسمين جنوبياً وشمالياً يفصل بينهما طريق بيروت دمشق . ولقد جعلت القائمقامية الجنوبية الاسلامية تحت امرة الامير احمد ارسلان ومركزه بيت الدين . اما القائمقامية الشمالية المسيحيةفوضعت تحت امرة الامير حيدر اسماعيل ابي اللمع ، ومركزها في بكفيا . واما دير القمر مصدر القلاقل الصحيح فوضعت تحت ادارة متسلم تركي .

وها هي اوروبة بعد قرن واحد تعود الى السياسة نفسها في شأن فلسطين : لقد قسمتها —ظلماًوعدواناً— فاعطت الشرق والشمال للعرب والغرب والجنوب لليهودوارادت تدويل القدس بوضعها تحت حكم حاكم اجنبي[1] . وقضية القدس لم تنته بعدبل هي ثائرة الى اليوم. ولا ريب عندنا أبداً في ان مشكلة فلسطين لم تولد حباً باليهود، ولا بالعرب طبعاً، وانما هي مصالح الدول الكبرى تفعل فعلها دائماً في فلسطين وفي الصين ، وفي كل مكان تكون القوة فيه حكماً بين المتناظرين .

*

هكذا عرفنا كيف استيقظ جبل لبنان الى النعرة الطائفية : ان السياسة الاستعمارية هي التي لعبت دورها ووضعت في لبنان خطاً فاصلاظاهراً ورسمياً بين النصارى و بين المسلمين ، ثم حملت البلاد مشاكل كانت البلاد في غنى عنها . ولقد انتقد جميع الحكام والمؤرخين ، فيما بعد، قسمة جبل لبنان قسمين مسيحياً ومسلماً. ولم يكن الامير مترنخ منظم مؤتمر فينة والقاضي على خطط نابليون وعلى نتائج الثورة الفرنسية وحافظ الملوك على عروشها في اوروبة بالغافل عن وجه الصواب والخطأ ، ولكن السياسة الاستعمارية هي التي اوحت اليه بما اقترح .

و بعد ان كانت الاضطرابات اقطاعيةاصبحت دينية واصبح حلها غير ممكن. ان حل هذه المشاكل لم يبق معتمداً على تراضي سكان جبل لبنان وحدهم ، بل كان خاضعاً الى حد كبير لرضى الدول الاوروبية . اما رضى الدول الاجنبية فقد كان عسيراً ، لأنها لم تكن تريد حل المشكلة بل كانت تريد دوام الاضطراب في الامبراطورية العثمانية ليتسنى لها التدخل كلما شاءت .

---

١) التقسيم الذي اقترحته هيأة الامم .

ولقد صدق ظن المخلصين ، فان الاحقاد قد غُذيت بهذا التقسيم وبُعثت به الاضغان. ثم ما زالت الفوضى تعم والدسائس تنمو حتى انفجرت الصدور في عام ١٨٤٥ « في كسروان حيث تألب الاهالون واجتمعت الغوغاء حاملين السلاح برئاسة زعيمهم طانيوس شاهين وتهددوا المشايخ [١] بسوء العاقبة. وكان بدء الاساءات في زوق مكايل (قرب جونيه) لكونها مركز الاثمار والشغب في الشعب فحدث ما ساء ولم يخلُ عن اراقة الدماء. ثم اندفعت العامة المتجمهرة على اموال المشايخ واملاكهم نهباً وغصباً ففر الخازنيون [٢] لاجئين الى مدينة بيروت ... ثم امتدت الثورة من كسروان الى المتن (شمالي طريق بيروت دمشق مباشرة) والمحلات المختلفة. ولربما كان للاكليروس في اول الامر ضلع مع الاهالي » [٣].

على ان الفتن التي اخذت تطل برأسها او تنفجر منذ عام ١٨٤٠ لم تكن كافية لتبرير التدخل الاجنبي ، لقد كانت فتناً اقطاعية في الأغلب ، ودينية بالعَرَض. ثم انها كانت قاصرة على اقسام خاصة من الجبل يثور فيها المسيحي على المسيحي او الدرزي على الدرزي. واخيراً أفلح الظالمون فأثاروا فتنة عام ١٨٦٠ وقسموا السكان قسمين واضحين : مسلمين ونصارى ، فبردت بذلك بعض الصدور واسرعت الدول الغربية ترسل جيوشها واساطيلها الى الى شواطىء بلادنا لحماية ... النصارى. ولو فرضنا ان فرنسة وحدها ارادت حماية النصارى لكان ذلك معقولا ، اذ يقال ان السلاح استقر في ايدي الموارنة من ايد افرنسية. ولكن انكلترة التي قدمت فيما قبل ايضاً السلاح الى الدروز قد ادّعت الآن حماية النصارى.

و بعد ان وقعت الواقعة وهدرت الدماء البريئة من الطرفين ولطخ تاريخ وطننا بالسوء

---

١) المشايخ هنا رؤساء الاقطاع ، وقد كان من المشايخ دروز ونصارى على السواء.

٢) آل الخازن نصارى.

٣) راجع لبنان ، تأليف لجنة من الادباء ، بيروت ، المطبعة الادبية سنة ١٣٣٤ هـ. الصفحات ٢٩٨–٣٠١. ثم ثورة وفتنة في لبنان ، تأليف انطون العقيقي ، نشرة يوسف يزبك (بيروت ١٩٣٦) ، ثم الحركات في لبنان.

ووُصمنا كلنا بالتعصب وقف المبشرون يعبرون عن رأيهم في النار التي اججوها وألقونا فيها وقوداً .

يزِن جان بيانكي الأفرنسي ، وهو قسيس بروتستانتي ورئيس شرف لجمعية المبشرين البروتستانت في باريس واستاذ اللغة الفرنسية في الجامعة الاميركية في بيروت ، القول فيعرِّف هذه الفتنة بانها « مذبحة » قام بها الدروز لقتل النصارى الارثوذكس والموارنة [١] .

ولقد غاب عن بال جان بيانكي الفرنسي ان « مذبحة حقيقة » قد هيئت من قبل في وطنه فرنسة ، وانها كانت ايضاً في ظاهرها دينية وفي باطنها سياسية الى ابعد مرامي السياسة . تلك هي مذبحة القديس بارثليميو التي نفذت ليلة عيد هذا القديس (في ٢٣ آب ١٥٧٢) وذهب في نارها الفان من الهوغونت [٢] البروتستانت في باريس وحدها ونحو عشرة آلاف آخرون في فرنسة خارج باريس [٣] .

ويرى المبشر الاميركي هنري هاريس جسب هذه الفتنة اعلاناً ناجحاً ، فلقد « اضطربت لها اوروبة واميركة ، واصبح لبنان بها معروفاً في العالم الغربي فأمكن ان تجمع الاعانات باسمه والتبشير فيه [٤] ».

اما يوليوس رشتر الالماني فقد اجرى في اول الأمر الدموع على خديه وقال : « ان هذه المذبحة الجديدة قد اثارت رحمة قوية في العالم المسيحي » . ولكنه يعود فيمسح هذه الدموع من وجهه وعينيه ليتبدل بها ابتسامة اطمئنان ويقول : **وعن هذه الطريق بدأ في عام ١٨٦٠ فصل جديد في تاريخ الجهود البروتستانتية في الشرق الادنى [٥] » .**

1) Bianquis 6, 27
2) Huguenots.
3) A Gene ral Hist. of Europe, by Robinson, Breasted and Smith, Boston Etc. 1921 p. 336.
4) Jessup 215
5) Richter 201 ff.

ولم يحدث قبل مذابح الارمن عام ١٨٩٥و١٨٩٦ حادث حفز الارساليات البروتستانتية المختلفة الى التكاتف في سبيل تنصير هذا القسم من العالم كحادث سنة ١٨٦٠ . **لقد كان هذا الحادث فريداً الى درجة ان المبشرين والرهبان لم يكتفوا بان اثاروه ثم وقفوا يتفرجون به ، بل ان منهم من اشترك فيه فان الراهب اليسوعي فردينانذو بونا شيتا قتل عام ١٨٦٠ في اضطرابات مدينة زحلة بعد ان قتل سبعة من الدروز[1].**

ويختلف المبشرون في نسبة التبعة الى المتقاتلين . إن رشتر مثلا يرى ان الذنب كان على الموارنة : « لقد كان الموارنة مرة ثانية مخطئين ، فعلى الرغم من الهزائم التي مُنوا بها في عام ١٨٤٢ و ١٨٤٥ ، فانهم ظلوا تواقين الى اذلال جيرانهم . ومن غير سبب سقط الموارنة عام ١٨٦٠ على بضع قرى درزية. ولكن الدروز نهضوا اليهم نهضة رجل واحد[2]». **اما دانيال بلس فيرى ان التبعة تقع على اكتاف المسلمين ، قال[3] : ولقد بقينا حيناً (بعد الفتنة) نخشى هجوماً على مدينة بيروت ، اذ قيل ان اتفاقاً عقد بين دروز الجبل وبين قسم من النوع السافل في المسلمين لمهاجمة المدينة في ليلة ما... ثم ان جميع السكان المسلمين من ذلك النوع السافل كانوا في كل مكان يلوحون بعصيهم وتبابيتهم[4] ...**

اما اليسوعيون فيزعمون انهم لم يكـــونوا يريدون هذه المذبحة لانها هددت اعمال التبشير[5] ، مع العلم بان بعضهم خاضها وابلى فيها البلاء الحسن (كالراهب بو شيتا مثلا) .

هذه نماذج من آراء المبشرين في فتنة سنة الستين ومن نياتهم المبيّتة واعمالهم ايضاً . اما الاحسان الذي اسدوه الى المنكوبين فهو في فصل الاحسان من هذا الكتاب .

*

1) *Les Jesuites en Syrie* 12 : *17*, *18*
2) Richter *198*
3) Bliss *153*, *154*
4) Bliss 153, *154*
5) *Les Jesuites en Syrie* II : 13

ولكن ماذا يهمنا الآن من حمل التبعة على الموارنة او على الدروز ؟ ان هذه « الفتنة الدينية » كانت نقمة على لبنان ، ولكنها حققت للدول الاجنبية هدفاً عظيماً اجل ، ندلا يكون لهذه الفتنة صلة بالدين، ولكن كان لها بلا ريب صلة بالسياسة : لقد « انعقد في بيروت مؤتمر دولي حضره المفوض السلطاني مع خمسة من وكلاء الدول ومفوضيهم ، اعني دولة انكلترة وفرنسة والروسية والنمسة وبروسية... وقرروا ان تكون ادارة الجبل بواسطة متصرف مسيحي من طرف الدولة العليـة وبرضى الدول »[١]. هذا المُتَصَرِّفُ (الحاكم) يَجِبُ أَنْ يَكُونَ نصْرانِيّاً أُورُوبِيّاً ومِنْ أتباعِ الكَنِيسَةِ الكاثُولِيكِيَّةِ الرُّومانِيَّةِ ، لا وَطَنِيّاً سورِيّاً مُسْلِماً أوْ مَسِيحِيّاً[٢].

---

١) لبنان (تأليف لجنة من الادباء) ٣٠١ – ٣٠٢ .

٢) Jessup 210.

الفصل السابع

السياسة طريق التبشير

(٣) الادارة الاجنبية في خدمة التبشير

لقد اثمر التعاون بين السياسة والتبشير ثمرته الاولى واخذت الاقطار الشرقية — التي لم تكن قد استعمرت من قبل — تسقط تحت النير الاجنبي وتخضع لادارة اجنبية مباشرة. ان هذه الادارة الاجنبية لم تقصِ الآن المبشرين لأنها نالت حاجتها من جهودهم، بل زادت في تقريبهم[1]. ان الحاجة الى المبشرين لم تنته ولكنها اصبحت الآن اعظم ضرورة من ذي قبل: ان ادارة البلاد المغلوبة على امرها تنفر من الخضوع بسرعة، ولذلك لم يكن بدّ من اخضاعها بطريقة مستترة بعيدة عن المظاهر العسكرية او الرسمية على الأقل. ولم يكن لدى الدول الاجنبية افضل من المبشرين الذين اصبحوا يفهمون البلاد واهلها و يعرفون مداخل الامور فيها واهواء المتنفذين من رجالها. ولكن المبشرين لم يرضوا ان يفعلوا ذلك فقط، بل ارادوا ان يحققوا هم رغباتهم الظاهرة على الاقل حتى يتيحوا للدول ان تحقق جميع رغباتها الحقيقية. كل هذا ونظر الدول الاجنبية متجه الى نقطتين في الامبرطورية العثمانية اضعفتهما القلاقل: مصر وجبل لبنان.

---

١) بدأ تأليف هذا الكتاب قبل ان ينتهي الانتداب على بلادنا، وهذا المقطع اشارة الى ذلك.

في صميم التدخل السياسي

وقف المبشرون ورجال السياسة الآن وجها لوجه : اي الفريقين يجب ان يتقدم الآخر ؟ ان المعروف في التاريخ ان المبشر كان يدخل البلاد ثم يأتي الجيش على أثره. ولكن المبشرين منذ القرن التاسع عشر احبوا ان يتقدم الجيش اولاً ، لأن ذلك يسهل مهمتهم . ولذلك كان الحكام الوطنيون في كل بقعة على حق حينما كانوا « يعتقدون ان مجيء المبشرين ينتهي دائماً بتدخل الدول النصرانية في بلادهم ، وبخسارتهم جزءاً من استقلالهم [١] ».

ولكن هذه الطريق طويلة ، ولذلك كان المبشرون يرغبون في ان تتدخل الدولة بقوتها اولاً ثم يأتون هم فيجدون الطريق ممهدة للتنصير : ان المبشر وطسون اقترح ان تتعاون الحكومات الغربية في سبيل منع انتشار الاسلام بين القبائل الوثنية في افريقية [٢] حتى تكون مهمة المبشر اهون لفقدان المنافسة . إن المبشرين يخشون تلك المنافسة خشية شديدة .

يقول غاردنر ان نزول الارساليات المسيحية على ساحل غانة ، من نهر غامبية الى نهر النيجر (على ساحل افريقية الشمالي الغربي)، للتبشير بين الوثنيين من اهل افريقية ثم احتلال الدول الاوروبية لهذه المناطق ولما وراءها هما اللذان اقاما الاسلام والنصرانية وجهاً لوجه في تلك الاصقاع [٣] ، كل دين يحاول ان يجتذب اليه اولئك الوثنيين. ولم يكن في الامر منافسة لو لم تقف الدول الاوروبية بجانب مبشريها .

واخيراً اخذ الضعف يدب فعلا في الامبراطورية العثمانية فاخترقت الدول الإجنبية ذلك

---

1) *Islam and Missions* 172 f.
2) *ibid.* 192
3) Gairdner 280

السور الذي كان مضروباً عليها ، ثم تغلغلت من طريق الفتح ومن طريق التسلسل السياسي في شبه جزيرة العرب وفي مصر وسورية وقبرس وغيرها . وهكذا لم يبق من حاجة الى المبشرين لشق الطريق امام الجيش الزاحف، ولكن ظلت الحاجة اليهم ماسّة ليساعدوا في تثبيت الاقدام حيث نزل الجيش . ولكن المبشرين رأوا ان الجيش وحده كان يقوم بمهمة الفتح ومهمة تثبيت الاقدام فارادوا ان يستفيدوا هم فقط من هذه السيطرة العسكرية السياسية . قال جسب : ان القسم الاكبر من المسلمين قد أصبح في حكم الدول النصرانية فيجب الاستفادة من هذه الحالة الراهنة [1] . وصرح رشتر فقال : ان مائة وستين مليوناً من مجموع مائتين وخمسين مليوناً من المسلمين في حكم الدول النصرانية ، فواجب هذه الدول اذن ان تمهد السبيل لتبديل دين هؤلاء الرعايا [2] .

ولكن رغبة المبشرين لم تكن في حقيقة الامر منافية لغاية الدول الاوروبية الطامحة الى الاستعمار . ان الدول الاوروبية بدأت تنزل مستعمرة في الشرق الادنى خاصة منذ الثلث الثاني من القرن التاسع عشر . ويمنّ المبشر صموئيل زويمر على المسلمين فيقول في المؤتمر التبشيري الذي عقد عام ١٩١١ في لكناو بالهند : ان خمسة وتسعين مليوناً على اقل تقدير من اتباع نبي مكة يتمتعون اليوم بنعمة الحكم البريطاني [4] . ولكنه يقصد من ذلك ان طريق التبشير الى هذه الملايين الكثيرة من المسلمين قد اصبحت معبدة . ويكشف المبشرون اخيراً القناع عن غايتهم الحقيقية فيقول بعضهم : ان احتلال الانكليز لمصر وقبرس قد ساعد على تسهيل التعليم باللغة الانكليزية و بالتالي على التبشير [5] . ويقول بعضهم الآخر ان رسوخ حكم الانكليز في السودان قد سهل مهمة المبشرين [6] في ذلك الصقع المتسع . ثم يتبنى المبشر زويمر رأياً

1) Jessup 767 f.
2) *cf.* Richter 77.
3) *Islam and Missions* 26 f.
4) *Islam and Missions* 14.
5) Jessup 595 f.
6) Milligan 29.

صريحاً المبشر جسب فيقول : ان الابواب المفتوحة التي تؤدي فعلاً الى الاسلام إنما هي المستعمرات التي يعيش فيها المسلمون تحت حكم مسيحي او حكم وثني ايضاً (في افريقية والهند مثلا)[1] . الا ان المبشر واطسن يلاحظ ان استبدال الحكومات الوثنية (في افريقية) بحكومة غربية (مسيحية) كان على العموم في مصلحة المشاريع التبشيرية . ولكن ازالة دولة وثنية كان يزيل عنصراً قوياً من عناصر مقاومة المسلمين ، فان الاسلام ينتشر بين الوثنيين في ظل الحكم الاوروبي اكثر مما ينتشر في ظل حكم وطني وثني خالص[2] .

*

ويرى المبشرون بوضوح ان السيادة الغربية في قطر اسلامي ما معناها تسهيل انتقال المسلمين الى النصرانية . اما فقدان هذه السيادة فينتج حركة عكسية تماما .

نشر المبشر كنيث لاتورت[3] مقالا في « المجلة الدولية للارساليات » عنوانه : « الجماعات النصرانية القديمة في آسية ومقامهم في خطط ما بعد الحرب[4] (العالمية الثانية) .

يقول الكاتب :

كيف ما اتفق لنا ان نفكر في الشرق الادنى وفي غربي آسية ، فان الكثرة من الصابئين قبل الحرب العالمية الثانية على يدي الارساليات البروتستانتية او الكاثوليكية كانت من ابناء الكنائس الشرقية . ومعنى هذا — ما لم تكن الولادات قد زادت على الوفيات — ان عدد النصارى في العالم لم يزدد . اما الانتقال من النصرانية الى الاسلام فقد كان — كما يظهر — اكثر من الانتقال من الاسلام الى النصرانية ... على ان ثمت تأثيراً مسيحيا كبيراً في حياة المسلمين وسلوكهم قد جاء على يدي هذه الارساليات نفسها ...

---

1) *Islam and Missions* **22.**
2) *ibid.* 189
3) Kenneth S. Latourette
4) The International Review of Missions : *Pre-War Christian Groups in Asia in Post-war Planning. Apr.* ' **44.** *pp.* 138-146

ولكن يجب ان نذكر على كل حال انه لم يحدث انتقال واسع من الاسلام الى النصرانية في قطر ما الا بعد ان تبدل ذلك القطر بحكومته الاسلامية حكومة غربية مسيحية، وذلك فقط اذا كانت هذه الحكومات الغربية المسيحية تنهج سياسة فعالة في مساعدة الارساليات .

ويأسف كنيث لا تورت لأن انتصار مبادىء الامم المتحدة في العالم سيزيد في جاه دول الشرق الاوسط وسيخرج بالتالي بلدان هذه البقعة المهمة من العالم من نطاق النفوذ التبشيري . وهو يُرَوّع بما حدث في تركية بعد الحرب العالمية الأولى ، فانها قد ضربت حولها نطاقاً دون التبشير . ثم يقول : ونحن واثقون من ان جهود المبشرين ستنقل افراداً معدودين الى النصرانية ، ولكن التنصير الجماعي لا يمكن ان ينتظر ...

ولا ريب في ان انسحاب بريطانية من الهند [1] سيقود — في رأي الكاتب المذكور — الى تبدل اساسي في مشروع التبشير في الهند نفسها . لقد كان الموظفون ، في اثناء الحكم البريطاني ، يؤخذون من النصارى بنسبة لا تتفق مع عددهم بالاضافة الى المسلمين او الهنود . ان النصارى سيفقدون بعد الآن هذا الامتياز، وربما دفعهم فقرهم حينئذ وقلة عددهم إلى ان يفقدوا أثرهم في المجتمع الهندي [2] .

*

ومنذ ايام محمد علي باشا ،في مطلع القرن التاسع عشر،طمع المبشرون بمصر لأن محمدعلي اراد ان يدخل المدنية الاوروبية الى مصر ، فطمح هؤلاء الى ان يتسللوا مع المدينة الغربية الى عقائد المسلمين. ويبدو ان المبشرين تمتعوا ببعض الحرية حتى جاء عباس الاول عام ١٨٤٨ وهو الذي نعته المبشرون بالقاسي لانه قاوم التبشير . اما سعيد باشا (١٨٥٤ — ١٨٦٣) فقد

---

١) خرجت الهند من الحكم البريطاني في آب ، عام ١٩٤٧ .

2) TIRM, Apr. '44, pp. 183 f., 141

نعته المبشرون بالعبقري لأنـه سمح للنفوذ الاوروبي ان يعود سائداً في وادي النيل [١]، مع ان عهد سعيد باشا كان عهد نقمة على مصر وعلى المصريين .

وجاء بعد سعيد باشا الخديوي اسماعيل فامدته اوروبة بالامـوال حتى اغرقته في الديون. ثم إنها اقتضته تلك الديون مرة واحدة فاستطاعت من هذه الطريق ان تشتري في سنة ١٨٧٥ اسهم الحكـومة المصرية في قناة السويس وان تتدخل في ادارة القناة عملياً . واخيراً انتهزت انكلـترة فرصة الثورة التي قادها عرابي باشا فضربت الإسكندرية وانزلت جيوشها الى البر المصري عام ١٨٨٢ . ومنذ ذلك الحين اصبحت مصر تحت الحماية الانكليزية فعلا ، وان كانت قد ظلت اسماً تابعة للسلطنة العثمانية [٢] .

وبعد اسماعيل جـاء توفيق واخذت مصر تنطوي رويداً رويداً تحت رقابة دولية ، او تحت حكم اوروبي على الاصح. وتنازعت انكلترة وفرنسة النفوذ على مصر زمناً ، ثم استطاعت انكلترة ان تنفرد بالسيطرة وحدها .

ومنذ احتلال انكلترة لمصر اصبحت مصر فعلا تحت سلطة انكلترة المسيحية [٣] . ولكن انكلترة كانت تحسب حساباً للشعور الاسلامي فلا تود ان تجرحه بالتظاهر بالتبشير حرصاً على مصالحها العسكرية والسياسية . اما المبشرون فـكانوا يريدون من انكلترة ان تعلن سياسة دينية عنيفـة في مصر [٤] ، بعد ان وجهوا هم جهودهم للتبشير بين المسلمين [٥] . ولقد اتهم بعض المبشرين اللورد كرومر ، المعتمد البريطاني في مصر ، بانه كان حليماً يحابي المسلمين [٦] ، مع انه كان يشجع التبشير بـين المسلمين ويحمي القسس الاجانب والمبشرين . قال شوقي يخاطب اللورد كرومر يوم رحيله عن مصر [٧] :

1) Addison 139 f.
2) Hayes, *op. cit.* 660 f.
3) Richter 78
4) *cf.* Richter 78, 351
5) Richter 360
6) Richter 78

٧) راجع ديوان شوقي ١ : ٢١٢

لو كنتُ من حمر الثياب [١] عبدتكم … من دون عيسى محسناً ومنيلا ،
او كنتُ قسيساً يهيم مبشراً … رتلت آية مدحكم ترتيلا .
من سب دين محمد فمحمدٌ … متمكنٌ عند الآله رسولا !

اراد المبشرون ان يكون كرومر صريحاً عنيفاً بطاشاً ، وكان هو ذا كيد خفي يتدخل شخصياً في التنصير . من ذلك ان طالباً في القدس صبأ من الاسلام الى النصرانية فطلبه ابوه ، فالتجأ الى اللورد كرومر في مصر .فاستكتبه اللورد كرومر وثيقة فيهاانه لا يريدأن يرجع مع ابيه ، ففعل [٢] . وهكذا كثر التبشير في مصر بعد سقوط اسماعيل ثم استطال واسبطر في عهد اللورد كرومر [٣] .

كيف دخل الانكليز الى السودان

على ان جهود السياسية في السودان كانت اكثر تضافراً على التبشير . جاء الجنرال غوردون حاكماً على السودان في اواخر ايام الخديوي اسماعيل باشا ، الذي خلع عن عرش مصر عام ١٨٧٩ . ومنذ ذلك الحين حثت الجمعيات التبشيرية رجالها على البدء بالتبشير الفعلي في السودان المصري [٤] .

ولكن بعد ثورة السودانيين على الانكليز وانهزام الانكليز ومقتل غوردون نفسه عام ١٨٨٥ خمدت حركة التبشير . ثم لما خفق العلم الانكليزي من جديد على السودان ، عام ١٨٩٨ ، عادت حمية المبشرين الى البروز واستعدت الجمعيات التبشيرية لتجعل من التبشير عملاً منظماً علنياً . الا ان اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر ظل الى عام ١٩٠٥ يحث

---

١) اي من الانكليز .

2) Gairdner 269 - 274 ; Richter 362.

3) Gairdner 256

4) Richter 367, *cf.* **366.**

المبشرين على التريث في اعلان حميتهم ، لأن ظهور المبشرين مسفرين عن وجوههم قد يضر بالسياسة البريطانية ضرراً بالغاً ، مع العلم بان كرومر نفسه كان يشجع التبشير [١] .

وبلغ من تدخل المبشرين في شؤون السودان ومن دالّتهم على المعتمدين البريطانيين في مصر انهم كانوا يبدون آراءهم في تعيين الموظفين في السودان . ولكنهم لم ينجحوا دائماً . لما نزلت انكلترة في السودان وارادت ان تديره اتت بموظفين مسلمين من الهند ومصر لهذه الغاية . ولكن المبشرين احتجوا على ذلك واقترحوا ان يكون هؤلاء الموظفين نصارى قد صبأوا من الاسلام على الاقل . الا ان انكلترة كانت تنظر بالفعل الى مصالحها هي قبل كل شيء فلم تصغ دائماً الى نصائح اولئك المبشرين [٢] .

على ان الجمعيات التبشيرية منذ عام ١٩٠٠ كانت قد اعدت عدتها وارسلت مبشريها الى السودان ليقوموا بالتبشير العلني فعلا . وكانت انكلترة تشجع المبشرين البروتستانت والكاثوليك على السواء في السودان [٣] ، ما دام المبشر يخدم الاستعمار ، وما دامت الدولة المستعمرة لا تهمها الناحية الدينية كعقيدة ولكن كوسيلة الى غايتها . ولقد كان التبشير في السودان المصري مهمةً صعبة ، وكانت النتائج مستحيلة . ولذلك وجه المبشرون جهودهم نحو جنوبي السودان حيث يكثر الوثنيون . حتى الوثنيون لم يكونوا يقبلون على المسيحية ، فكان عمل المبشرين من اجل ذلك قاصراً على منع انتشار الاسلام في تلك البقعة الفسيحة من افريقية [٤] .

ولما لم تستطع الجمعيات التبشيرية ان تخطو في التبشير خطى منتجة ، استعانت بالدول المستعمرة ، فاعانتها تلك الدول المستعمرة في اماكن متعددة كالبحرين [٥] واليمن . وبعد ان

---

1) *cf.* Richter 367 - 8 ; Milligan 26.
2) Gairdner 281.
3) *cf.* Milligan 29.
4) *cf.* Milligan 29.
5) Richter 276.

استولى الانكليز على عدن اتخذ المبشرون عدن مركزاً يرسلون منه نشراتهم التبشيرية الى قلب بلاد العرب او يخالطون القوافل ليبشروا في اهلها[١]. وكذلك فعل المبشرون في جزر الهند الشرقية، في جاوه وسومطرة وسواهما[٢].

اما الروسية القيصرية فكانت ذات اسلوب خاص بها مستمد من استبدادها. كانت الروسية في القرن التاسع عشر، وفي إبّان استبدادها، تحمل المسلمين من رعاياها على التنصر بقوة السيف. فلما اعلنت الحرية الدينيه في الروسية في الرابع عشر من نيسان عام ١٩٠٢ عاد خمسون ألفا الى الاسلام وحملوا معهم عدداً آخر ممن لم يكونوا مسلمين قط[٣].

واستطار المبشرون فرحا لما اصبح لبنان متصرفية بعد فتنة عام ١٨٦٠ واصبح حكامه من النصارى الاوروبيين. قال رشتر: ان مقاطعة لبنان لتغتبط منذ عام ١٨٦٢ بحاكم مسيحي وبحرية نسبية (للمبشرين). ثم لا يكتفي رشتر بهذا الفرح وهذا الاغتباط، بل يود ان توالي الدول الاجنبية تدخلها بالقوة كلما لزم الامر توسيعاً لحركة التبشير بين المسلمين خاصة.[٤]

ولم تكن نظرة رشتر خاطئة، فان المتصرفين (حكام لبنان بعد فتنة عام ١٨٦٠) كانوا يشجعون التبشير. زار وفد من المبشرين فيهم دانيال بلس «رئيس الكلية السورية الانجيلية في بيروت (الجامعة الاميركية اليوم)»، والدكتور ادي،ودنيس، وجسب وغيرهم متصرف جبل لبنان واصا باشا في الثامن والعشرين من شهر شباط عام ١٨٨٨، فقال لهم واصا باشا: «طمئنوا اصدقاءكم وحكومتكم (الاميركية) باني سأعمل ما في وسعي لحمايتكم وحماية عملكم». وكذلك كانت سياسة رستم باشا من قبل[٥].

---

1) Richter 273 f.
2) *Islam and Missions* 1
3) *ibid* 196
4) Richter 79
5) Jessup 532.

فرنسة خاصة

اما فرنسة خاصة فكانت تعتقد ان النفوذين الديني والسياسي في جبل لبنان احتكار لها دون سائر الدول . من اجل ذلك ساءها ان ترى المبشرين البروتستانت يتمتعون بحماية رسمية . وشاء المتصرف داوود باشا — وكان ارمنياً — ان يرضي فرنسة فمنع القسس الموارنة بالحرية لاستئصال شأفة البروتستانتية [1] .

وعلى هذا المنوال سارت الحال في جبل لبنان حتى نشبت الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ ، فرأت الدولة العثمانية في نظام المتصرفية خطراً على امبرطوريتها فألغته . وهكذا سكنت حركة التبشير لتنبعث بعد اربعة اعوام من جديد بقوة واتساع ، حينما احتل الانكليز والافرنسيون سورية وقلصوا ظل الدولة العثمانية عن شرقي البحر الابيض المتوسط كله .

على ان هذا الاحتلال الثنائي لم يطل كثيراً ، بل انسحب الانكليز الى جنوبي سورية (فلسطين وشرق الاردن) وظل الافرنسيون في الشمال (سورية ولبنان) . وهكذا صال المبشرون اليسوعيون في منطقة الانتداب الفرنسي صولة شديدة ثم جعلوا — بعد ان كانوا يلمحون — يصرحون ويلوحون . فمن اقوالهم :

لما فتحت الهدنة عام ١٩١٨ للمبشرين طريق سورية من جديد ، وطد اولئك المبشرون اقدامهم في حوران ، وفوضهم الاساقفة الكاثوليكيون بما كانوا قد اجبروا على تركه عام ١٩١٤ [2] .

واشد من ذلك تلويحا قولهم :

---

1) Jessup 250
2) *Les Jesuites en Syrie* 10 : 64

« ايها المبشرون ، هذه فرص لم تسنح لكم من قبل [1] » .

ولم تكن الدولة الافرنسية المنتدبة وحدها عوناً لليسوعيين على تنصير غير النصارى ، بل ان الحكومة المحلية — التي لم تكن الا وجهاً آخر لدولة الانتداب — كانت تساعد في ذلك . يقول اليسوعيون انفسهم [2] :

« من الامور المستجدة منذ الانتداب انتشار الامن المطلق تقريباً في البلاد اللبنانية . ان المبشرين القدماء ، كانوا يعملون دائماً إما في وجه حادثة مثيرة او على خوف من كمين بدوي او طلق ناري من مصدر مجهول ، او معرضين لقطاع الطريق . اما اليوم فلم يبق أثر للبنادق — فقد صادرها الفرنسيون . — ولقد دفع الذين حاولوا الاعتداء على المبشرين ثمناً غالياً » .

*

كان اليسوعيون يتبجحون بهذه الاقوال عام ١٩٣٠ ، حينما كان ظل الافرنسيين المخيم على بلادنا في أوجه ، وحينما كانت فرنسة تظن ان دولتها لن تدول . وهكذا كشفت فرنسة القناع عن وجهها في السياسة الاستعمارية : لقد ارادت الادارة الفرنسية ان تقوم بحركة تنصير واسعة في البلاد مستعينة باليسوعيين ، فاختارت بلاد العلويين حول اللاذقية .

يشهد اليسوعيون [3] ان فرنسة ارادت ، بعد عهد من الاستعباد والجهل غطى بلاد العلويين ، ان توجد للعلويين دستوراً محرراً (لانتزاع العلويين من الاسلام وادخالهم في النصرانية) ، على شرط ان يساعد هذا الدستور على تحقيق ذلك بلا ضجة . لذلك اصدر المسيو شوفلر ، جلاد بلاد العلويين ، مرسوماً بتاريخ ٢ ايار ١٩٣١ وتحت رقم ٢٩٠٨ يجعل الانتقال الى المذهب الكاثوليكي يجري في المحكمة العادية من غير حاجة الى الاجراءات المعقدة!

---

1) *ibid* 11 : 26.
2) *ibid* 10 : 66.
3) *Les Jesuites en Syrie* 10 : 37.

استفزاز وقلة ذوق

ولقد قام الافرنسيون خاصة في مناطق نفوذهم باعمال تبشيرية استعمارية كلها استفزاز وقلة ذوق . وكان التعاون بين فرنسة و بين اليسوعيين والبابا تعاوناً وثيقاً جداً .

من هـذه الاعمال حادث جنينة رسلان وقد مرت الاشارة اليه[١] وكيف ان اليسوعيين احتموا بحراب الافرنسيين وذهبوا الى بلاد العلويين — وهي بقعة من الجمهورية السورية — وحملوا نفراً من اهل البلاد على اعلان انتسابهم الى المذهب الكاثوليكي بالقوة[٢] .

على ان الضغط الافرنسي زال عن العلويين بعد زوال انتدابهم على سورية ولبنان عام ١٩٤٣ ، وتنفسنا نحن الصعداء .

ولما فقدت فرنسة نفوذها في الجمهورية السورية ، بعد ان عادت بلاد العلويين الى الوطن الام ، وجلت جنود الاحتلال عن البلاد كلها ، لم تنس فرنسة سياسة خلق المشاكل في البلاد فاثارت سليمان المرشد .

سليمان المرشد رجل اقطاعي شجعه الافرنسيون على ان يدعي الالوهية ، ولذلك تسمى بالرب واخـذ يعامل قومه العلويين على هذا الاساس . ثم تطوح فجعل ينهب و يسلب ويقتل حتى ألقت الحكومة السورية القبض عليه وادانته (بما ارتكبه من حوادث سلب وقتل) وشنقته : لقد اراد اليسوعيون ان يصنعوا إلها يوهن قوى الدولة السورية الناشئة ولكنهم جنوا على رجل ثم قادوه الى المشنقة . وهكذا ماتت بموت سليمان المرشد آمال اليسوعيين والافرنسيين في بلاد العلويين الى الابد .

ولقد استغل الافرنسيون الدين في جميع اشكاله، وساعدهم اليسوعيون خاصة على ذلك.

---

١) راجع صفحة ٤٧ وما بعدها .

2) *cf. Les Jesuites en Syrie* 10 : 35, 11 : 27.

في عـام ١٩٣٠ اراد البابا ان يقيم عيداً لمناسبة مرور الف سنة وستمائة سنة على موت القديس أغسطينوس. ولكنه اراد ان يكون لهذا العيـد طابعاً خاصاً ، فاختـار ان يدعوا الى مؤتمر افخار ستي [١] في مدينة قرطاجة (قرب تونس) ، لأن القديس اغسطينوس كان من البر بر ، ومن تلك الناحية .

ومع ان اقامــة هذا العيد من حق الكنيسة تقيمه متى شاءت ، فان اقترانه بانعقاد مؤتمر أفخارستي (مسيحي) في بلد كل اهله مسلمون يدل على كثير من قلة اللياقة . على ان تونس المستعبدة قد اجبرت يومذاك على قبول ذلك وعلى ان تدفع ايضاً من خزينتها الخالية مليونين من الفرنكات، يوم كان الفرنك لا يزال يساوي نحو قرش من الذهب ، وعلى ان تقبل بوضع الآسرة في المساجد ليرقد عليها الرهبان الذين جاءوا من اطراف الارض ليعلنوا حر باً صليبية جديدة في بـلد مسلم . ولمـا اراد بعض الشباب التونسيين ان يحتجوا على هذه الاعمال المنافية لكل ذوق، فوق ما فيها من تحدّ للشعور الديني والقومي والانساني ، لم تتورع فرنسة عن ان تقبض على هـؤلاء وتزجهم في السجون لتتيـح المؤتمر الافخارستي ان ينعقد بكـل صخب استعماري في جو من الهدوء [٢] .

هذا المقطع الناري ليس لنا نحن المؤلفين المسلمين العر بيين بل هو لرجل فرنسي مسيحي، كما ترى في الحاشية .

وما دمنا نتكلم على تونس في شمالي افر يقية فلنقل كلمة على الظهير البر بري [٣] .

في الوقت الذي كان المؤتمر الافخارستي ينعقد في تونس ، كانت فرنسة تقوم في مرا كش بعمل مماثل من حيث النتائج الدينية الاستعمار ية :

---

١) المقصود بالمؤتمر الافخارستي : اجتماع كاثوليكي عام يجتمع فيه الكهان والعوام وينصبون مذبحـاً بالعرا (خارج الكنائس) للقيام بالعبادة .

2) Jung 39 ss

3) *cf.* Jung 46 ss

في ١٥ ايار عـام ١٩٣٠ اجبرت فرنسة سلطان مراكش الشاب على ان يصدر ظهيراً (مرسوماً) ينص على ان يكـون للقبائل المراكشية التي هي من اصل بربري نظام قضائي خاص ، او على الاصح نظام شرعي خاص فـلا تسري عليهم قوانين الشرع الاسلامي بل قواعد العرف العشائري البربري .

وكان من الطبيعي ان يثور المراكشيون كلهم على ذلك ، فمشى العرب والبربر وسكان المدن وسكان القرى والبوادي على السواء مِشية الرجل الواحد احتجاجاً على هذا الافتراء وعلى هذا التفريق في الشرع بين المسلمين انفسهم .

ان للمظالم التي ترتكبها فرنسة في المغرب باسم الحرية لهي اكثر من ان تذكر . ثم هي تستوحي الفاتيكان (مقر بابا رومية) سياستها الدينية لتثبت بها اقدامها في مستعمراتها . وهذا يقضي عليها بان تعاضد الرهبان والمبشرين في حملتهم على كل بلد مستقل وعلى المسلمين خصوصاً .

وهكذا نرى بكل وضوح ان الارساليات الدينية كانت دائماً ستاراً لتغلغل الاستعمار في الشرق، يخبرنا المبشر هنري جسب [1] ان المبشرين استغلوا جهودهم لخدمة دولهم واذكوا نار العداوة في الذين كانوا يبشرون بينهم، فقد كان القائمقام الماروني في لبنان الامير حيدر ابي اللمع يضم جهوده الى جهود البطريرك الماروني والقنصل الفرنسي العام لوضع لبنـان تحت نفـوذ الاكليروس (رجـال الدين المسيحي) للوصول الى جعـل جميع الكاثوليك في سورية تحت نفوذ فرنسة . وكان عمل الامـير حيدر يصدر على ما يظهـر عن اقتناع ، حتى انه اعلـن ان فرنسا ستحتل يوماً ما لبنان بجيشها [1] .

ولقد كتب المبشر هنري جسب هذه الجملة في كتابه المطبوع عام ١٩١٠ قبل ان تحتل فرنسة لبنان بثماني سنوات .

---

1) Jessup 160 - 164

والفتن التي اثارها الاستعمار باسم الدين في بلاد العرب خاصة كثيرة جداً ، منها فوق ما تقدم ، ثورة التياريين في العراق ، او ثورة الاشوريين .

الاثوريون او الاشوريون طائفة مسيحية تعيش في شمالي العراق . ولكن المؤرخ المدقق السيد عبدالرزاق الحسني يرى ان هؤلاء على الرغم من انهم يعرفون باسم « الاشوريين » فانهم لا صلة لهم بالاشوريين الذين سكنوا العراق قبل الميلاد ، بل هم طائفة غريبة دخيلة حاك لها المستعمر هذه الاسطورة [١] وخلع عليها هذه التسمية .

ولقد تمرد الاشوريون على الدولة العثمانية قبل الحرب العالمية الاولى باثارة الروسية لهم ، فادبتهم الدولة العثمانية واخرجتهم من بلادها . ولكن ما كادت الحرب العالمية الاولى تنشب، حتى تطوع عشرون الفاً منهم في الجيش الانكليزي .

« ولما اندلع لهيب الثورة العراقية الكبرى في صيف ١٩٢٠ وقام العراقيون ينادون باستقلال بلادهم ، كان التياريون (الاشوريون) يقاتلون ابناء البلاد في صفوف الانكليز قتالا مستميتاً و ينتقمون من المسلمين انتقاماً صارماً لامبرر له ولا سبب» [٢] ، وكانوا يتجسسون للعدو على وطنهم [٣] . والسيد عبد الرزاق الحسني على حق حينما ذكر ان الانكليز ارادوا من اسكان التياريين (الاشوريين) في العراق وضع اقلية مسيحية يستغلونها في مقاومة تركية المسلمة و يهددون بها استقلال القطر العراقي الناشىء [٤] . ولقد وافقه على ذلك س.م موريسون ، فحمّل تبعة ثورة الاشوريين على عاتق عصبة الامم او على عاتق الحكومة البريطانية [٥] . ولقد استطاع العراق ان يقضي على كل امل لهؤلاء التياريين بانشاء دولة في شمالي العراق او

---

١) تاريخ الوزارات العراقية ٣ : ١٤٤

٢) « « « ٣ : ١٤٥

٣) « العراق السياسي الحديث ٣ : ٢٩٤

٤) راجع تاريخ الوزارات العراقية ٣ : ١٤٥ وما بعد

5) MW, Apr. '35, 128.

« وطن قومي » . ولم تكن انكلترة تريد من اسكان الاشوريين في العراق الا ما ارادت من اسكان اليهود في فلسطين . ولما لم تستطع انكلترة ان تخلق بالاشوريين قلاقل ذات اهمية في العراق اعارتهم للافرنسيين الذين نقلوهم الى سورية ولبنان ليكونوا مصدر قلق لسورية كما كانوا للعراق [1] .

ما اشد ضرر هذه الاقليات الطائفية التي تعير نفسها المستعمر ليستعين بها على خلق القلاقل في الوطن الام ، فاين الدعاوى العِراض بالوطنية والقومية !

التوظيف والطائفية

ان المستعمر اذا نزل بلداً اتخذ اعوانه من الاقليات المتوطنة او الطارئة . ولقد اشار علامتنا ابن خلدون الى هذه الناحية فعقد لها فصلين قصيرين في مقدمته المشهورة ، فذكر ان صاحب الدولة اذا خشي من اهل الدولة الانتقاض عليه مال «الى اولياء آخرين من غير جلدتهم يستظهر بهم عليهم ... ويخصهم (اي هؤلاء الاولياء المستجدين) بمزيد التكرمة والايثار ... ويقلدهم جليل الاعمال والولايات والوزارات والقيادة والجباية» [2] .

وكذلك فعل المستعمرون عند نزولهم ببلاد الشرق الاسلامي هذا الفعل فاستخلصوا الارمن والاشوريين والمهاجرين من اليهود والروس واليونان والافرنج ليقاوموا بهم العرب . وما كنا نحن لنعقد هذا الفصل القصير هنا لولا ان المجلة التبشيرية « العالم الاسلامي » قد ذكرته مع قلب للحقائق فاضح .

قال س.م موريسون في مقال نشره في مجلة العالم الاسلامي عنوانه « الحربة الدينية في العراق » [3] :

---

١) تاريخ الوزارات العراقية ٣ : ١٨٠

٢) مقدمة ابن خلدون ، بيروت الطبعة الثالثة ١٨٣ - ١٨٥

MW. Apr. '35, p. 123

« فاذا تجاوزنا الاشوريين ، وهم في كثير من احوالهم ذوو صبغة خاصة في العراق ، لم نلحظ اشارة ما الى ان الحكومة العراقية تدفع الاقليات الدينية عن حقوقهم ... هذا على الاقل هو الموقف الرسمي للحكومة . اما في الواقع فانه اذا عرض للحكومة ان تختار بين المتقدمين الى المنافع ، فان المسلم يكون حينئذ اعظم حظاً من غير المسلم . فالمسلم مثلا هو المفضل على النصراني واليهودي عند ارسال البعثات العلمية الى الخارج او عند التعيين في مناصب الدولة . و بما ان العراق دولة اسلامية فلعل هذا هو الامر الطبيعي » .

لقد اخطأ موريسون من ناحية ، ثم فسح لنا مجال القول من ناحية اخرى . اننا في الدرجة الاولى اذا استعرضنا الموظفين في العراق رأينا ان غير المسلمين يتمتعون بعدد من المناصب لا يتفق مع نسبتهم في الاحصاء . اما مجال القول فهو ان الانكليز والأفرنسيين قد ملأوا مراكز البلاد الاسلامية التي يستعمرونها — عملياً او نظرياً — بغير المسلمين . اما الشركات الاجنبية في البلاد الاسلامية ، فقل ان تأخذ مسلماً ، واذا اخذته فللمناصب الثانوية فقط . حتى لبنان — ذلك القطر العربي المستقل — فان اعظم مفاتيح مناصبه في ايدي غير المسلمين — تساهلا من المسلمين في سبيل حفظ الوحدة القومية ، ولأن لبنان كما يرى الكثيرون ذو وضع خاص — وجميع منافعه الاقتصادية موجهة الى غير المسلمين . وليس هنا مجال التوسع في هذه الناحية لأن كتابنا هذا ليس خاصاً بلبنان .

والمستعمر لا يود بكل تأكيد ان يتفق اهل الاقليات مع الأكثرية المسلمة في الشرق . ان لويس ماسينيون المستشرق الافرنسي ، والموظف المعروف في وزارة الخارجية الافرنسية بقسم الشؤون الشرقية يقول : « والقبط النصارى (في مصر) — وقد فهموا واجبهم الاول كنصارى قوميين عرب ، وعزموا على ألا يلعبوا لعبة مزدوجة وعلى ألا يتوسلوا الى حماية الدول الأوروبية — اخذوا يفاوضون في هذه الفترة (الانتخابية) حتى الاخوان المسلمين ... »[1] .

---

1) L'Islam et l'occident 16.

ومع ان ظاهر هذه الجملة لا ينكشف صراحة عن نية مستعمرة ، فان التهكم والتألم ملموحان فيها بوضوح . وكذلك يستغرب المسيو ماسينيون نفسه اتجاه بلاد الشرق الادنى نحو توحيد برامج التعليم ، وخصوصاً في تعليم التاريخ الاسلامي الذي يربط هذه البلاد برباط واحد [١].

ان هذا التقارب المعقول بين الاكثرية المسلمة في الشرق وبين الاقليات غير المسلمة لم يخفه المبشرون الكاثوليك فقط ، بل خاف منه البروتستانت ايضاً . ان الحواجز المذهبية العمياء قد زالت بين المسلمين والاقباط في مصر فاصبحوا جميعاً اخواناً في الوطنية وقطعوا على المستعمر سبيلا من اوسع السبل الى تغلغل الاستعمار . على ان المبشرين البروتستانت ، لما يئسوا من استغلال الاقباط سياسياً ودينياً ، اكتفوا بان يحاولوا استغلال جهود هؤلاء الاقباط ، بعد ان اطمأن المسلمون الى اخلاصهم القومي ، في التبشير بين اخوانهم المسلمين [٢] . ولكننا لا نعلم الى اي حد نجحوا .

والى زمن قريب كانت كل دولة تكتفي بجهود مبشريها هي فقط في سبيل بلوغ اغراضها السياسية . الا ان هذه الدول جعلت اخيراً تتعاون تعاوناً وثيقاً فيما بينها في هذا السبيل ، ما دام الشكل الديني ليس الا واسطة لبسط النفوذ السياسي .

في الرابع من نيسان عام ١٩٢٤ وقعت الولايات المتحدة وفرنسة اتفاقاً [٣] تأخر اعلانه الى ١٣ آب من العام نفسه . وقد جاء في هذا الاتفاق ما يلي [٤] :

المادة العاشرة — ان اشراف الدولة المنتدبة (فرنسة) على الارساليات الدينية في سورية ولبنان يجب ان يقتصر على حفظ الامن والادارة الحسنة [٥] . ان اوجه نشاط هذه

---

1) *ibid* 16 s.

2) Milligan 63 ff.

٣) سلسلة المعاهدات رقم ٦٩٥

4) Penrose 313

٥) في الاصل : good governmen

هذه الارساليات الدينية يجب الا تخضع لتدبير يضيق مجال عملها ، ولا ان يخضع اعضاء هـذه الارساليات لتدبير يضيق مجال عملهم بسبب اختلاف جنسيتهم ، على شرط ان تنحصر اوجه هذا النشاط في حقل الدين .

هذه المـادة تنص بوضوح على تعاون فرنسة والولايات المتحدة — وغيرها من الدول الاوروبية — على التبشير في سورية ولبنان . فالدول الغربية كلها ، اذن ، ترى ان التبشير ذو فائدة لها حتى تعقد في سبيله المعاهدات .

هذه المعاهدة الغربية في تاريخ الدول المتمدينة ظلت نافذة حتى عام ١٩٤٣ في الجمهوريتين السورية واللبنانية معاً — لخضوع تينك الجمهوريتين يومـذاك لانتداب فرنسي واحد — . ولـكن لما استقلت الجمهوريـة السورية لم تجد من الـكرامة ان تبقى هذه المعاهدة ذات واقع قانوني فألغتها . ولمـا احتجت الدولة التي يعنيها الامر عناية شديدة وقالت ان « الحرية والديموقراطية » يجب ان تكون مكفولتين ، وان للانسان ملء الحق بنشر الدين الذي يريده واعتناق المذهب الذي يرضاه ، كان الجواب العاقل يومذاك ما يلي :

« ان الجمهورية السورية لا تقيد حرية احد في الدعوة الى مذهب ديني ، ولكنها ترى ان هذه الحرية يجب ان تتساوى بين الداعي والمدعو ، فلمبشر بروتستانتي مثلا ان يناظر فقيها مسلماً . ولرجل كاثوليكي ان يخاطب رجلا مسلماً . اما ان يترك الاطفال البرءاء في صفوف المدارس الابتدائية تحت رحمة المبشرين فهذا يتنافى مع ابسط قواعد الحرية . وهكذا اغلقت الجمهورية السورية عقول الذين لا يزالون قاصرين دون مكائد المبشرين ، لما وضعت للمعارف قوانين تحفظ كرامـة البلد المستقل . ان المدارس الاجنبيـة — والافرنسية منها خاصة — كانت في ايام الانتداب تتمشى على نظام منافٍ كل المنافاة لروح الاستقلال .

كل هذا كان واضحاً في الجمهورية السورية فسنت الحـكومة قوانين سيطرت فيهـا

على التعليم الخاص ايضاً وحالت بين مقاعد الدراسة وبين النفوذ السياسي[١].

فلما فقدت مدارس المبشرين خاصة نفوذها على الطالب الابتدائي ثارت ثائرتها وراحت تقذف الحكومة السورية بوابل من شتائمها. وبما اننا لا نحذق هذا النوع من الشتائم لا ابتداءً وتفصيلاً ولا تقليداً وتلخيصاً، فاننا سنترك اليسوعيين انفسهم يتكلمون بلغتهم.

في بيروت مجلة تصدر عند الحاجة الى التفرقة الدينية، هي مجلة «الشراع». وهي، كما يقول اصحابها على الصفحة الثانية من غلافها: جريدة يومية سياسية دينية جامعة تصدر موقتاً اسبوعياً، ثم هي لسان حال الكثلكة ورؤسائها في الشرق، صاحبها ومديرها العام الخوري انطون قرطباوي، ويشرف على سياستها الرئيس الفرد نقاش احد رؤوساء الجمهورية اللبنانية السابقين، ورئيس التحرير فيها انطوان نعيمة.

هذه المجلة يصدرها اليسوعيون، وهي تتكلم بلسانهم وتحت اشرافهم على الاقل، وقد قالت لمناسبة حيلولة الحكومة السورية بين اليسوعيين وبين الطلاب الابتدائيين، ثم بينهم وبين عامة الشعب في بلاد العلويين ما يلي[٢] (والرجاء التنبه الى النقط والفواصل):

« اما في بلاد العلويين فاننا، حتى الساعة، لم ندرك الاسباب التي تخول اولياء الامر في سورية، الشقيقة العزيزة، على ان ينظروا الى الرسالة الكاثوليكية نظرهم الى مؤسسة غير مرغوب فيها، وعلى ان يعاملوا القائمين والقائمات بها معاملة اعداء الوطن السوري.

ماذا طلبت الحكومة السورية من ارباب هذه الرسالة في الحقل الوطني يرتاح اليه الضمير المسيحي ولم يتموه؟ (لاحظ الشرط: يرتاح اليه ... الخ) فلماذا اذن هذه المعاملة

---

١) راجع تقارير عن احوال المعارف في سورية خلال سنة ١٩٤٥، وضعها ساطع الحصري (دمشق ١٩٤٦)، ص ٦٩ وما بعدها.

٢) الشراع (بيروت) السنة الاولى، العدد ٣٦، الاحد ٢٨ تشرين الثاني ١٩٤٨، ص ٢١

الخشنة بل الهمجية (كذا) تعامل بها بنات عذارى (اي الراهبات) لا هم لهن الا ان يعلمن و يثقفن و يرقين صغار العلويين ؟ ما الذي خول الجنود السوريين ان يدخلوا بيت الراهبات وهم شاكون السلاح ويتهددوهن بكلام فظ و يجروهن الى السجون ؟ أية جريمة ضد الوطن ارتكبتها هؤلاء العذارى الحييات حتى يُروعن بمثل ما روّعن في المدة الاخيرة ؟ اهكذا كان الجدود العرب يعاملون النساء المحصنات ، ألا نظرة الى تاريخكم ، ايها الاخوان السوريون ! اين الشهامة العربية واين النبالة التي تتغذون بها ؟ كنا ظننا في بادىء الامر ان ليس لهذه المعاملة صفة رسمية بل هي من عند اشخاص الحكومة المحلية من ادارية وعسكرية راموا من ورائها ان يظهروا بمظهر الغيرة على وطنهم واهمين انهم بذلك يرضون رؤساءهم ؟ فخاب الآن ظننا بعد ان رشح الينا من مصدر يوثق بصدقه ان هؤلاء يتلقون اوامر صريحة من علُ : من وزارة الداخلية السورية ، فهالنا الامر وجئنا نسأل الداخلية السورية باسم الدستور السوري الذي يضمن حرية الفكر والقول والعقيدة لمَ هذه المخالفة للدستور ؟

لقد نادى رجال الحكم في سورية بان ليس في سورية اكثرية واقلية بل ان سورية هي للسوريين على اختلاف اديانهم ومذاهبهم ! فلِمَ تُكذّب الاقوال بالاعمال ولِمَ يستخف بنصوص الدستور بدون حياء ؟

أهذا هو الوقت الموافق لمثل هذه الافعال الجائرة تنزل بقوم عزّل و بعذارى وديعات ؟ بمثل هذا التصرف تجمع القلوب و ينشد الاخاء ؟ اننا عالمون بالنيات المبيتة . والوقائع شاهدة .

فهناك ضغط وتهديد واغراء لحمل بعض العلويين على ان يغيروا معتقدهم . .

وسنعني في اجزائنا الآتية بتفصيل ذلك لنطلع القراء على الطريقة التي يستخدمها ارباب الحكم السوريون في تطبيق دستورهم وننبه الرأي العام الى الكذب السياسي الذي يموهون به عليه.

لقد روجعت الحكومة المحلية في بلاد العلويين وروجعت وزارة الداخلية بامر هذه الاعتداءات فكان في الاجوبة ابهام ، وكان فيها مراوغة وكان فيها تنصل من التبعات فجئنا

اليوم نستصرخ عـــدالة فخامة السوري الأول شكري بك القوتلي الذي نكن له كل احترام وتقدير واجـلال فمن فخامتة ننتظر ان يضع حداً لـكل هذه الامور المستهجنة المنافية للدستور ولروح فخامته الديموقراطية والمناقضة لما عرف به وعنه من تعشق للحرية وحب لرعاياه ، لجميع رعاياه . ففي كلمـة فخامته الفصل بيننا و بين الحـكومة السورية قبل ان نقدم على ما عزمنا عليه من تبيان وشرح لكل ما لدينا من وقائع ومستندات تثبت الظلم والجور اللذين عوملت بهما رسالتنا الـكاثوليكية في بلاد العلويين »[١].

*

على ان المعاهدة التي ألغيت في الجمهورية السورية ونسخت قـولا وعملا لا تزال مع الاسف نافذة في لبنان . وقد سألنا شخصياً عن ذلك ، فاذا وزارة الخارجية اللبنانية تقول بان المعاهدة موجودة من زمـــن وانها صحيحة . فلما احببنا ان نعرف اذا كانت هذه المعاهـدة التبشيرية قد ألغيت في لبنان كما ألغيت في الجمهورية السورية كان الجواب : « لا نعم » ، مـع اننا كنا ، يوم سألنا هذا الـسؤال ، على خطوات من المستندات المحفوظة .

---

١) ان هذا العدد من مجلة الشراع قد وزع ، مع اعداد اخرى من هذه المجلة ، على اعضاء الوفود المختلفة الى المؤتمر الثالث لمنظمة الاونسكو الذي انعقد في بيروت ١٩٤٨ . ولقد وزعه مكتب المطبوعات المذكور مع الوثائق الرسمية والدعوات التي كانت توزع يومياً على الاعضاء .

الفصل الثامن

السياسة طريق التبشير

---

(٤) الحياة القومية والاقتصادية

الدعوات الاقليمية والصهيونية

●

لم يكتف الاجانب بالنزول في الشرق واستغلال خيراتـــه واحتلال مواقعه الحربية وبالتصرف في مناصبــه ووظائفه كما تملي عليهم مصالحهم هم وكما يريد هواهم. بل انهم ارادوا ان يضمنوا مستقبلهم فيه وان يحولوا دون كل تنبه ويقظة في المستقبل. ولذلك عزموا على ان يفسدوا حيـاة الشرق القومية والاقتصادية ويفككوا عرى وحدتــه الوطنية ويخمدوا جذوتــه الروحية حتى يصبح الشرق بين ارجلهم اشلاءً لا تستطيع حراكا.

ولقـد استعانت الدول الاجنبية على ذلـك في الشرق بالرهبان السود (اليسوعيين) وبخلق الحركات الشعوبية كالفرعونية والاشوريـة، ثم باليهود والصهيونيـة.

حذار اليسوعيين

ان البلاد الشرقيـة يجب ان تتبصر وتحـذر الآباء اليسوعيين خاصـة، فانهم لا يألون جهـداً في التدخل في السياسـة المحليـة وحبك المؤامرات [1] حتى ان البابا نفسه قـد غضب عليهم مرات كثيرة من جراء ما جروه من الفساد واحدثوه من القلاقل السياسية [2].

---

1) Enc. Br. xv, 345 c, d.
2) *ibid.* 345 f.

ولقد فطنت الدول الغربية كلها الى دسائس اليسوعيين ومضارهم فاخرجتهم حكومة البرتغال من بلادها ومن مستعمراتها عام ١٧٥٧ . ثم انهم طردوا من فرنسة عام ١٧٦٥ وعام ١٧٦٧ ، ومن اسبانية عام ١٧٦٧ ايضاً . وكان قد بقي في فرنسة نفر من اليسوعيين باسم رهبان القلب الاقدس ، ولكن نابليون اخرجهم منها عام ١٨٠٤ . ولما تكاثر اليسوعيون في اوروبة عادت فرنسه فطردتهم عام ١٨٨٠ وعام ١٩٠١ . وكذلك عادت اسبانيه ايضاً فطردتهم عام ١٨٢٠ . ثم اخرجتهم نهائياً عام ١٨٣٥ . وكذلك عادت البرتغال الى طردهم عام ١٨٣٤ . ولقد قضت الروسية سبع سنوات ، من عام ١٨١٣ الى عام ١٨٢٠ ، حتى استطاعت اخراجهم من جميع انحاء بلادها .

وكذلك فعلت هولندة وسويسرة والمانيه في الاعوام ١٨١٦ و ١٨٤٨ و ١٨٧٢ على التوالي [1] .

ولم يكتف اليسوعيون بافساد السياسة ، بل عملوا على اضعاف الحياة الاقتصادية العامة جراً لمنفعتهم هم ، فان تاجراً يسوعياً يدعى لافالت [2] كان في المارتينيك ، من جزائر الهند الغربية ، فأفلس على مليونين ونصف مليون من الفرنكات الذهب . وهكذا جر الخراب على بيوت تجارية شهيرة [3] .

فعسى ان يستفيد العرب والمسلمون من هذا الاختبار المر الذي لقيه العالم المسيحي نفسه على ايدي اليسوعيين .

الحروب والتبشير

والحروب تؤثر في كل شيء تقريباً ، وتؤثر في الاديان ايضاً . ولقد زعم نفر من

1) *ibid* 345 ff.
2) Lavalette
3) Enc. Br. xv 345

المبشرين ان الحرب العالمية دلت انه ما من ديانة تستطيع ان تنقذ العالم الا النصرانية . ان هذا يوجب على المبشرين النصارى ان يضطلعوا بتبعات عظيمة [1] . لقد قالوا ذلك قدماً في عضد اهل الشرق وايحاء لهم بعنصر النقص ، وتزييناً للمدنية الغربية التي ارادوا ان يخضعوا الشرق بها توصلا الى استعماره .

على ان هؤلاء مخطئون، فان الحرب العالمية الاولى قد اعلنت فيما اعلنته اندحار المانية والنمسة وهما دولتان مسيحيتان ، واعلنت نصر اليابان وهي دولة غير مسيحية . ثم جاءت الحرب العالمية الثانية فاعلنت انهزام المانية وهي مسيحية وانتصار الروسية وهي دولة لا دينية . اضف الى هذا كله ان الدول المسيحية التي اتفق لها ان انتصرت في الحربين لم تنتصر بالمبادىء المسيحية التي بشّر بها المسيح ليصح لها ان تدعي ان المسيحية عامل من عوامل النصر في الحروب.

ومع ان هؤلاء المبشرين يرون ان الاسلام قد تجلى منذ مطلع القرن العشرين قوياً في مظاهر مختلفة ، منها انتشار الاسلام الواسع في افريقية وفي حركة الوحدة الاسلامية قبل الحرب العالمية الاولى ، ثم قيام المملكة الحجازية ، فانه قد تبدى لهم ضعيفاً في خيبة الجهاد الذي اعلنه ملوك المسلمين في الحرب العالمية الاولى وفي الغاء الخلافة في تركية [2] .

وهكذا تجد ان ثمت اتجاها واسعا في الغرب لتفسير كل شيء على اساس ديني ، وعلى اساس ديني معاد للاسلام ، بعيد عن العلم كل البعد ، حتى في وضع المبادىء العلمية ، او التي يدّعون انها علمية .

التعاون بين التبشير والسياسة

كانت السياسة الأستعمارية تلجأ الى كل وسيلة لخدمة مآربها . ولقد استغلت فيما

1) *Missionary Outlook*
2) *ibid* 64 - 6.

استغله رجال الدين الوطنيين في بلاد الشرق والاجانب الطارئين على الشرق . وقد يكون ثمت دولة علمانية كفرنسة تقاوم الدين والجماعات الدينية في بلادها ثم تشجع هذه الجماعات وتساعدها في الخاوج .

بعد انتشار الاسلام في الشرق اصبحت الكنائس النصرانية قليلة منثورة كأنها جزر صغار في بحر متسع الاكناف . وكانت هذه الكنائس على قلتها ايضا متعاديه متخاصمة [١]، لا سبيل الى تعاونها في حقل من الحقول . حتى انها كانت تستعمل في صلواتها وفي تخاطبها لغات مختلفة كالعربية والسريانية واليونانية . ومع الأيام بدأ هذا السوء يزداد ثم تبعه انحطاط اخلاقي واقتصادي وعلمي في الكنائس والاديرة على السواء ، حتى بعد ان تصرم الربع الاول من القرن التاسع عشر . ففي عام ١٨٢١ كان مائة وثمانون قسيساً ارثوذكسيا في القدس لم يكن فيهم سوى عشرة فقط على شيء ما من التثقيف اللاهوتي (الديني) [٢] .

وكان اول ما فكر فيه المبشرون اصلاحُ هذه الكنائس المختلفة من الداخل ليستطيعوا ان يستعينوا بها في آخر الامر على التبشير بين المسلمين انفسهم [٣] . من اجل ذلك شعر البروتستانت مثلا بان جهودهم يجب ان تنصرف أولاً الى التبشير بين اتباع الكنائس الشرقية (الارثوذكسية) [٤] . وعلى هذا نرى ان البروتستانت لما نزلوا في سورية ولبنان استمالوا اول ما استمالوا نفراً من الارثوذكس وخصوصاً من ابناء ضهور الشوير وابناء الكورة و بعض ابناء فلسطين .

الا ان تعرض البروتستانت للتبشير بين الارثوذكس خاصة و بين الكاثوليك قليلا لم تمر بسلام . إن العداوة سرعان ما نشبت بين المبشرين البروتستانت و بين الكنيسة

1) Gairdner 276
2) Richter 63 f.
3) Gairdner 277.
4) Richter 66.

الكاثوليكية التي كانت هي ايضاً تود ان ترد الخراف الضالة الى حظيرتها [1]. اضف الى ذلك ان الكنيسة الارثوذكسية وقفت من البروتستانت موقف الدفاع عن النفس حينما رأت اتباعها يتهالكون على المنافع الدنيوية التي كان البروتستانت الاميركيون على الاخص يلوحون بها امام العيون. وهكذا استحكم الخلاف بين البروتستانت وبين الارثوذكس والكاثوليك ايضاً [2].

ولكن سرعان ما تذكرت الدول الاجنبية انها لم تأت للتبشير حتى تختلف على نتائجه. انها جاءت للسيطرة السياسية، وما التبشير سوى وسيلة الى هذه الغاية. فليس من الحكمة اذن ان تنسى غايتها وتتنازع على الوسيلة. وهكذا قال جسب: يجب الا يكون ثمت نعوت مثل هذه: اميركي، انكليزي، اسكوتلندي او الماني، تنعت اعمالنا التي نقوم بها في سبيل (المسيح). ان الخصم المشترك متحد في مقاومتنا ... فليكن اسمنا « نصارى » [3]. وعلى هذا الاساس من التفاهم بدأت الدول الاجنبيه تقسم مناطق النفوذ في الشرق ثم تقذف فيها بمبشريها ليشقوا لها الطرق الى الاستعمار.

لما عقد المبشرون مؤتمر لكناو (الهند) عام ١٩١١، اخذوا يدرسون الأحوال السياسية في العالم الاسلامي. فلما وجدوا ان هذه الاحوال على شيء من الاضطراب قال احدهم زويمر: ان الانقسام السياسي الحاضر في العالم الأسلامي دليل بالغ على عمل يد الله في التاريخ واستثارة للديانة المسيحية (لكي تقوم بعمل)، اذ ان ذلك يشير الى كثرة الابواب التي اصبحت مفتحة في العالم الاسلامي على مصاريعها. ان ثلاثة ارباع العالم الاسلامي يجب ان تعتبر الآن سهلة الاقتحام على الأرساليات التبشيرية. إن في الامبرطورية العثمانية اليوم وفي غربي شبه

---

١) تعيد الذين تركوا الكاثوليكية الى الكاثوليكية ثانية.

2) *cf.* Richter 67 - 80

3) Jessup 229.

جزيرة العرب وفي ايران والتركستان والافغان وطرابلس الغرب ومراكش سدوداً في وجه التبشير ، ولكنّ هنالك مائة واربعين مليوناً من المسلمين في الهند وجاوة والصين ومصر وتونس والجزائر يمكن ان يصل اليهم التبشير المسيحي بشيء من السهولة [١] .

ولا يخفي المبشرون نياتهم الحقيقية ، فقد قال جسب [٢] : من العناية الالهية العظيمة ان المطبعة الاميركية والمدارس الاميركية في سورية كانت وسيلة لاعداد رجال ونساء كثار ليكونوا مواطنين اميركيين . اما انكلترة التي كانت دائماً تريد الاحتفاظ بقناة السويس لأنها طريق الامبرطورية البريطانية الى الهند واسترالية والصين [٣] ، فقد توسلت الى تثبيت نفوذها برجال الدين من قومها . من ذلك مثلا انها عهدت الى القسيس روبسون ، وهو من الارسالية المشيخية الايرلندية [٤] ، بان يثقف ابني سعيد بك جنبلاط (احد رجال الاقطاع الكبار من الدروز في لبنان) على نفقتها ، وعدت ذلك ضمانا لجعل الدروز في المستقبل اكثر هدوءاً نحوها [٥] .

وكانت ايطالية ترمي الى بلوغ اغراض سياسية في الشرق فزرعت البلاد بمدارس دينية ، مع انها كانت قد صادرت اموال الاديرة في ايطالية نفسها [٦] . وكذلك فعلت الروسية حتى استطاعت هي ايضا ان تنفذ الى الامبرطورية العثمانية المتداعية الاركان [٧] .

على ان اكثر الدول الاوروبية نشاطا تبشيريا سياسيا في سوريه ولبنان خاصة كانت فرنسة ، فرنسة التي كانت تطرد الرهبان من ارضها ثم تحتضنهم في الخارج ليحققوا لها شهواتها الاستعمارية [٨] .

---

1) *cf. Islam and Missions* 22.
2) Jessup 756.
3) *ibid* 748.
4) *Irish Presbyterian Mission.*
5) Jessup 267.
6) Richter 226 ; Jessup 680 etc.
7) Richter 226 f.
8) *ibid* 226.

واعتقدت فرنسة ان اللغة هي التي توجه الثقافة، ولذلك انفقت على مدارسها وعلى المدارس التي تعلم اللغة الافرنسية بسخاء[١] . ولم يضع اليسوعيون خاصة هـذه الفرصة فوضعوا مدارسهم رهن الدعاية لفرنسة . لقـد اخذوا على عاتقهم ان يحببوا الانتداب الى النفوس وان يجمعوا السكان المتنابذين على حب فرنسة بواسطة الدين الكاثوليكي[٢] . واليسوعيون يفاخرون بهذا ، فقد قـالوا ان قسماً كبيراً من نشر الآراء المدنة المستمدة من العالم المسيحي والفرنسي يعود الفضل فيه الى ارسالياتهم . وان فرنسة مدينة لهم بالمكانة التي تمثلها اليوم (اي عام ١٩٣١) في سورية[٣] (ولبنان) .

ولقد اتصل نفوذ فرنسة في سورية باسوأ انواع المكائد اليسوعية[٤] . حتى العلم ، لقد سخره اليسوعيون في سبيل فرنسة بالباطل وبالحق الذي يراد به الباطل . ويقول اليسوعيون ان مدرسة الهندسة الفرنسية في بيروت قد استمرت في اداء ما اخذته على عاتقها ، فانها استطاعت ان تساهم في رسالـة فرنسة المدنة[٥] . وما يقال عن مدرسة الهندسة يقال عن مدرسة الطب . يقول اليسوعيون ان دارس الطب بالفرنسيه يحتاج الى اتقان اللغة الفرنسية، ثم هو يصف الأدوية الفرنسية ، يقـرأ الكتب والمجلات الفرنسية ثم يذهب الى التخصص في فرنسة[٦] . وكلية الطب والصيدلية الفرنسية مؤسسة يسوعية ، ولكنها ليست مؤسسة حرة بمعنى انها تعتمد في ميزانيتها على دخلهـا الخاص ، بل ان رئيسها واساتذتها يتناولون راتباً من حساب وزارة الخارجية الفرنسية[٧] .

1) *ibid* 226.
2) *Les Jesuites en Syrie* 10 : 36.
3) *ibid.* 6 : 70
4) *cf.* **Jessup** 656.
5) *Les Jesuites en Syrie* 4 : 32.
6) *ibid.* 2 : 41 f.
7) *ibid.* **2** : 31.

و بعد هذا كله يستغرب رشتر [1] لماذا كان الاتراك يسيئون معاملة النصارى اذا لجأوا الى الاستعانة بدولة غربية .

ان الاتراك لم يسيئوا معاملة النصارى . ولكن عاقبوا المتصلين بالدول الاجنبية — كما تفعل كل دولة اخرى — سواءً اكان هؤلاء من النصارى او من المسلمين — وليس ادل على ذلك من ان الاتراك قد شنقوا عام ١٩١٦ شباباً من العرب النصارى والمسلمين على السواء.

*

وفي تموز من عام ١٩٠٨ أعلنت الحرية العثمانية ، وكان اعلان الحرية في تاريخ الامبرطورية العثمانية يوازي الثورة الفرنسية في تاريخ فرنسة . ومع ذلك فان المبشرين لم يهتموا بهذا الحادث العظيم الا بمقدار ما سيخدم غاياتهم التبشيرية و يسهل عليهم النفوذ الى ارجاء الامبرطورية . لقد فرحوا على الاخص لأن سورية ولبنان سيُفتحان في وجه المبشرين البروتستانت [2] .

الحركة القومية في الامبرطورية العثمانية

و بعد اعلان الحرية عام ١٩٠٨ اتسعت الحركات القومية في الأمبرطورية العثمانية . وبما ان الديانة المسيحية كديانة تبشيرية مناقضة للقومية ، فان التبشير لم يرض ان يوقظ الروح القومية ولا ان يخمدها اذا رآها يقظى ،ولكنه اراد ان يحولها الى خدمة اهدافه . وكذلك لم يجبن المبشرون امام الاممية ايضاً ، بل احبوا ان يستغلوها قائلين : ان ابوة الله تشمل جميع

1) Richter 62.
2) *cf.* Richter 78 f., 229 ; *Islam and Missions* 127, 162.

الشعوب ، وان الاخوة تضم جميع البشر. واذا لم تكن الاممية نصرانية فيجب ان ننصرها . كل ذلك حتى يستطيع المبشرون ان ينصّروا جميع الشعوب على السواء [١] .

وكذلك لما انتهت الحرب العالمية الاولى وانشئت عصبة الامم زعم المبشرون ان التبشير يساعد عصبة الامم ويحقق اهدافها [٢] . ولكن عصبة الامم ماتت ثم خابت اهدافها.

كل هذا يدلنا بوضوح على ان التبشير كان يرمي الى استعمار الشرق، حتى قال رشتر ان اساس الاستعمار مسيحي . ثم إنه فتح فاه قائلا : لقد مر زمن كان الملوك المغول (المسلمون) في عاصمتهم دلهي يحكمون الهند ما بين جبال حمالايا الى رأس كورمورين ... ولكن منذ زمن بعيد حتى آخر مهراجا (سلطان) عنقه المتكبرة امام بريطانية المسيحية [٣] .

والمبشرون لم يتخذوا موقفاً صريحاً من القومية ، شأنهم في كل امر . ولكنهم كانوا يودون ان تبقى الامور غامضة وعلى شيء من الفوضى حتى يتمكنوا من القيام بالتبشير ثم يربطوا الصابئين الى مذهبهم الى عجلة الامة التي يخدمون اهدافها .

فالروم الارثوذكس مثلا كانوا يعتقدون ان انتشار البروتستانتية بينهم يضعف وحدتهم ويفقدهم كثيراً من الشعور القومي الذي يربطهم بابناء الكنائس الشرقية . ولكن رشتر يذكر ثلاثة اعتراضات على هذا الخوف ، كلها — اذا نظرنا اليها نظرة فاحصة — خاطئة ، ولكنها في الحقيقة موافقة لهوى المبشرين . يقول رشتر [٤] إن القومية خطر على الحياة الكنسية . ثم يعود فيقول ان البروتستانتية لا تعارض القومية . ثم يذكر ايضاً ان الدولة العثمانية تخاف انتشار الروح القومي بين رعاياها. اما ما يريده رشتر فهو ان يحلّ الروم الارثوذكس — في هذا المقام — من تضامنهم مع ابناء الكنائس الشرقية الاخرى حتى يجتذبهم هو الى البروتستانتية .

---

1) *cf. Missionary Outlook* 3,5. 7,13,39 ff. 43ff.
2) *ibid* 71 ff.
3) Richter 22.
4) *ibid* 76 - 70,

والمبشرون عند البحث في القومية ابعد الناس عن التصريح بما يعرفون من حقائق القومية وصلتها بالدين. لا شك ابداً في ان الدين عنصر من العناصر التي تتضافر مجتمعة حتى تخلق القومية. ان البروتستانتية جزء لا يتجزأ من القومية الهولندية والانكليزية، بينما الارثوذكسية جزء اصيل في القومية اليونانية والبلغارية. ومن ذا الذي يستطيع ان ينكر ان الاسلام كان ولا يزال جزءاً اساسياً في القومية التركية والايرانية والافغانية والمصرية والعراقية بل من ذا الذي يستطيع ان ينكر ان النزاع الداخلي في عدد من بلدان الشرق، وان كان قومياً في ظاهره، هو في الحقيقية نزاع بين المثل الدينية العليا. هنالك في لبنان مثلا تياران عظيمان: تيار يرى اهله ان يقيموا حول لبنان سداً يحول بينهم و بين العالم العربي، على شرط ان يظل تحت هذا السور دهليز يصل بين لبنان و بين الدول الكاثوليكية عامة وفرنسة خاصة. ثم هنالك تيار يرى اصحابه ان هذا السور حول لبنان ليس ضروريا اذ لا حاجة بهم اليه، وانما هم محتاجون الى ان يتوسلوا بكل سبيل لمنع عودة الاستعمار الاجنبي بكل انواعه الى لبنان. ن لهذين الشعورين جذوراً كثيرة، بعضها بلا ريب مغروس في العاطفة الدينية الموروثة،؟ بصرف النظر عن اختلاف نظر الاديان الى القومية وحقيقتها.

من اجل ذلك نرى ان تركية كانت على حق في التضييق على المبشرين، ذلك لأن تعدد المذاهب الدينية المتخاصمة في البلد الواحد يضعف ذلك البلد قوميا [1]، لانه يشعب فيه المسالك السياسية والقومية. ان النفوذ الافرنسي يسير دائما في ركاب التبشير الكاثوليكي، وان النفوذ الانكلو اميركي يتبع خطى التبشير البروتستانتي. اما النفوذ الروسي فيحتمي برجال الدين الارثوذكس. فعلى الامم والشعوب التي ترغب في صيانة حقيقتها القومية او الوطنية ان تحول بين ابنائها و بين المبشرين، سواء أكان هؤلاء المبشرون رجال دين فحسب ام كانوا في الحقيقة ستاراً يتسلل خلفه الاستعمار.

---

1) *cf.* Addison 107.

والمبشرون يقاومون القومية لسبب آخر . ان القومية في ظاهرها على الاقل حركة غير دينية [1] ، فالرجل القومي قليل الاحتفال بالمؤثرات الدينية قليل الانجذاب نحو الاحوال المذهبية . فايمان الشعوب بالحقيقة القومية اذن يصرفها عن إلقاء السمع الى المبشرين .

التبشير والوطنية

ولقد خشي المبشرون النهضة الوطنية في مصر لأن القومية المصرية اسلامية في حقيقتها . ويغمط هؤلاء المبشرون مصر والمصريين حقوقهم ويخالفون الواقع بقولهم ان الوطنية المصرية قد نشأت لأن الانكليز كانوا يحابون المسلمين في معاملتهم ، فأشعل ذلك حسب الاستقلال في صدورهم [2] .

وان ايسر نظرة في التاريخ تدل على ان الانكليز لم يعاملوا المسلمين في مصر معاملة تتفق مع كرامة الشعوب ، حتى قال حافظ ابراهيم عن ذلك في مصر :

اذا شئت ان تلقى السعادة بينهم　　　فلا تك مصرياً ولا تك مسلماً

فاليوناني والارمني واليهودي الغرباء كانوا يتمتعون في مصر باعظم مما يتمتع به المصري المسلم . واما ان الوطنية المصرية نتاج محاسنة الانكليز للمصريين فخلاف ايضاً للواقع .

ولقد اجفل المبشرون لما سمعوا النداء الوطني « مصر للمصريين » فقالوا ان هذا يعني « مصر للمسلمين » . ولذلك رجا المبشر صموئيل زويمر في ذلك الحين من بريطانية ان تبدل سياستها تبديلا اساسياً في وقت قريب وان تعلن حياداً تاماً يُشعر مصر بقوة بريطانية وبنعمها [3] . ومعنى ذلك عند زويمر بلا ريب « فتح مصر للتبشير بالقوة » .

---

1) Milligan 64 f.
2) *Islam and Missions* 25.
3) *ibid* 25 f.

ولما خاب المبشرون في وقف تيار القومية الصحيحة عمدوا في كل بلد الى اقلية غير مسلمةفي الاكثر ونجحوافي ان يضموا اليها احياناً نفراً بارزاً من المسلمين، كما اتفق في مصر فقط، ليلفقوا لأهل كل قطر مسلم قومية وهمية جديدة. لقد ارادوا ان يبعثوا « الفرعونية من خلال حجارة الاهرام ، « والفينيقية » من خرائب الساحل الممتد من يافا الى اللاذقية على الشاطىء الشرقي للبحر المتوسط. ثم انهم لفقوا في العراق دعوة اشورية لم تكتب لها ان تولد حية [١].

ان كل ما اراده المبشر جسب هو ان تولد « فينيقية » جديدة في لبنان وسورية تكون فيها النصرانية اوسع انتشاراً. ولقد اكد ان المدارس التبشيرية والصحافة شبه التبشيرية والكنيسة ستتضافر كلها على تحقيق هذا الهدف [٢]. ولكن الفينيقية لم تستطع ان ترى النور في سورية الحالية ، واذا كانت قد غذيت في لبنان طول عهد الانتداب ، فانها ماتت على عتبة الاستقلال اللبناني. هذا مع العلم بان كثيرين في لبنان ما يزالون يتغنون بها.

ولا احب ان اتوسع في تاريخ « الحركة الفرعونية » في مصر لأنها لا تختلف عن الحركة الفينيقية في لبنان في عهد الانتداب. اما « الحركة الاشورية » في العراق فقد كانت اقل تلك المحاولات حظاً من النجاح. وقد قضي عليها وعلى اصحابها في معركة واحدة كما مر معنا من قبل في هذا الفصل من هذا الكتاب.

التبشير بتعاونه مع الصهيونية

واستغل المبشرون الصهيونية لأنهم كانوا يتفقون معها في عدائهم للعرب والمسلمين. ولم يصر المبشرون على انشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين الا لأن انشاءه يضعف العرب

---

١) راجع ص ١٦٠ وما بعدها.

2) Jessup 597.

اضعافاً شديداً و يفتح ابواب فلسطين العربية امام التبشير ، والالأن فلسطين احدى نقاط الهجوم على العالم العربي الاسلامي .

*

والقوة اليهودية قوة هدامة عظمى خافتها الامبرطوريات القديمة فأرادت القضاء عليها . وليس من ضرورة هنا لبسط موقف تلك الامبرطوريات القديمة من اليهود . ان كل قارىء عام يعرف ما كان شأن المصريين والاشوريين والكلدانيين واليونان والرومان وشأن اليهود . اما اليوم فان الاتحاد السوفياتي قد اخذ يحاول القضاء على الحركة اليهودية في مناطق نفوذه لارتكابهم اعمالاً هدامة وللقيام بخيانة وتجسس [١] .

بعدان تشرد اليهود على ايدي الرومان تفرقوا في الارض فنزل قسم منهم في بلادالعرب، في اليمن وفي الحجاز حول يثرب . وفي يثرب انشأوا لهم قرية زراعية اسمها خيبر . فلما جاء الاسلام كان هؤلاء مصدر ازعاج كبير للاسلام والمسلمين : كان منهم المنافقون الذين يدّعون انهم مسلمون ثم يكونون عيوناً وجواسيس للمشركين . وكان منهم المتجسسون الذين كانوا يعقدون الحلف تلو الحلف مع رسول الله ثم يحملون اخباره الى أعدائه وينتهزون الفرص للوثوب على الاسلام والمسلمين . وكذلك كان منهم المتآمرون الذين يجمعون اعداء الاسلام ويحثونهم على مقاتلة المسلمين ثم يمولونهم بالاموال والسلاح . وهكذا ضاق محمد صلى الله عليه وسلم باليهود ذرعاً ونظم عليهم غزوات فاستطاع ان يخضعهم ويضعف مقاومتهم . ونظر كثيرون من المستشرقين بشهواتهم وعصبياتهم وجهلتهم احياناً الى تلك الغزوات فكانوا يقولون بأن محمداً عامل اليهود معاملة خشنة قاسية [٢] . على ان هذه المعاملة لم تكن ظالمة ولا كانت ، مع عدالتها ، شديدة كمعاملة المصريين والاشوريين والرومان مثلا ، ولا كمعاملة اليهود انفسهم لسائر الشعوب اذا وجدوا اليهم سبيلا . وما امر فلسطين ببعيد !

---

١) راجع ما نشر في الصحف منذ اواخر عام ١٩٥٢ وما بعده

2) Wismar 60, *cf.* 51-61.

ولا ريب في ان محمداً صلى الله عليه وسلم لم يقاتل اليهود لانهم يهود . إن هذا بيّن من القرآن الكريم فإن القرآن الكريم عدّ اليهود والنصارى اهل كتاب سماوي فلم يحملهم على قبول الاسلام[1] ولم ينقصهم حظهم من الايمان ولا من نعم الله. قال القرآن الكريم: « يا بني اسرائيلَ اذكروا نِعمتيَ التي أنعمتُ عليكم وأني فضّلتكم على العالمين » . وكذلك ذكر القرآن الكريم الامم التي هي اهل كتاب سماوي بالرحمة والفوز في الآخرة ، فقال : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين ، مَن آمـــن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون[2] » .

وانما قاتل محمد صلى الله عليه وسلم اليهود لأنهم كانوا يخونونه كلما عاهدوه ، وهذا ايضاً بيّن من القرآن الكريم :

— أو كلما عاهدوا عهداً نقضه فريق منهم ؟ (٢ : ١٠٠) .

— الذين عاهدوا منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة (٨ : ٥٦) .

— واعدو لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم. وآخرين من دونهم (اي المنافقين واليهود) لا تعلمونهم نحن نعلمهم (٨ : ٦٠) .

وتوفي الرسول (سنة ١١ هـ — عـام ٦٣٢ م) واليهود كلهم لا يزالـون في الحجاز مطمئنين الى اموالهم وارضهم وعقيدتهم . فلما جاء عمـر بن الخطاب (سنة ١٣ هـ — عـام ٦٣٤ م) ادرك ان الدولة الأسلامية لا يمكـن ان ترسخ في شبه جزيرة العرب ما دام اليهود فيها يثيرون اهلهـا على الدولة ويفقرونها بالربا الفاحش فامر باخراجهم . ولكن عمر لم ينـتزع اموال اليهود بل ثمّنها ثم ودفع لهم نصف اثمانها ، فهاجروا الى سورية[3] .

---

١) السورة الثانية (البقرة) الآية ٤٧ و ١٢٢ راجع ٤٠ .
٢) السورة الثانية (البقرة) ٦٢ .

3) cf. Wismar 98.

اما في سورية فكان اليهود يلقون من الدولة البيزنطية اضطهاداً بالغاً . فلما اخذ العرب بفتح الشام (سورية) جعل اليهود يرحبون بهم استبشاراً بالنجاة من نير بيزنطية [١] .

ان العرب والمسلمين لم يضطهدوا اليهود لأنهم يهود ، بل لم يضطهدوهم في اول الامر على الاطلاق . ولكن لما كثر اعتداء اليهود على العرب والمسلمين سراً وعلانية لم يبق بد من دفع هذا الاعتداء ، ولقد دفعه العرب بالحسنى ايضاً و بالحق . اما الذين يعرفون تاريخ اليهود السري في اوروبة واميركة ، ثم شهدوا اليهود في فلسطين يعلم ما يكنّ اليهود للعالم من الحقد وما يضمرون له من اثارة القلاقل والافقار واضاعة الاخلاق .

*

ومنذ قرن ونصف قرن فكر المبشرون باستغلال اليهود لنشر النصرانية بينهم ولمقاومة العرب والمسلمين بهم . ففي عام ١٨٠٩ اسس الانكليز الجمعية اللندنية لنشر النصرانية بين اليهود ، ولقد كانت آمالهم عند تأسيسها عظيمة جداً ، كانوا يرون ان العمل يجب ان يبدأ بأن يساق اليهود المتفرقون في الارض الى فلسطين . وهكذا بدأوا يشجعون اليهود على الهجرة ، وعزموا على ان يبدأ التبشير بينهم بعد ذلك مباشرة . وظن المبشرون ان الفرصة سانحة لتحقيق هذا الهدف حينما ارسل الخديوي المصري الثائر [٢] محمد علي ابنه الى الشام (سورية) واستولى على فلسطين . ذلك لأن موقف محمد علي من الارساليات التبشيرية كان موقف صداقة وتسامح . وهكذا انتهز المبشرون هذه الفرصة السانحة ووضعوا اساس ما دعوه « كنيسة صهيون » ، اول كنيسة بروتستانتية في الامبرطورية العثمانية . ولكن فأل المبشرين قد خاب ، فان محمد علي انسحب عام ١٨٤٠ من الشام ، فعاد الاتراك الى موقفهم الشديد الاول من الارساليات التبشيرية [٣] .

---

1) *ibid* 82.

٢) التعبير لصاحب النص الذي نستشهد به .

2) Richter 263.

على ان المبشرين حاولوا مرة ثانية ان يستغلوا القضية اليهودية في سبيل اهدافهم الدينية : فقد اسس الملك فريدرك ولهلم الرابع ملك بروسية (١٨٤٠ — ١٨٦١) الاسقفية الانكليزية البروسية في القدس لتكون مركزاً بروتستانتياً لاصلاح الكنائس الشرقية عامة ولتنصير اليهود خاصة [١]. ان المبشرين كانوا جدّ مقتنعين بان جمع اليهود في فلسطين يسهل لهم مهمتهم في الوصول الى المسلمين. من اجل ذلك ارادوا ان يفتحوا ابواب فلسطين على مصاريعها الهجرة اليهود [٢]. فليس من المستغرب اذن ان نجد سبعاً وعشرين جمعية تبشيرية مختلفة الجنسيات كانت تعمل بلا ملل في فلسطين [٣].

وهكذا نجد ان عوامل دينية مختلفة كانت ترمي الى استعمار فلسطين توصلا الى اهداف خاصة : البابوية والبروتستانتية والصهيونية ، وكان رودتشيلد المتمول اليهودي يساعدهم جميعاً [٤].

ومع ان هذه الحركات كانت دينية في ظاهرها فانها كانت سياسية في حقيقتها : كانت الدول الاجنبية تريد تحطيم الامبراطورية العثمانية حتى تستطيع بسط نفوذها على بلاد الشرق. ولقد لجأت الدول الاوروبية الى استغلال الاقليات الطائفية في الامبراطورية العثمانية كالاقلية اليهودية على الاخص . ثم دفعت الاقلية الارمنية للثورة على العثمانيين مراراً لاضعاف الادارة العثمانية في البلاد العربية [٥]. من هذه السبيل كان الاوروبيون يأملون ان ينفذوا بمشاريعهم لاستعمارية الى العرب والمسلمين .

ويبدو بوضوح من مراجع مختلفة ان الاوروبيين لم يكونوا يريدون انشاء دولة يهودية على النحو الذي حدث الآن ، ذلك لأنهم لم يكونوا يريدون ان يهودوا فلسطين ، بل كانت

---

1) *ibid* 237.
2) *Christian Mission* 188.
3) Richter 238.
4) Jessup 657.
5) Bury 118, 120.

غايتهم الأولى ان يتخذوا اليهود "فزّاعة (للعرب) . واما موافقة الدول الاوروبية على جمع اليهود في فلسطين فلا يجب ان يُفهم الا على ان هذه الدول الاوروبية قد ارادت التخلص من يهود اوروبة [١] . هذا الرأي الذي مر عليه الى الآن نحو اربعين عاماً او تزيد [٢] ، لا يزال وجيها عند الدول الاوروبية بوجهيه : للتخلص من اليهود في اوروبة خاصة ثم لتحطيم وحدة الشرق بوضع عدو للعرب والمسلمين في اقدس بقعة لهم على الشاطىء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط . هذا مع العلم بان اليهود سيثيرون للعرب وللمسلمين من مركزهم القوي الجديد قلاقل سياسية واجتماعية واخلاقية واقتصادية يتمكن بها الاوروبيين من التدخل في كل حين بين الخصمين للسيطرة عليهما جميعاً . وهكذا رأينا بام أعيننا ان الدول الغربية كانت ترى من مصلحتها الأستعمارية ان تتساهل مع اليهود في فلسطين الى الحد الذي وصلت اليه معهم في عام ١٩٤٩ . وعلى مثل هذا سار المبشرون ايضاً منذ احتلال الانكليز لفلسطين .

ذكر ويلسن كاش [٣] ان في القدس مدرستين عاليتين تديرهما ثلاث ارساليات مختلفة ادارةً مشتركة : مدرسة البنات العالية ثم الكلية الانكليزية . ان اليهود والعرب والنصارى يلعبون في ملاعب هذه المدارس لعبة كرة القدم ويبدون في اللعب [٤] من ضروب التعاون ما يساعد على ان يخلق لهم نظرة جديدة الى مشاكلهم القومية الحاضره . ان القارىء ليجد في هذا القول قرينة ظاهرة تدل على أن مدارس التبشير كانت تعمل على ان تهيء الطلاب العرب من المسلمين والنصارى في فلسطين ليقبلوا بنزول اليهود في الاراضي المقدسة . ولعلهم لم يفعلوا ذلك حباً باليهود ، بل اضعافاً لنفوذ المسلمين في هذه البقعة المقدسة من الارض ، وتوصلا الى زيادة نفوذهم في الشرق من هذه السبيل .

---

1) Richter 231.

٢) طبع رشتر كتابه الذي استشهدنا به آنفاً عام ١٩١٠

3) Cash 149.

٤) يقصد المؤلف : المسلمين .

ويظهر ان الالعاب الرياضية كانت تخدم قضية المبشرين وتخدم الصهيونية في فلسطين خدمة عظيمة ، حتى اندفعت مدارس التبشير تؤله الروح الرياضية وتشجع التسامح في ميادينها الى ابعد الحدود ، تسامحاً كان يراد منه قتل الشعور القومي الثمين من طريق التسلية . قال وابرت سميث [١] : ان الالعاب تبرهن على انها من احسن الوسائل لتقريب وجهات النظر بين المختلفين ، بل بين المتعادين . لما اعلن العرب اضرابهم العام في القدس عام ١٩٢٩ (احتجاجاً على ممالئة الانكليز لليهود) قامت جمعية الشبان المسيحية بحفلة تخدم بها التعاون الودي بين العرب واليهود فاقامت مباراة في لعبة التنس كان اللاعبون فيها مسلمين ويهوداً . وكان في الحضور لفيف من جماعات مختلفة فيهم الفلسطينيون والانكليز والاميركيون والالمان . وسادت الروح الرياضية ، فكان اليهود يحيون كل نجاح يصيبه اللاعبون العرب ، وكان العرب يردون التحية للاعبين اليهود اذا اصابوا نجاحاً . وتبع المباراة حفلة شاي حضرها نحو خمسين من الفلسطينيين والانكليز والصهيونيين نعموا ساعة بكرم مضيفهم النصارى .

وهكذا نجد دائماً بوضوح ان المبشرين واشياعهم ليسوا خطراً على الاطمئنان الديني في الاسلام ، بل هم خطر على الحياة القومية في الشرق العربي ايضاً .

*

ولم تكن الارساليات التبشيرية وحدها صديقة لليهود في سبيل تحقيق اهدافها الدينية ، بل ان بريطانية ، الدولة المنتدبة على فلسطين ، كانت صديقة لليهود [٢] في سبيل تحقيق اغراضها الاستعمارية . ومما يدلنا على ذلك ، بعد الادلة التي لمسناها في ثلاثين

---

1) Mw. Apr. '33, p 153.
2) Mw. Oct. ' 35, 354 f.

عاماً منذ انتهاء الحرب العالمية الاولى ، ان انكلترة اعلنت الوطن القومي لليهود في فلسطين ، قبل استيلائها على فلسطين ، وان المندوب السامي البريطاني الاول بفلسطين ، السير هربرت صموئيل ، كان يهودياً .

وكان تأسيس الدولة اليهودية امراً مقرراً عند المبشرين ، فقد كتب المبشر جون فان أس [1] يذكر في عام ١٩٤٣ « اسرائيلية » ويعلن حدودها فيقول بانها الدولة التي ستؤلف من معظم اراضي اليهودية (الجليل) جنوباً الى خليج العقبة ، ثم « اردنية » ويجعلها القسم العربي من فلسطين مع شرق الأردن الحالية . هذا يدلنا دلالة واضحة على ان اخبار هذه التقسيمات السياسية كانت في متناول المبشرين ، او ان المبشرين كانوا يحضون عليها في سبيل تسهيل مشاريعهم الدينية .

ويتساءل احدنا : لماذا يفضل المبشرون ان تقوم دولة يهودية في فلسطين ، ولماذا هم يخافون العرب ولا يخافون اليهود ؟

يرى لورنس براون [2] — واكثر المبشرين على رأيه — ان القضية الاسلامية تختلف من القضية اليهودية : ان المسلمين يختلفون عن اليهود في ان دينهم دين دعوة . ان الاسلام ينتشر بين النصارى انفسهم وبين غير النصارى . ثم ان المسلمين كان لهم كفاح طويل في اوروبة فاخضعوها في مناسبات كثيرة . على ان الفرق الاساسي بين المسلمين واليهود ، كما يراه المبشرون ، هو ان المسلمين لم يكونوا يوماً ما اقلية موطوءة بالاقدام . ثم هم يقولون : اننا اذا نظرنا الى العالم لم تر مكاناً يمكن ان يصبح المسلمون فيه اقلية مثل هذه الا فلسطين والهند . من اجل ذلك نرى المبشرين ينصرون اليهود على المسلمين في فلسطين .

---

1) John Van Ess, Van Ess, p. 192.
2) Browne 7 ff.

ثم يعلن لورنس براون رأيه الخاص فيقول : لقد كنا نُخَوَّف بشعوب مختلفة ، ولكننا بعد اختبار لم نجد مبرراً لمثل هذا الخوف . لقد كنا نخوّف من قبل بالخطر اليهودي والخطر الاصفر (باليابان وتزعمها على الصين) و بالخطر البلشفي. الا ان هذا التخويف كله لم يتفق كما تخيلناه . اننا وجدنا اليهود اصدقاء لنا ، وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الالد . ثم رأينا ان البلاشفة حلفاء لنا [1] . اما الشعوب الصفر فهنالك دول ديموقراطية كبرى تقاومها... ولكن الخطر الحقيقي كامن في نظام الاسلام وفي قوته على التوسع والاخضاع ، وفي حيويته: انه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الاوروبي [2] !

---

١) اصدر المؤلف كتابه عام ١٩٤٤ .

2 Browne 9, 10 ff.

الفصل التاسع

الاعمال الاجتماعية طريق التبشير

•

الاعمال الاجتماعية هي المناسبات التي تربط بعض البشر ببعضهم عرضاً ، أو تتيح لبعض الناس ان يعرفوا بعضهم الآخر . إن البشر عادة مقسمون حسب اعمالهم ، فقلما يتاح للطبيب المنصرف إلى علمه وعمله ان يجتمع بالتاجر أو بالصانع أو بالفنان . وكذلك يتعذر على رجل من المدينة ، أو من حي معين في المدينة ، ان يجتمع برجل من مدينة اخرى او من حي آخر في مدينته هو . من اجل ذلك يلجأ الناس عادة الى خلق جو اجتماعي يجمع بينهم في مناسبات مختلفة : في الحفلات الرياضية والخطابية ، وفي الأندية الادبية والسياسية ، وفي الاتصال فيما بينهم من طريق الصحف والمجلات واعمال البر والاحسان ، وفي الاجتماعات المختلطة بين الجنسين رجالاً ونساءً .

والمبشرون يعرفون هذه كلها في بلادهم فأحبوا ان ينقلوها الى بلادنا، لا حبّاً بنا نحن لكي تكون الصلات بيننا اوثق والحياة عندنا اكثر فائدة واكثر مرحاً ، بل توصلاً الى اختراق السور الذي ضربه العُرف الشرقي حول الأسرة المسلمة كي يُفتح لهم باب جديد يلجونه للتبشير بيننا . تلك كانت غايتهم الاولى من النشاط الاجتماعي الذي احبوا ان ينشوه في بيئتنا بواسطة المدارس الامريكية خاصة ، ومن طريق الخدمة الاجتماعية بين الفلاحين ايضاً .

جاء في كتاب اسمه مؤتمر العاملين المسيحيين بين المسلمين [1] : « نحن نعني بالعمل الاجتماعي المسيحي تطبيق مبادىء يسوع المسيح في جميع الصلات الانسانية . إن المسلمين يدّعون أن في الأسلام ما يلبي كل حاجـــة اجتماعية في البشر ، فعلينا ان نقاوم الاسلام دينياً بالاسلحة الروحية . فالنشاط الأجتماعي يجب ان يرافق التعليم المباشر للانجيل ويساعده ويتممه... فلنبدأ بالصلات اليومية، تلك التي تتصل بالطفل و بالمرأة ثم نتوسع في تلك الصلات، حتى نبلغ الى المبادىء الواسعة التي اقرتها عصبة الامم ... فامام الكنيسة اليوم مناسبات ممتازة تتيح (للمبشر المسيحي) ان يتصل برجال ونساء في البيئة (الاسلامية) الراقية لم يكن بامكانه من قبل ان يتصل بهم ...

« من اجل ذلك نحن ننصح بالسير في الاعمال الاجتماعية على الاسس التالية :

« ايجاد بيوت للرجال والنساء، وخصوصاً الطلبة منهم ومنهن — ايجاد اندية — الاعتناء بالتعليم الرياضي و باعمال الترفيه — حشد المتطوعين لامثال هذه الاعمال .

« وبما ان جمعية الشبان المسيحيين وجمعية الشابات المسيحيات قد نصبتا نفسهما للوصول الى الشباب المسلم في النواحي الآنفة الذكر وفي غيرها ايضاً ، فالواجب يقضي ان نُشجّعهما لتتسع دائرة عملها فتشمل الجماعات المسؤولة من المسلمين ومن الذين يرحبون بمثل هذه الجهود (من غير ان يفطنوا ، طبعاً ، الى الغرض التبشيري) .

« وعلى المبشرين ان يتعرفوا الى احوال المسلمين الاجتماعية والاقتصادية حولهم ثم يسعوا الى الاصلاح (في الظاهر) ، سعيا الى التأثير على الرأي العام (بأن غايتهم شريفة مجردة من الغرض التبشيري) . ومما يجب ان يهتم المبشرون بـه (في الظاهر) : اصلاح الاحداث

---

1) *Conference of Christian Workers Among Moslems*, N.Y. 1924

— الحيلولة دون الزواج الباكر — الحيلولة دون تشغيل الاطفال — محاولة اصلاح الاحوال العامة للعمال فيما يتعلق بساعات العمل و بالاجور وبالامور الصحية في المعامل — الرفق بالحيوان ... (ص ٣٤ — ٣٦) ».

من اجل ذلك نرى في الدرجة الاولى ان الجدران قد امتلأت في بلادنا بالدعوة إلى « الرفق بالحيوان » و بجملة « الطفل للمدرسة لا للعمل » ، و بالدعوة الى « انصاف العمال ». ولكننا لا نرى اصلاحاً حقيقياً في هذا السبيل ، بل نرى مقابل ذلك « ظلماً للانسان » و « تشريداً للاطفال [1] » و « استغلالا للعمال » . فالذين يقومون بهذه الدعوات الظاهرة لا يقصدون الاصلاح الحقيقي ، بل يقصدون التسلل بالتبشير الى الجماعات المسلمة .

والمسلمون خاصة لم يتقبلوا اعمال المبشرين الاجتماعية (في ظاهرها) بسرور ، لأسباب مختلفة ، منها ان الاسلام نظام اجتماعي كامل ، وكل ما يأتي به هؤلاء المبشرون ، باعترافهم ، موجود في الاسلام وفي اشكال اتم واحسن [2] . وهذا حق فالدين الاسلامي ليس عقيدة فقط بل هو عقيدة ونظام اجتماعي ايضاً . اما النصرانية فليست كذلك . وان ما يأتي به المبشرون على انه اصلاحات اجتماعية ، انما هي نتاج مشوه لمبادىء اجتماعية نشأت في القرون المتأخرة . وما كان أغنى المسلمين عن ان يتناولوا هذه المبادىء الاجتماعية ملونة بلون التبشير! ان ثمت حاجة الى تجديد اجتماعي بين المسلمين ، لا ريب في ذلك . من اجل ذلك يحسن اللجوء الى المذاهب الاجتماعية ، اذا كانت موافقة ، من غير ان تمر بين ايدي المبشرين .

وهنالك امر آخر يمنع المسلمين من تصديق اقوال المبشرين ، حتى في الاجتماع . يقول المبشر و . رايد :

---

١) كتشريد اطفالنا الفلسطينيين من بلادهم وظلمهم في مخيماتهم بانفاق المال المخصص لهم على موظفين اجانب ووطنيين .

٢) *Christian Workers* 34 f., 68 ff.

« إن الوصول الى المسلمين صعب ... ذلك لأن المسلمين يشكّون في من يتبرع لهم (من المبشرين) ويعزون عمله الى مأرب ما ... انني انا (والكلام للمبشر رايد) احاول ان انقل المسلم من محمد الى المسيح ، ومع ذلك يظن المسلم ان لي في ذلك غايةً خاصة . انا لا احب المسلم لذاته ، ولا لانه اخ لي في الانسانية . ولولا انني اريد ربحه الى صفوف النصارى لما كنت تعرضت له لاساعده »[1] .

والمسلمون يعرفون هذا، ولذلك قلما يثقون بالمبشرين و باعمالهم الاجتماعية ، لا كرهاً بالاعمال الاجتماعية ، بل لأن هذه الاعمال تأتي دائماً ناقصة مشوهة لأنها تستخدم وسيلة الى تبشير ديني ، هو بدوره وسيلة اخرى لاستعمار سياسي واقتصادي .

الاحسان طريق التبشير

الاحسان في حقيقته عطف من القوي على الضعيف ، عطف يتبدى في صور مختلفة أبرزها وأشهرها دفع المال . ولكن الاحسان قد يجري مجاريَ اخرى كالتعليم المجاني، وهبة الثياب والكتب، والمساعدة على ايجاد عمل وما يجري هذا المجرى . فلنبدأ هنا بالمال :

لم يكن المبشرون محسنين بالمعنى النبيل الذي نفهمه من هذه الكلمة ، ولكنهم كانوا يستغلون ما بأيديهم من وسائل الاحسان حتى يصلوا الى اهدافهم التبشيرية فالاستعمارية . ولقد كانوا فوق ذلك مقتصدين جداً لا ينفقون ولا ينفعون إلا بمقدار ما ينتظرون من فوائد عاجلة . ألفَّ جماعة من المبشرين كتاباً اسمه «اسس جديدة للتبشير»[2] قالوا فيه : « كان التطبيب والتعليم من وسائل التبشير، ويجب ان يبقيا كذلك. اما اعمال الخير فيجب ان تستعمل بحكمة فلا تنفق الاموال في غير سبيلها: يجب ان تعطى الاموال اولاً للبعداء، ثم يقل دفعها تدريجاً كلما زاد اقترابهم

---

1) *Quoted in* Gairdner 261.
2) *Re-Thinking Missions* (*cf.* Bibliography).

الكنيسة (اي كلما زاد الامل بانضمامهم الى المذهب الجديد) ، فاذا ما دخلوها منعت عنهم اعمال الخير . ثم يجب ألا يبالغ في الناحية الخيرية على كل حال [١] .

اين يذهب معظم اموال الاحسان

وذكر دانيال بلس ان اموالاً ارسلت عقب فتنة ١٨٦٠ الى خوري قرية في لبنان ، ليوزعها على اهل قريته فاحتفظ بالاموال لنفسه . هذا فضلا عن ان الكثيرين من الاهلين كانوا يدّعون بان الدروز قد قتلوا اقاربهم وهدموا بيوتهم ليحصلوا على اموال لا حق لهم بها ، او ليحصلوا على اكثر مما هو حق لهم . وكان ثمت افراد اقوياء الاجسام ظلوا يعتمدون على اموال الاحسان زمناً طويلا بعد فتنة ١٨٦٠ ويعيشون منها [٢] .

كان المبشرون يعرفون كيف تنفق هذه الاموال والى اين تذهب، وكانوا يغمضون اعينهم لأنهم لم يكونوا يودون الاحسان على البائس والمحروم ، بل كانت كل طائفة منهم تتصيد بتلك الاموال خرافاً جديدة لحظيرتها .

اما كيف يستغل المبشرون اعمال الخير في سبيل التبشير فتمثله القطعة التالية :

كتب ألدَر دوغلاس مقالاً عنوانه « كيف نضم الينا اطفال المسلمين في الجزائر » [٣] ، ذكر فيه ان ملاجئ، قد انشئت في عدد من اقطار الجزائر في شمال افريقية لإطعام الاطفال الفقراء وكسائهم وإيوائهم احياناً. ثم قال إن هذه السبيل لا تجعل الاطفال نصارى ، لكنها لا تبقيهم مسلمين كآبائهم. ومثل هذه الجهود يبذلها المبشرون في شمال افريقية ومصر [٤] .

---

1) *ibid* 67 f., *cf.* 70 f.
2) Bliss 159 ff.
3) MW, July' 35, pp. 283 f.
4) *cf.* MW. Oct. '35, pp. 391 ff. ; Oct '36, pp. 392 ff.

ولقد صدر في «نشرة الاخبار للمجلس المسيحي في الشرق الاوسط»[1] مقالاً عنوانه «جمعيات المتطوعين والخدمـــة الاجتماعية في مصر»، جاء فيه اشياء كثيرة عن استغلال الحاجـات الاجتماعية في الشعب المصري للتبسط في العمل المسيحي في القطر المصري كله. وكاتب المقال يريد ان تستأثر الجمعيات التبشيرية بكل نواحي الخدمة الاجتماعية، وهو يضن بأن تقوم على ذلك الحكومة المصرية نفسها.

*

ويظهر ان الارساليات الـكاثوليكية اكثر استخداماً للاحسان في سبيل التبشير. ولقد اهتم باباوات رومية في الحقبة الاخيرة بنشر النصرانية بين المسلمين، حتى ان البابا بندكتوس (١٩١٤ — ١٩٢٢) عرف باسم بابا الارساليات.

والارساليات الكاثوليكية كغيرها تتبع طريقين في التبشير: التبشير المباشر بمخاطبة غير النصارى (او غير الـكاثوليك ايضاً) رأساً بأمور العقيدة وبالتعليم المسيحي. اما الطريقة غير المباشرة فتقوم على الاحسان المـادي وعلى العناية بالمرضى والتعليم وما اشبه ذلك. ويندر ان تستعمل الطريقة المباشرة مـع المسلمين، فان المبشر الـكاثوليكي قد اتبع في كل مكان نزل فيه بين المسلمين الطريقة غير المباشرة[2].

كتب صموئيل زويمر صاحب مجلة «العالم الأسلامي»[3] مقالا في مجلته[4] عنوانه «استخدام الصـدقات لاكتساب الصابئين». ومع ان المقال كله بحث في ان الاسلام اجاز اعطاء الزكاة للمؤلفة قلوبهم، اي اولئك الذين دخلوا في الاسلام في عهد الرسول وكانوا ذوي حاجة او ذوي اتجاه مادي، فان المقصود من المقالة استخدام الاحسان في سبيل التبشير المسيحي ايضا.

---

1) News Bulletin of the Near East Christian Council. Beirut, Oct. '45. pages 12 - 16.
2) MW. July '36. pp. 223 f.
3) *The Moslem World*, editor: Samuel M. Zwemer.
4) pp. 141 ff.

اما البروتستانت خاصة فانهم لا يرون ان توزع الارساليات إعانات من مالها هي ، وإن كانت احياناً تقوم بتوزيع الاعانات الواردة اليها من اماكن مختلفة[١] .

ومما جعل المسلمين ينظرون بحذر الى الاعمال الاجتماعية التي كان المبشرون يتظاهرون بها رثاء الناس امرٌ على غاية من الاهمية . كان المبشرون يحسّنون اعمالهم الاجتماعية بقولهم انها اعمال الغرب المتقدم المتحضر في الشرق المتأخر ، وانها نعمة مسيحية بين مسلمين متقهقرين . ولكن المسلمين رأوا فساد الاخلاق يمشي مع هؤلاء الغربيين خطوة فخطوة .

بعد فتنة سنة الستين ارسلت فرنسة جيشاً لتحتل جبل لبنان دفاعاً عن الموارنة . « ولقد كان الاحتلال الافرنسي لعنة في سورية ، فقد فتح هؤلاء الافرنسيون في لبنان خمسين حانة وعدداً كبيراً من بيوت الدعارة . وكذلك تفشّى السكر الى حد لم يكن من قبلُ معروفاً . ثم زال الاحتلال الافرنسي ، ولكن سيئاته لم تزل »[٢] .

ولم يكن الافرنسيون وحدهم مثل السوء، بل جاراهم الانكليز كخيل الرهان . وصلت الى بيروت سفينة حربية انكليزية فنزل بحارتها الى المدينة — على عادتهم — وجاء خمسة من هؤلاء سكارى الى حانة يديرها مسيو ترويه[٣] وطلبوا خمراً فلم يعطهم . حينئذ اندفعوا الى الحانة يحطمون ما فيها ، فاخذوا وسجنوا . ويقول المبشر جسب بصراحة ان هذا العمل قد حط من قدر الانكليز في عيون اهل بيروت ، وكان مما يقلل الثقة بالمبشرين[٤] .

ومما يستحق الذكر ويساعد على فهم هذه السياسة من الافساد الجدي الذي كان يرافق الاعمال الاجتماعية الربانية «انه كان في بيروت عام ١٨٥٦ حانة واحدة يديرها رجل يوناني. ولكن « الباشا » — الحاكم — اغلقها. الا ان القنصل احتج على ذلك ثم فتحها لأن صاحبها

1) MW, Apr. '33, pp. 124 f.
2) Jessup 233 ff., 730.
3) Mr. Troyet.
4) Jessup 235.

يتمتع بحماية دولة مسيحية ... وكذلك كانت الخمر تشحن من انكلترة الى الأمبرطورية العثمانية لتفتك بالشعوب العثمانية كما هي الآن [١] تفتك بالقبائل الافريقية [٢] ».

جمعية الشبان المسيحيين وجمعية الشابات المسيحيات

مما لا ريب فيه أننا اصبحنا مقتنعين الآن بأن للتبشير ظاهراً و باطناً ، وان المبشرين يتوسلون بظاهر الاعمال الاجتماعية الرحيمة الى باطن التبشير الاستعماري . فمن اوجه النشاط الاجتماعي الذي يستغل في التبشير : جمعية الشبان المسيحيين وجمعية الشابات المسيحيات [٣] ، المخيمات ، موءتمرات الطلاب ، الالعاب الرياضية ، بيوت الطلبة ، ملاجيء الاطفال ثم نشر الكتب [٤] ، مظاهر كلها بريئة مفيدة ولكنها تحمل في طياتها التبشير الذي يقود الى الاستعمار وبما ان الكلام على هذه كلها معناه إعادة الكلام على التبشير كله ، فاننا سنشير الى ما لم تسبق الاشارة اليه من قبل اشارة موجزة .

إن فروع جمعية الشبان المسيحيين وجمعية الشابات المسيحيات قد نشرت في الشرق لتكون عوناً على تغلغل التبشير المسيحي . يقول أديسون [٥] .

ان عوامل التعليم المسيحي في مصر ، تزيد قوة على قوتها بموءسستي جمعية الشبان

١) في زمن جسب : Jessup

2) Jessup 120.

٣) لقد تبدل اسم هاتين الجمعيتين فاصبح : الجمعية المسيحية للشبان والجمعية المسيحية للشابات . وفي هذا التبديل غرض غير خفي . ان معناها اللفظي الاول كان : جمعية للشبان المسيحيين وحدهم وللشابات المسيحيات وحدهن . اما الآن فالمعنى اللفظي قد اصبح : جمعية مسيحية (يديرها المسيحيون) للشبان (لكل الشبان) وللشابات (لكل الشابات) . على ان المقصد الحقيقي كان من قبل كما هو الآن ، وهو الان كما كان من قبل .

4) *Christian workers* 23 - 26, 61 ff.

5) Addison 159. *cf.* 110.

المسيحيين وجمعية الشابات المسيحيات ، وهما مؤسستان غير طائفيتين [1] ... إن لهاتين الجمعيتين مراكز نشيطة ، وخصوصاً في القاهرة والاسكندرية . هذه الفروع تقدم (للمسلمين) مناسبات مختلفة للالعاب الرياضية ... وتهيء في المجتمع الواناً من النشاط تندر في الشرق ... وفي هذا كله اقتراب من المسلمين (بالتبشير) .

ويصرح الكاتب نفسه بمهمة جمعية الشبان المسيحيين وجمعية الشابات المسيحيات في اواخر كتابه ، وحينما يتكلم عن فلسطين خاصة، فيقول :

منذ الاحتلال البريطاني لفلسطين اتسع التبشير البروتستنتي واخذ المبشرون يستخدمون كل شكل من اشكال التبشير استخداماً فعالاً . من ذلك التبشير الاجماعي والفردي ، ومن ذلك توزيع الاناجيل والكتب المسيحية الاخرى ، وكذلك التعليم الابتدائي والثانوي (حتى اصبح في فلسطين واحدة واربعون مدرسة فيها اربعة آلاف وثمانمائة تلميذة. ثم هنالك الاعمال الطبية والمستشفيات والمستوصفات . ومن ذلك ايضاً الاعمال الاجتماعية التي تقدمها مؤسسات مثل مؤسستي جمعية الشبان المسيحيين وجمعية الشابات المسيحيات) .

ولقد كان ولبرت سميث اشد صراحة في مقال له عنوانه « جمعية الشبان المسيحيين في الشرق الادنى » [2] ، قال :

« إن جمعية الشبان المسيحيين قد جاءت الى الشرق الادنى لتعاون المؤسسات المسيحية ... اما هدفها الرئيسي فهو تنشئة الشبان على اسس مسيحية . ولفروع هذه الجمعية

---

1) *ibid* **318 f.**

لما قال اديسون عن جمعية الشبان المسيحيين وجمعية الشابات المسيحيات انهما « غير طائفيتين » عنى انهما تقبلان اعضاء من جميع الاديان والمذاهب ، ولم يعن انهما لاتشتغلان بالامور الدينية الطائفية .

2) The Y.M.C.A. in the Near East, by **Wilbert B. Smith. MW**, Apr. '33, pp. 148 ff.

منهاج دائم، ولها اجتماعات عامة تعرض فيها الدعوة المسيحية بلا استحياء و بلا تحوير. وهنالك ايضاً سلسلة من الاجتماعات التبشيرية » .

المرأة : فتاة واماً

ويهتم المبشرون خاصة بالمرأة . إن المرأة مدار الحياة الاجتماعية ، والوصول بالتبشير اليها وصول الى الاسرة كلها . من اجل ذلك كانت جمعية الشابات المسيحيات بفروعها ، ومن اجل ذلك كانت المنازل والمعاهد التي يعدها المبشرون للفتيات خاصة [١] .

ويصفق المبشرون باليدين لان المرأة المسلمة قد تخطت عتبة دارها . لقد خرجت الى الهواء الطلق ، لقد نُزعت عنها حجابها . ولكنهم لا يصفقون لأن المرأة المسلمة قد فعلت ذلك ، بل لأن فعلها هذا يتيح للمبشرين ان يتغلغلوا عن طريق المرأة في الاسرة المسلمة بتعاليمهم التبشيرية . ولهذا السبب خاصة اخذ المبشرون منذ امد يأتون بالنساء المبشرات ليتصلن بالنساء المسلمات وهم يصيحون : لقد سنحت لنا فرصة جديدة [٢] .

وللمرأة عند المبشرين اهمية عظمى، قال نفر منهم [٣] :

« بما ان الاثر الذي تحدثه الام في اطفالها — ذكوراً وإناثاً — حتى السنة العاشرة من عمرهم ، بالغ في الاهمية ، وبما ان النساء هن العنصر المحافظ في الدفاع عن العقيدة ، فاننا نعتقد ان الهيئات التبشيرية يجب ان تؤكد جانب العمل بين النساء المسلمات على انه وسيلة مهمة في التعجيل بتنصير البلاد الاسلامية » .

---

1) *cf. Supra ; cf. too* **MW.** Oct. '37, pp. 362 ff.

2) Milligan 64 f.

3) *Christian workers* 40.

من اجل ذلك اهتم المبشرون بالتبشير بين النساء اهتماماً خاصاً ، ووضعوا له البرامج المفصلة واكثروا من إرسال المبشرين والمبشرات لهذه الغاية ، ثم استعانوا على ذلك بكثير من الجمعيات النسائية في اميركة[1] .

وتبدّى موضوع المرأة في صورته الحقيقية من ان المرأة عنصر فعال في الحياة الدينية ؛ فاذا بالمؤتمر التبشيري الذي عقد في القاهرة عام ١٩٠٦ يتمخض ، فيما تمخض عنه ، عن هذا النداء الذي وضعته الاعضاء المبشرات في ذلك المؤتمر :

« ... لا سبيل إلا بجلب النساء المسلمات الى المسيح . إن عدد النساء المسلمات عظيم جداً ، لا يقل عن مائة مليون ، فكل نشاط مجدٍ للوصول اليهن يجب أن يكون اوسع مما بذل إلى الآن . نحن لا نقترح ايجاد منظمات جديدة ، ولكن نطلب من كل هيئة تبشيرية ان تحمل فرعها النسائي على العمل واضعة نصب عينيها هدفاً جديداً هو الوصول إلى نساء العالم المسلمات كلهن في هذا الجيل ... »[2] .

ومنذ زمن قديم والمبشرون يرون ان يهاجموا هذا المعقل الحصين في الاسلام ، فزعموا ان المرأة المسلمة متأخرة ، وانها لا تتحرر ولا تتقدم الا إذا دخلت في النصرانية[3] . ثم انهم يزعمون ايضاً ان الدين الاسلامي نفسه مصدر ألم للمرأة المسلمة ؛ انها تتألم بسببه طبيعياً وروحياً وعقلياً : انها تخاف من زوجها ومن الموت ومن الطلاق[4] .

على ان الذي يفتريه المبشرون على المرأة المسلمة كثير لا سبيل الى حصره ولا الى تعداد وجوهه ، فلماذا يفعلون ذلك ؟ إن لذلك عندهم غايتين[5] .

١ — ان يثيروا عاطفة الاغنياء من النصارى في اوروبة واميركة للبذل في سبيل التبشير.

---

1) *Re-Thinking Missions* 271, 273, *cf.* 285
2) Gairdner 305
3) *Methods of Missions* 21
4) *ibid* 111 f.
5) *ibid* 110.

٢ — ان يحطموا من عزيمة المسلمين ويحملوهم على الشعور بالنقص في انفسهم .

ويبالغ بعض المبشرين فيزعم ان المسلمين لا يستطيعون ان يتخيلوا ان بامكان المرأة ان تتعلم الدين . فمن اجل ذلك يريد هذا المبشر الذكي ان يستغل المبشرون كلهم هذه الناحية فيرسلوا إلى افغانستان خاصة نساءً مبشرات منهم . من هذه السبيل تستطيع هؤلاء المبشرات ان يدخلن الى الحريم [١] فيبشرن بين نسائه من غير ان يتسرب شك الى الافغانيين بحقيقة مهمتهن [٢] .

وبعد ان تدرب هؤلاء المبشراتُ الاجنبيات نساءً وطنيات يتوجب عليهن ان ينسحبن من ميدان التبشير ويتركن مكانهن لمبشرات وطنيات من ابناء البلاد . على ان المبشرات الاجنبيات يجب ان يبقين مديرات للعمل ومبشرات من وراء ستار [٣] . والمبشرة عندهم على كل حال امرأة ذات شخصية مسيحية مشعة موحية [٤] .

وحينما ينظر المبشرون من خلال الاعصر والحوادث لا يستطيعون ان يَرَوا الا التبشير . يرى المبشرون ان الحرب العالمية الاولى قد اثرت في كل صقع وشعب ، وكذلك فعلت بالمرأة المسلمة فنبهت فطرتها الى طلب الحرية . ان لهذا التبدل الطارىء على المرأة المسلمة عندهم قيمةً خاصة : ان نساء العالم الاسلامي قد اصبحن الآن — بعد هذا التبدل الجديد — اكثر تعرضا لوصول المبشرين اليهن بالتعاليم المسيحية [٥] .

---

١) لا يزال كثير من الغربيين يعتقدون بان البيت الاسلامي دائرة مضروبة على نساء يتمتع بهن الرجل على هواه .

2) *Islam and Missions* 182

3) *Re-Thinking Missions* 182

4) *ibid* 283

5) *Missionary Outlook* 66 ff.

اما طريق التبشير بين الفتيات والنساء ، اللواتي تعضهن الحاجة خاصة ، فقد لخصها مؤتمر قسطنطينة (في الجزائر) بما يلي [١] :

« ان الحاجة الملحة المستعجلة انما هي الى إنشاء بيت او بيوت للفتيات المطلقات وللارامل الصغار . ويجب ألا تكون هذه البيوت مؤسسات كبيرة ، بل اماكن يخيم عليها الجو العائلي ، ثم تفرق النساء فيها حسب احوالهن وحاجاتهن . وكذلك مكثُ هؤلاء النسوة في تلك البيوت يجب ان يطول او يقصر حسب المقتضيات الشخصية لكل واحدة منهن . ثم ان كل فتاة يجب ان تعلم من الصناعات المحلية ما يمكنها العيش به بعد ان تغادر تلك البيوت .

« واخيراً نرى ان امثال هؤلاء النسوة يكنّ في اثناء مكثهن في هذه البيوت تحت تأثير الانجيل . ثم اننا نختار منهن اولئك اللواتي يرجى ان يمرنّ اكثر من سواهن ليكن بدورهن مبشرات بين قومهن . ولقد اعتنق الافرنسيون ايضاً هذا الرأي في التبشير بين النساء » .

*

ويتوسل المبشرون الى التأثير في اذهان الشرقيين بالابنية الفخمة العظيمة . ان كنائس الارساليات ومدارسها وانديتها يجب ان تكون في رأي هؤلاء شاهقة غريبة المظهر حتى تؤثر في عقول الزائرين وفي عواطفهم وخيالاتهم [٢] . ذلك في اعتقاد المبشرين يقرب غير النصارى الى النصرانية .

لا ريب في ان للمظاهر العاقلة تأثيراً في الناس . ولكن ما علاقة البناء الجميل العظيم بصحة الدين . ولو فرضنا ان ثمّت علاقة لوجب علينا ان نعتقد ان الاهرام في مصر وقلعة بعلبك في الجمهورية اللبنانية وهيا كل بورما والهند تدل على ان عبادة الثور المصري والوثنية الرومانية والهندية افضل من النصرانية . هذا من الناحية النظرية ، اما من الناحية العملية ، فان المبشرين قد اقاموا في القدس بناء ، فخماً يضم جمعية الشبان المسيحيين ، بناء يعد من اجمل

---

1) *Christian workar* 71

2) *Re-Thinking Missions* 13.

الابنية وافخمها في الشرق . ومع ذلك فان المبشرين انفسهم ساعدوا على تسليم فلسطين كلها لليهود . إن المبشرين لا يبشرون بالدين المسيحي بقدر ما يبشرون بالسيارات الاميركية والمنسوجات البريطانية . هم يدعون انهم يريدون ن ينشروا دين المسيح في اقاصي الأرض ثم هم يسلمون مهد المسيح نفسه الى اعداء المسيح .

ماذا تضم هذه الاندية ؟

تضم هـذه الاندية نشاطاً اجتماعياً مختلف الانواع والالوان . هنالك حفلات تقام ، ومحاضرات تلقى ، وليالي انس وسمر ، ومطاعم ، ومنامات يأوي اليها محبو الاقتصاد ، واسباب تسلية يغشاها الشباب . على ان الذي تضمه هذه الاندية ليس امراً مقصوداً لذاته ، اي ان عمدة هذا النادي لا يهمها ان يأتي الناس ليتمتعوا بما في النادي من اسباب التثقيف والترويح ، بل يهمها ان تجتذب بهذه الأسباب اناساً يستمعون الى صوت المبشر الانكليزي او الاميركي او الافرنسي او الهولندي ، اوليجد حب الغرب طريقـه الى قلوب الشرقيين على الاقـل . اما التقـوى المسيحية او الانسانية الغربيـة فيجب ان نبحث عنها في الولايات المتحـدة وميادين اوروبة !

ما الهدف الصحيح لهذه الابنية ؟

هذه الابنية الفخمة ، وما تضم من اندية ومنامات ومطاعم وما الى ذلك ، انما هي للتاثير في اولئك الذين سيصبح لهم في بلادهم اهمية ما ، او لمساعدتهم — على الاصح — لأن تصبح لهم تلك الاهمية [1] ، فيتيسر للغربيين حينئذ من طريق هؤلاء ان ينفذوا الى حياة الشرقيين.

---

1) Milligan 103.

ومن ابرز انواع الاندية « بيوت الشباب ». وهذه في الحقيقة نُزُل ينزلها من تضيق في وجوههم سبل العيش من الشبان او ممن لا بيوت لهم ابداً . وقد اصبحت هذه النزل جزءاً من البرنامج التبشيري منذ عهد قريب — بعد الحرب العالمية الاولى — فقد اخذ المبشرون يؤوون إلى هذه النزل الصبيان والبنات والذين لا بيوت لهم ، وقد كان هؤلاء يعلمون فيها او يدربون على الاساليب المسيحية(١) . ويعتمد البروتستانت الفرنسيون على مثل هذه الاندية في شمال افريقية ، وفي جنوب الجزائر على الاخص، للتبشير و بسط النفوذ(٢) .

اما في لبنان خاصة فيعد اليسوعيون امثال هذه الاندية « حرباً صليبية مسيحية(٣) » ، فهم يقولون : « إن هذه الصليبية الافخارستية تزدهر بين الأيفاع(٤) والصغار . من هؤلاء تحشد هذه الصليبية خير الجنود للاخوية(٥) ، وهؤلاء هم نواة النادى الكاثوليكي الذى أنشىء في جامعة القديس يوسف اليسوعية في بيروت.

هذا النادى ، الذى لا يزال يعمل ، هو للنصارى الكاثوليك وحدهم وعلى غرار الجمعية الكاثوليكية للشبان الافرنسيين(٦) ، ولكن يمكن ان يقبل فيه نفر من النصارى الارثوذكس على ان يكونوا اعضاء مشتركين ، لا اعضاء عاملين . إن بحوث هذا النادى(٧) بحوث مذهبية كاثوليكية . واما منهاجه فهو في الدرجة الاولى « الحياة الروحية » الكاثوليكية . وابرز ما في هذا المنهاج القداديس والبحوث المذهبية(٨) .

---

1) *ibid* 103 f.
2) *cf.* MW, Apr. '38, p. 207.

٣) في الاصل : صليبية افخارستية — Croissade Eucharistique .
٤) الايفاع : جمع يفع : الغلام في العاشرة من سنه او فوق ذلك قليلا .
٥) الاخوية جمعية دينية مسيحية .

6) Association Catholique de la jeunesse française.

٧) يعرف هذا النادي باسم : Foyer de la jeunesse Cathplique

8) *Les Jesuites en Syrie* 5 : 23 ff.

التعليم المجاني

واما التعليم الذي يظهر عليه طابع الاحسان فـان المبشرين يهتمون به ايضاً . يعتقـد اليسوعيون انه يجب ان يقوم الى جـانب كل مدرسة يدفع طلابها النفقات المدرسية مـدرسة صغيرة للفقراء مجانيـــة ، لا لتعليمهم في الدرجة الاولى بل لحفظ المظهر التبشيري بـاديا للعيان [١] . ان الفقراء اكثر انقياداً لقبول هذا المظهر من اندادهم من ابناء الاغنياء .

هذه النزعة في التعليم المجاني لا ينفرد بها اليسوعيون الافرنسيون وحدهم ، بل يتنازعها جميع المبشرين.ولقد استطاع المبشرون المشيخيون [٢] الامريكيون ان يغلبوا المبشرين الآخرين في هذا الضرب من الاحسان [٣] . ومن الامثلة التي تدل على اهتمام المبشرين بالتعليم المجاني ان المدارس الفرنسية والروسية (كانت) تعلم مجاناً وتقدم الكتب والطعـام واللباس احياناً بلا مقابل [٤] .

المكاتب والتصوير والاستكشاف والنشر

واستغل المبشرون جميع اوجه النشاط الاجتماعي للتبشير ، حتى تلك التي لا يسبق الوهم الى انها بؤرات تبشيرية . من هذه الاوجه كلها انشاء المكتبات لبيع الكتب في الظاهر ولتكون ستاراً لأدارة اعمال التبشير . ولقـد اتفق ذلك في اول الامر حينما كانت الـدولة العثمانية تنظـر الى المبشرين نظـرتها إلى الجواسيس ، كما مر معنا في فصل « السياسة ».

---

1) *cf. ibid* 7 : 7.

٢) المشيخيون فرقة من البروتستانت Presbyterian

3) Richter 222 f.

4) *ibid.* 227.

من هذه المكاتب مكتبة شارليه بازييه[1]، ولا تزال قائمة الى اليوم في السوق الطويلة في بيروت باسمها و بنائها . ثم هنالك المصور القديم المعروف باسم بونفيس[2]، ولقد كان محله في بيروت مشهوراً، وهو الذي خص نفسه باخذ مشاهد سورية ولبنان على بطاقات بريدية. على ان محل بونفيس قد زال الآن . وهنالك نفر كثيرون جاءوا الى هذه البلاد تجاراً وأساتذة واطباء ولكنهم كانوا طلائع للتبشير على ما عرفنا من قبل . ويهمنا ان نعلم الآن ان اصحاب مكتبة شارليه بازييه والمصور بونفيس كانوا من البروتستانت الافرنسيين، وانهم ظلوا يعيشون في بلادنا حتى عام ١٩٢٦[3].

وهنالك نفر من المبشرين جاءوا الى بلادنا تحت ستار البحوث العلمية كالأستكشافات الجغرافية والجيولوجية . من هؤلاء وليم غودل وعالي سميث ووليم طومسن الذي ظل يعمل مبشراً تحت ستار العلم خمسين عاماً[4].

ومما لا ريب فيه ان للكتب تأثيراً كبيراً في الناس . وتلك ظاهرة لم يغفلها المبشرون، إذ هم يرون ان اشد الوسائل اثراً كان انتاج النشرات المسيحية الى المسلمين[5]. و بصرف النظر عن قيمة هـذا الاثر الذى يزعمونه، فان سياستهم في انتاج تلك النشرات تتبع التوجيه التالي :

يحرص المبشرون في الدرجة الاولى على نشر الكتب الدينية كالاناجيل الاربعة، وعلى اشياء من التوراة . ثم انهم يطرقون في نشراتهم موضوعات مختلفة ولكن يفرغونها في قالب

1» Charlier Béziés.
ولكنها اليوم اصبحت تبيع الى جانب الكتب وادوات الكتب اشياء اخرى .

2» Bonfils.

3» Bianquis 26

4» Wm. Goodell, Elie Smith, Wm. Thomson, *cf.* Richter 97 f.

5» Enc, of *Missions* 600.

مسيحي ديني. والمبشرون حريصون جد الحرص على ان يتولى كتابة هذه الموضوعات اشخاص وطنيون لا مبشرون ، او اشخاص صبأوا الى النصرانية حديثاً ، لأن هؤلاء يكونون اقدر على فهم عقلية جماهيرهم وعلى عرض تلك الموضوعات على شكل يقرب من فهم تلك الجماهير [١] .

وفي بعض الاحيان يختار المبشرون موضوعات اسلامية لها مقابل في الديانة النصرانية [٢] ثم يموهون الحقائق و يقفزون فوق الفروق . إن القرآن الكريم يسمى المسيح « كلمة الله » ، ومعنى ذلك ان الله تعالى ألقى كلمته ، أي أمره ، بأن يولد المسيح على ذلك الوجه المعجز في التاريخ . ولكن المبشرين يأخذون « كلمة الله » ليفسروها التفسير النصراني . ووجه الخلاف ان كل شيء في هذا العالم كما يرى المسلمون كان بأمر الله : « انما امره إذا اراد شيئاً ان يقول له : كن ، فيكون [٣] » . اما النصارى فيعتقدون ان التعبير : « كلمة الله » تعبير خاص بالنصرانية يجب ان يفهم على ان المقصود به عيسى بن مريم وحده ، وانه دالّ على الالوهية في المسيح .

وللمبشرين ان يفهموا ذلك كما يريدون ، ولكن ليس لهم ان يقولوا على الاسلام ما لا يعلمون . ان كل موجود وكل حادث في العالم « امر » يلقى من الله : « انما امره إذا اراد شيئاً ان يقول له : كن فيكون » . وفي القرآن الكريم آيات كريمات تجعل عيسى كآدم مثلا ، وتجعل آدم يتلقى من ربه « كلمات » لا كلمة واحدة :

— ان مثلَ عيسى عند الله كمثلِ آدم خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون . الحق من ربك فلا تكوننّ من الممترين [٤] .

---

1) cf *Re-Thinking Missions* 180 ff.
2) cf. *Methods of Mission* 79 ff.

٣) القران الكريم ٣٦ (سورة يس) : ٨٢ .
٤) سورة ال عمران (٣ : ٥٩ — ٦٠) ، الممترين : الشاكين . امترى : شك .

— فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، انه هو التواب الرحيم [١] .

ومع اننا نحن لسنا هنا في مجـــال حِجاج فقهي لا فائدة منه ، فاننا لا نريد ان يقول المبشرون والمستعمرون بعلمهم او باهوائهم ما يضر بالدين والقومية والوطن ثم نظل ساكتين لا نقول كلمة حق في وجه جاهل او ظالم .

ولقد تبنّى المبشرون الفرنسيون خاصة هذه الطريقة، ثم اكثر من الكلام فيها المستشرق الفرنسي لـويس ماسينيون ، الذي يقف علمه واستشراقه عـلى التبشير الديني للوصـول الى اهداف استعمارية ، شأن العدد الاكبر من المبشرين المتزيّين بكل زي والمتلبسين بكل لباس .

ويرى المبشرون ان يتوجهـوا بالكتب إلى طبقتين من المسلمين على الاخص : إلى طلبة الازهر في مصر ، عـلى اعتبار ان الازهر معقل الاسلام ، وان الصابىء الازهري — إذا اتفق ذلك — يكون عوناً للمبشرين على زيادة التغلغل في العالم الاسلامي . وعلى كل فالتبشير بين الازهريين لا يزال تجربة فقط ، وإن كان المبشرون ينتظرون ان يتسع وان يقـوم في الدرجة الاولى على الجدال والوعظ [٢] .

واما الطبقة الثانية التي يحب المبشرون ان يصلوا إليها بكتبهم الدينية فهي طبقة النساء. انهم يزعمون ان المرأة المسلمة محجوبة (عن المجتمع والعلم ...) فيجب ان توضع لها كتب تتفق مع حالها وعقليتها ودرجة تفكيرها [٣] .

الصحافة خاصة

منذ انتهاء الحرب العالمية الاولى والمبشرون يسعون الى استغلال الصحافة استغلالاً واسعاً

---

١) سورة البقرة (٢ : ٣٧).

2) Gairdner 274 f.

3) *Methods of Missions* 85 f.

في سبيل التبشير . انهم يرون ان المسلمين يكثرون من قراءة الصحف ، ولكنهم يرون ايضاً ان « المادة المسيحية » قل ان يقبل عليها القراء ، وقل ان يفسح لها الصحفيون مكاناً في صدر صحفهم إلا اذا عدت في باب الاعلانات ودفع المبشرون عنها اجراً بعدد سطورها[1] .

إن الصحافة لا توجه الرأي العام فقط او تهيئه لقبول ما تنشر عليه ، بل هي تخلق الرأي العام . ويعلن المبشرون انهم استغلوا الصحافة المصرية على الاخص للتعبير عن الآراء المسيحية ، اكثر مما استطاعوا في اي بلد اسلامي آخر . لقد ظهرت مقالات كثيرة في عدد من الصحف المصرية ، إما مأجورة في اكثر الاحيان ، او بلا اجرة في احوال نادرة[2] .

على ان المبشرين انشأوا في العالم صحفاً يومية واسبوعية خاصة بهم ، فهنالك « بشائر السلام » و « الشرق والغرب » في مصر . ثم هنالك النشرة الاسبوعية التي انشأها البروتستانت في بيروت وظلت تصدر حتى الى ما بعد الحرب العالمية الثانية ، ثم وقفوها عن الصدور لأنه اصبح من المتعذر عليهم أداء رسالتهم التي نذروا انفسهم لها ، كما قالوا هم .

***

ونحن سنتناول هنا الكلام موجزاً على جريدة « البشير » ، وللقارىء ان يجعل هذه الجريدة نموذجاً لجميع الصحف التبشيرية :

كانت المنافسة شديدة بين البروتستانت والكاثوليك ، فلما انتقل مركز التبشير البروتستانتي من بلدة عبيه (في الشوف ، بلبنان) الى بيروت نقل اليسوعيون مركز نشاطهم من غزير (في شمالي لبنان) إلى بيروت ايضاً . ولقد كانت الصحافة هي المظهر الاول للمنافسة بين الخصمين المتفقين على الاسلام . ويظهر ان ثلاث صحف من الصحف التبشيرية الأربعة

1) *cf. Christian Literature* 257 ff., Cash 89.
2) *cf.* Cash 89 ; *Christian Literature* 259 f.

التي كانت تصدر في بيروت عام ١٨٧٠ كانت بروتستانتية ، وهنالك صحيفة واحدة فقط كانت كاثوليكية [١] .

كانت جريدة البشير جريدة دينية في المقام الاول تقدم في مقام الشرف من صدرها اخبار رومية والبابوية . اما العمل الرئيسي لجريدة البشير فظاهر الى حد كبير في ردودها غير المتراخية على اعداء البابوية واعداء توحيد الايمان الكاثوليكي [٢] . ولقد كانت رومية دائماً نصب عيني « البشير » ، وهو يتابع عمله الديني والتمديني (كذا) . اما الآن ، بعد ان كثر اعداؤه، فان نار ردوده قد بردت قليلا ولكنها لم تنطفىء [٣] .

وكان محررو البشير يتمتعون بحماية فرنسا ، ولذلك اخذوا انفسهم برد هذا الدّين من المعروف الى الامة الفرنسية التي تستحق ان تعد بنت الكنيسة البكر [٤] .

ولقد اعتمد المبشرون مدينتين لنشر كتبهم وصحفهم : القاهرة و بيروت . اما القاهرة فاتخذها البروتستانت مركزاً لتوزيع المنشورات المسيحية في القطر المصري وفي جميع العالم الاسلامي [٥] ، كما انهم اقاموا المطبعة الامريكية في بيروت ، تلك المطبعة التي اصبحت اهم وسائل التبشير في الشرق كله [٦] . اما اليسوعيون فقد ركزوا جميع جهودهم في المطبعة الكاثوليكية في بيروت منذ عام ١٨٧١ ، وقاموا من طريقها بعمل تبشيري في الدرجة الاولى [٧] .

---

1) *Les Jesuites en Syrie* 5 : 8
2) *ibid.* 6 : 28
3) *ibid.* 6 : 30
4) *ibid.* 6 : 32
5) Gairdner 275.
6) Addison 123 ; Gairdner 275
7) *Les Jesuites en Syrie* 6: **21**.

الكشفية والمخيمات

حتى الكشفية من وسائل التبشير عندهم ، جاء في مقررات مؤتمر المبشرين الذي انعقد في القدس ما يلي [1] :

« نحب ان نؤكد الاهمية البالغة للعمل بين الصغار وللصغار قبل ان تتشكل عقليتهم واخلاقهم تشكلا اسلامياً . ان جميع الوسائط التي استخدمت وظهر نجاحها يمكن ان تستخدم من جديد لتوقظ عقول الصغار وتجلو اخلاقهم ، سواء في ذلك ما تعلق بالمدرسة او ما كان خارجاً عن نطاق المدرسة . فمن ذلك مثلا : الكشفية للفتيان وللفتيات — مدارس الاحد (الدروس الدينية التي تعطى ايام الآحاد بصورة مباشرة او غير مباشرة) — جمعية الشبان المسيحيين وجمعية الشابات المسيحيات وسواهما من منظمات الشباب — المخيمات والمؤتمرات للطلاب والاندية والرياضة وما يتصل بذلك — بيوت الطلبة التي زادت الحاجة اليها لزيادة عدد الطلاب (إن هذه البيوت يجب ان تكثر حتى يمكن ان نجتذب هؤلاء الطلاب الى مملكة المسيح) — بيوت للاطفال يشرف عليها مبشرون فقط .

ومثل هذا يفعل الافرنسيون في المغرب العربي ايضاً ، حتى انهم يرسلون قسيسين يشرفون على مخيمات الكشافين ويوجهونها توجيهاً ظاهراً لا استحياء فيه . ولقد عقد مؤتمران قبل عام ١٩٣٨ لمنظمات الشباب المختلفة ومنها : الكشافة والمرشدات (للفتيان والفتيات) ، كان البرنامج فيها يدور خاصة حول هذه الموضوعات: « التوراة ، كلمة الله » و « الكنيسة » ، « جسد المسيح » .

وفي عام ١٩٣٥ نظمت مؤسسة « الحزمة المغربية [2] » ، بالتعاون مع « اللجنة التبشيرية

---

1) *Christian Workers* 23 f.
2) Gerbe nord - africaine.

لشبان فرنسا » ، مخيماً تبشيرياً نقل بعد مدة الى جنوبي الجزائر . وقد اشترك في هذا المؤتمر التبشيري ستون من زعماء (حركة التبشير) في فرنسة وسويسرا [١] .

انعاش القرى
والصناعة والزراعة

ان الذين يعيشون في سورية ولبنان يعرفون شيئاً عن مشروع انعاش القرى الذي تقوم به الجامعة الاميركية في بيروت ، هـذا المشروع الذي تجمع له الاموال من طريق الحفلات والتبرعات ، وربما جند له الشباب ذكوراً واناثاً على الاخص من المسلمين احياناً .

ويختلف مشروع انعـاش القرى من غيره من وجوه التبشير في ان التبشير فيه يجب ان يكون مستتراً لا ظـاهراً [٢] . من اجل ذلك خاطبنا بعض الشبان المسلمين الذين اشتركوا عن حسن نية في هذا المشروع فأدركنا انهم هم انفسهم لم يفطنوا إلى عنصر التبشير فيه الا بعد ان دللناهم على مواطن ذلك . وهكذا يرى المبشرون ان « تصرف العناية الاولى للتبشير بين النساء في القرى والدساكر ، بعد ان كاد التبشير ان يكون قاصراً على سكان المدن [٣] » .

ويجب ان يجري التبشير في المزارع على شكل خاص ، يعيش المبشرون مع الفلاحين عيشة فلاحة وزراعة من غير ان يتظاهروا بأنهم مبشرون ، ولـكنهم يجربون ان يحيوا حيـاة شخصية مسيحية.وهكذا يعتقدهؤلاء ان التأثير المسيحي ينتقل من هذه الطريق الى الفلاحين غير النصارى انتقـالا هادئاً غير ملحوظ. على ان هذه الحياة يجب ان تكون عندهم جزءاً من حركة التبشير العامة [٤] .

ويجب ان نعتبر ان التبشير الحقيقي يقوم في هذه المؤسسات الاجتماعية كالمدارس

---

1) MW, Ap. '38, p. 207.
2) *Re-Thinking Missions* 277.
3) *ibid* 277 ff.
4) *Re-Thinking Missions* 230, *cf.* 214, 236, 278.

والكليات والمستشفيات والمستوصفات النقالة على الاخص والمحطات الزراعية ودور النشر . وكل تبشير خارج عن هذه المؤسسات انما هو شذوذ عن القاعدة الصحيحة [١] .

وكذلك الصناعة تستحق من عناية المبشرين ما تستحقه الزراعة تماماً. لذلك فرض المبشرون على المبشرين النصارى منهم وعلى النصارى ممن ليسوا مبشرين، ان يخالطوا العمال ويعايشوهم حتى يسيطروا على الاوساط الصناعية بروح نصراني . وعلى المبشرين ان يؤثروا في العمال غير النصارى بسلوكهم الشخصي فيمثلوا لهم باقوالهم واعمالهم ان التقدم مسيحي ، وان الاختراعات والاكتشافات مسيحية ، وان الطرق الحديثة في الصناعة مسيحية ايضاً [٢] .

*

وهكذا يبدو لنا بجلاء ، قبل ان تنفض القلم من مداده ، ان جميع اعمال البر والاحسان، التي يقوم بها المبشرون ، انما هي وسائل للوصول بالنصرانية الى الشعوب غير النصرانية ، ثم التسرب بالاستعمار الغربي الى الشعوب الشرقية . ان جميع ما يتظاهر به المبشرون من النبل انما هو خداع ونفاق ، حتى في تلك الاعمال التي لا يسبق الى وهمنا انها كذلك ، كمشروع انعاش القرى مثلا .

1) *ibid* 12.
2) *ibid* 243. *cf.* 237 ff.

الفصل العاشر

تشويه الثقافة العربية الاسلامية

وسيلة الى الحط من شأن العرب والمسلمين في نفوسهم

المبشرون وانصارهم يشجعون اللغة العامية رميا الى تفكيك وحدة العالم الاسلامي

•

رأينا في الفصول التسعة السابقة ان المبشرين قد درسوا العالم الاسلامي من جميع نواحيه ثم وضعوا الخطط للقضاء على كل مقاومة او مناعة فيه، في كل ناحية من تلك النواحي. لقد استغلوا في سبيل مآربهم كل وسيلة، من العلم والطب والسياسة والحياة الاجتماعية ومن الثقافة والادب واللغة. لقد حرصوا على ان يسلبوا الاسلام كل مناحي الشخصية وكل اسباب الحياة. ولكن العالم الاسلامي لم يمت. لقد ظل العالم الاسلامي يستمد الحياة من ثقافته التي ما زالت حية تنير العالم منذ الف واربعمائة سنة. ان الشرقيين والعرب والمسلمين قد اقتنعوا انهم اخذوا يتأخرون منذ مطلع العصور الحديثة في ميادين الاختراعات المادية والعلوم النظرية والعملية وفي عالم السياسة الدولية وفي اسباب الحرب وآلاتها، ولكن الشرقيين والعرب والمسلمين موقنون حق الايقان انهم في العصور الوسطى قد ادّوا للعالم كله رسالة من اعظم الرسالات التي ادّتها امة من الامم، بشهادة الفرنجة انفسهم قبل عصر التبشير و بعد عصر التبشير ايضاً[1].

---

1) *Cf.* George Sarton, *Introduction to the History of Science* (3 vols.); *The Incubation of westsrn Calture in the Middle East.* وقد نقل هذا الكتاب الثاني الى العربية احدنا الدكتور عمر فروخ باسم « الثقافة الغربية في رعاية الشرق الاوسط »، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٥٢.
Aldo Miele, *La Science arabe et son rôle dans l'évolution Scientifique mondiale*; Heinrich Suter, *Die Mathematiker und Astronomen der Araber und ihre Werke*; Gustave Le Bon, *La Civilization arabe* (architecture); A. R. Nykl, *Hispano - Arabic Poetry and its Relations with the Old Provençal Troubadours.* Joseph Hell, *Die Kultur der Arber*; Edward J. Byng, *The world of the Arabs* (Boston 1944), Ch. XIV : *Our debt to Arab Civilization*, pp. 235 - 268; Ch. XV : *what Moslem Thought Can Teach Us.* pp. 269 - 281.

رأى المبشرون والمستعمرون عظمة الثقافة العربية الاسلامية وانها مصدر عزة للشرق والعرب والمسلمين ، ثم انهم ايقنوا ان امة لها هذه الثقافة لا يمكن ان تخنع او تذل او تبيد . وهكذا انصرفت اذهان هؤلاء المبشرين والمستعمرين الى تشويه وجه هذه الثقافة والى الحط من شأنها في نفوس اصحابها . وكان العمل عليهم سهلا ، او هكذا ظنوه ، فقسموا ذلك العمل قسمين : قسماً يتناول حقيقة الرسالة التي اديناها نحن الشرقيين العرب المسلمين وما فيها من اوجه العظمة والحقائق التي كانت اساس الرقي الانساني اوما فيها من الآراء الصحيحة الخالدة على الدهر ، ثم قسماً من الحقائق الحديثة التي لم تعرف قبل العصر الحاضر .

اما القسم الاول فساروا فيه ينحلون حقائقه الصحيحة وآراءه الصائبة لغير العرب ولغير المسلمين ، يجمع هذا كله قول ارنست رينان الافرنسي : « الفلسفة العربية هي الفلسفة اليونانية مكتوبة باحرف عربية » . فكل مظهر عزيز في الفلسفة الاسلامية عند رينان واتباع رينان انما هو للفرس اولليونان او للنساطرة وللبعاقبة ، او انه مشكوك فيه . وكتب المبشرين والمستعمرين مملوءة بمثل هذا الانكار على العبقرية العربية .

ولا نعلم نحن ما الذي دفع وزارة المعارف اللبنانية الى تبني هذا الرأي — غير اصابع اليسوعيين المبشرين المستعمرين — وترديده في صور مختلفة في امتحانات البكالوريا . فلقد سئل هذا السؤال في اشكاله المختلفة في دورات كثيرة ، (قبل الاستقلال والخروج من الانتداب الافرنسي و بعد ذلك) :

— تشرين الاول ١٩٣٤ : هل من فلسفة عربية ؟

— تشرين الاول ١٩٤١ : هل اضاف فلاسفة العرب شيئاً جديداً الى فلسفة الاقدمين حتى يمكن القول ان للعرب فلسفتهم كما لليونان فلسفتهم ؟

— تشرين الاول ١٩٤٤ : قال ارنست رينان ليست الفلسفة العربية سوى الفلسفة اليونانية مكتوبة باحرف عربية .

— حزيران ١٩٤٦: قيل : لم تستقم للعرب فلسفة لأنهم لم يوحدوا بين العناصر الاجنبية التي نقلوها ، انما اكتفوا بعرضها متجاورة لا متفاعلة .

— تشرين الاول ١٩٤٨ : قال ارنست رينان : ليست الفلسفة العربية سوى الفلسفة اليونانية مكتوبة باحرف عربية .

هذا عدد من الدورات التي سئل فيها مثل هذا السؤال . والويل للتلميذ الذي ينتصر للفلسفة « العربية » انتصاراً ظاهراً . اما كلمة « اسلامية » وحدها فقد تفسح للطالب المجال ليجرب حظه مرة اخرى في دورة تالية ، اذا ظفر بها « مصحح » من ذوي الاتجاه المعلوم .

*

ونحن لا ننكر ان يكون العرب قد بنوا فلسفتهم على اساس ما قدمه اليونان للعالم . ولكن من غير الانصاف ان نقول ان العرب لم يكونوا سوى نقلة ، سوى حمالين حملوا الفلسفة كما هي من اليونان الى العالم. ان العرب قد زادوا في الفلسفة وناقشوا ونقحوا وصححوا وشرحوا وادّوا رسالة قل ان ادّت مثلها امة في التاريخ[1] .

واي قول اوضح واصوب ، في العلم ، من قول الدكتور جورج سارطون ، احد ثقاة « تاريخ العلم في العالم » حينما قال في هذا الشأن نفسه :

« غير ان اولئك الذين ينكرون محاسن العرب ويبخسونها قيمتها ليحتجون مرة ثانية بقولهم : ان الاخذ من مصادر متعددة ليس ، على كل حال ، خيراً من الاخذ من مصدر واحد . تلك طريقة في المجادلة مضللة وخصوصاً اذا كان الكلام يتناول الرياضيات . ثم ان الرياضيين العرب — في تينك الحالتين المذكورتين آنفاً — « لم ينسخوا من المصادر اليونية

---

١) راجع عبقرية العرب في العلم والفلسفة ، للدكتور عمر فروخ الطبعة الثانية، ١٩٥٢ ، ثم موضوعات محللة في تاريخ الفلسفة الاسلامية ، له ايضاً ، ص ٥-٦ ، ٢١-٢٣ ، ٥١ ، ٥٥-٥٦ ، ٦١ .

والسنسكريتية نسخاً ، ولو انهم فعلوا ذلك لما جاءوا بفائدة ، ولكنهم جمعوا بين المصدرين ثم ألقحوا الآراء اليونانية بالآراء الهندية . واذا لم يكن هـذا الذي فعله العرب ابتكاراً فليس في العلم اذن ابتكار على الاطلاق . فالابتكار العلمي في الحقيقة انما هو حياكة الخيوط المتفرقة في نسيج واحد ، وليس ثمت ابتكارات مخلوقة من العدم [١] » .

*

هذا ما يقـوله الاجانب الغربيون عـن قيمة الثقافة العربية وعن الرسالة العلمية التي اداها العرب والمسلمون الى العالم . ولكن الاستعمار يريد ان يسدل دائماً دون جهود الاسلام ستاراً كثيفاً . ونحن لا نستغرب ان يحاول الاستعمار تحطيم نفوس رعاياه—ولقد كان المنتدبون الافرنسيون يفعلون ذلك قبل عهد الاستقلال عام ١٩٤٣—ولكن ما عذر الحكومة اللبنانية في الاستمرار على سياسة الانتداب والاحرار على تنفيذها في هذه الناحية ، في عهد الاستقلال ؟

واذا كان للعرب حق واضح في السير على رأس الموكب الفلسفي ، فـان حقهم في « ادبهم العربي » اوضـح . ان العرب مشهورون بالادب ، ويكفيهم فخراً ان الادب العربي اقدم الآداب الحية الى اليوم . فلا الادب الهندي ولا الادب اليوناني او اللاتيني قد عاش بعد ان طلع العرب بادبهم عـلى العالم . وحسبنا ان نعلم ان اكثر الادب الاوروبي الحديث قـد قام على اسس معروفة في الادب العربي نفسه . ان الأدب البروفنسالي — ادب جنوبي فرنسة في العصور الوسطى — قد بني فعلا على ما عرفه الفرنسيون الاولون من الوان الادب العربي في الشرق في أثناء الحروب الصليبية او في الاندلس [٢] . اما نشوء الادب الايطالي خاصة فالمعروف

---

١) الثقافة العربية في رعاية الشرق الاوسط ، تأليف الدكتور جورج سارطون ، استاذ في جامعة هارفرد (بالولايات المتحدة) ، ورئيس الاتحـاد الدولي لتاريخ العلم . نقله الى اللغة العربية الدكتور عمر فروخ ، الطبعة الاولى ، منشورات مكتبة المعارف في بيروت ، ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٢ م ، الصفحتان ٥٥-٥٦

2) *cf.* Nykl, *Hispano - Arabic Poetry.*

ثم طالع مقالا للمستشرق الدكتور الاستاذ يوسف هل : هل تأثر الشعر الغربي بالادب العربي ، مجلة الامالي ، بيروت ، السنة الاولى ، العدد الاول ، ٢ ايلول ١٩٣٨ ص ٣ - ٥ ، ثم ثلاثة مقالات في المجلة نفسها ، السنة الاولى الاعداد ٤-٥-٦ .

ان دانتي الليغييري هوصاحب المقام الاول فيه،ودانتي نفسه قد استمد كتابه الخالد « الكوميديا الالهية » من مصادر اسلامية ، من « الفتوحات المكية » لمحيي الدين بن عربي على القطع ، ومن « رسالة الغفران » لابي العلاء المعري في الاغلب [1] .

وهنالك مجال متسع للبحث في قيمة الادب العربي الذاتية وفي اثره في الآداب الاجنبية. ولكن دعاة الاستعمار ينكرون ذلك و يصفون الادب العربي بالنقص والجمود و بالتخلخل و بأنه بعيد عن النزعة الانسانية . ونحن هنا لا نريد ان نستشهد باسماء تحط من قيمة كتابنا ولكننا سنعرض القضية عرضاً موجزاً يستطيع القارىء ان يقيس عليه .

نشرت [2] مجلة لاروس البارزية فصلا عن العالم العربي فيه التمويهات التالية :

— العالم العربي هو مصر والشام والعراق والحجاز واليمن ونجد ، مساحته ثلاثة ملايين كيلومتر مربع وسكانه اربعون مليوناً .

— ان نصارى لبنان هم الذين بعثوا النهضة العربية .

— البربر وحدهم اصحاب المدنية في شمالي افريقية والأندلس.

ولقد تولى الاستاذ محمد كرد علي — رئيس المجمع العلمي العربي - بدمشق الرد على هذا المقال و بين وجه الحق في ما ذكرت مجلة لاروس :

١ — العالم العربي اوسع رقعة واكثر سكاناً مما زعم الكاتب الفرنسي المستعمر (وذلك راجع الى حقائق جغرافية واحصاءات لا سبيل الى دفعها : كحذف المغرب كله من العالم العربي) ، ثم ان مساحة شبه جزيرة العرب وحدها ثلاثة ملايين كيلو متر مربع .

---

1) cf. Miguel Asin Palacios « الاسلام والكوميديا الالهية »

٢) راجع « مجلة المجمع العربي » بدمشق ، تشرين الاول ١٩٤٨ ص ٦١٧ - ٦١٨

٢ — ان النهضة العربية الحديثة بدأت في مصر لا في لبنان ، وهذا ايضاً بين من النظر في تاريخ النهضة الحديثة . ولـكن المستعمرين يريدون سلب المسلمين كل شيء حتى النهضة اللغوية الأدبية التي هي عنوان لغتهم وادبهم .

٣ — ان البربر لم يقيموا وحدهم مدنية المغرب والاندلس ، بل شركهم العرب ايضاً (وعلى كـل فان البربر كالعرب مسلمون ، والمدنية التي خلقوها مدنية عربية) .

ويختم الاستاذ محمد كرد علي مقاله بهذا الحـكم الصائب :

« ولذلك نرى من واجبنـا ان يشك كـل عربي وكل مسلم في اكثر ما يصدر من « الاحكام من الافرنسيين عـلى الاسلام والمسلمين ، ذلك لأنه ثبت ان من الفرنسيين من « لا ينظرون الى كل امر الا بمنظار الاستعمار » .

ويظهر ان الاب يوحنا الفاخوري البوليسي لم يرقه رد الاستاذ محمد كرد علي فنشر في مجلة « المسرة » [١] رداً ملأه بتعابير جـارفة بعيدة عن روح العلم . والاب يوحنا فاخوري من الذين وقفوا انفسهم على انـكار فضل العرب في الادب والفلسفة ايضاً [٢] ، ومن الذين يصرون على التعابير الجارفة التي استعملها هو ايضاً في رده على الاستاذ محمد كرد علي .

ولقد تنـاول الدكـتور عدنان الخطيب [٣] الرد عن الاستاذ كرد علي مؤيداً رده بذكر احصاءات وتواريخ تقطع بان النهضة الحديثة في العالم العربي قد بدأت في مصر .

*

وظل هـذا الموضوع يجري في لبنان وخارج لبنان على اقلام نفر من المتأدبين الذين لا

---

١) مجلة المسرة ، حريصا (لبنان) تشرين الثاني ١٩٤٨ .

٢) راجع ابو العلاء المعري فيلسوف الشعراء حريصا (لبنان) ١٩٤٤ ، ص ١٤ الحاشية

٣) مجلة المجمع العلمي العربي ، تموز ١٩٤٩ ، ص ٤٧٠-٤٧٨

يملكون زمام انفسهم ، ومن الذين لا يمكن ان يكون لرأيهم الشخصي وزن يميل بالامور ذات اليمين او ذات الشمال حتى غمس فيه قلمه مؤرخ كبير وثقة في تاريخ العرب ، هو استاذنا الدكتور فيليب حتي ، فقال [١] :

« ولم تبدأ أمارات [٢] الحياة الادبية الجديدة بالظهور الا في القسم الاخير من القرن « التاسع عشر. وكانت الكثرة من قادة هذه الحركة الجديدة نصارى من لبنان تعلموا او استوحوا « من جهود المبشرين الاميركيين » .

وحبذا ان يعذرنا استاذنا الدكتور فيليب حتي اذا قلنا ان النهضة بدأت في النصف الاول لا الاخير من القرن التاسع عشر . ثم ان حصر شرف الحركة الجديدة بنصارى لبنان فيه ظلم للتاريخ وللادب معاً . وقد كنا نربأ بالدكتور فيليب حتي ان يساير قوماً ليسوا من نجره ولا من اهل موكبه.

ولقد رد على الدكتور حتي ناقد في مجلة الثقافة [٣] فجرّحه . وكان الاخلق بالدكتور حتي ان لو ظل بعيداً عن هذا المجرى الضحل الذي يخوض فيه بعض من لا شأن لهم بعد في عالم الادب والتاريخ. انه اكثر علماً من ان يضع النصف الثاني مكان النصف الأول ، من القرن التاسع عشر ، حتى يهيء مكانا قلقا لاشخاص جاءوا في الحقيقة في اعقاب اليقظة الادبية لا على رأسها . ان القضية قضية تاريخ وارقام وكتب مطبوعة لا قضية عواطف .

*

بمثل هذا يحارب المبشرون والمستعمرون العرب والاسلام . اما اشد ما نلقاه نحن فهو

---

1) Enc. Americana (**1948** Edition) *under* Arabic Literature, p 129.

٢) علامات

٣) مجلة الثقافة (القاهرة) . السنة الحادية عشرة . العدد ٥٣٨ (١٨ ابريل - نيسان ١٩٤٩) ص ٤٢ - ٤٣

ان هؤلاء يستخدمون في هذه السبيل افراداً منا احياناً ، افراداً لا يتورعون احياناً عن ان يسخروا العلم والضمير ويقلبوا الحقائق والارقام رأساً على عقب حباً بالزلفى او بالاتجار .

على ان هـذا ايضاً لن يفتّ في عضد الشرق ، وستظل الثقافة العربية على الرغم من بضعة اسئلة في الامتحانات الرسمية وعلى الرغم من افراد باعوا انفسهم في غير سبيل الله – تمثل الرسالة التي اداها العرب في تاريخهم المجيد وفي تاريخ العالم .

*

ونحن نحب ان نأتي في هذا الفصل القصير برأي الدكتور فيليب حتي في الفيلسوف المسلم ابن رشد لنرى ، رأيَ العين ، ان الشخص الذي يحـاول ان يغمط الثقافة العربية ويبخس المسلمين حقهم لا يستطيع ان يفعل ذلك في كل مكان ، وخصوصاً في الساعات التي يكون فيها ضميره العلمي مستيقظا ، قال الدكتور حتي[1] :

« كان اعظم فلاسفة الاسلام ، بالاضافة الى الاثر الذي احدثه في الغرب على الاخص،
« الفلكي الاندلسي والطبيب وشارح كتب ارسطو ابو الوليد محمد بن رشد . وان اعظم ما
« لابن رشد في الطب كتابه الجامع المعروف باسم (الكليات) ، وفيه ان الانسان لا يصاب
« بالجدري مرتين . كما ان عمل شبكة العين فيه مشروح بوضوح . على ان نـور ابن رشد
« الطبيب قد كُسف بنور ابن رشد الفيلسوف والشارح ... اما بين اليهود وفي العالم المسيحي
« فقد عُرف ابن رشد بانه في الدرجة الاولى شارح لكتب ارسطو . ولكن يجب ان نذكر

1) Philip K. Hitti, History of the Arabs, fourth Edition, London 1949, pp. 582-585.

ان نقل النص الانكليزي من كتاب الدكتور فيليب حتي هو لمؤلفي هذا الكتاب . على ان هنالك ترجمة عربية للكتاب المذكور . راجع « تاريخ العرب » (مطول) . بقلم الدكتور فيليب حتي . نقله الى العربية الدكتور ادوار جرجي والدكتور جبرائيل جبور ، بيروت ١٩٤٩-١٩٥١ (راجع ٣ : ٦٩٣ – ٦٩٤) .

« ان المقصود بالشارح في العصور الوسطى هو المؤلف الذي كان يستعين ببعض كتب الاولين « العلمية او الفلسفية ليجعل منها اساسا او إطاراً لكتبه هو ... ولقد اثار ابن رشد بشروحه « على ارسطو عقول فقهاء النصرانية وعلمائها في العصور الوسطى الى حد لم يصل اليه مؤلف « غيره ، فمنذ اواخر القرن الثاني عشر الى اواخر القرن السادس عشر — اربعة قرون « كاملة — ظلت فلسفة ابن رشد هي المذهب الفكري السائد ، على الرغم من رد الفعل الديني « الذي احدثته هذه الفلسفة اولاً بين المسلمين في الاندلس ، ثم بين التلموديين من اليهود ، « واخيراً بين رجال الدين من النصارى . وما من شك في ان ابن رشد كان فيلسوفا عقليا ، « وكان على حق في اخضاعه كل شيء — سوى الشريعة والمنزلة — السلطان العقل . ولم « يكن ، كما يخيّلُ الى بعضهم ، باعث الالحاد والكفر ولا عدواً للدين ... ولقد مثل ابن « رشد اقترابا من الفلسفة الارسطوطاليسية الخالصة (غير الممزوجة بالمذهب الاسكندراني[1]) . « وبعد حذف اشياء لا يرضى عنها رجال الاكليروس في فلسة ابن رشد ، غدت فلسفة ابن « رشد موضوع الدراسة في جامعة باريس وفي سواها من مؤسسات الدراسة العليا . ولقد « بقيت فلسفة ابن رشد ، بكل حسناتها وبكل ما اضيف اليها من اخطاء ، عاملا حيا في « الفكر الأوروبي حتى ولادة العلم التجريبي الحديث » .

اللغة العامية

ويرى اكثر الهاجمين على استعمار الشرق ان تقطيع اوصال العرب والمسلمين لا يمكن

---

١) المذهب الاسكندراني مذهب فلسفة نشأ في الاسكندرية . وهو يعرف خطأ بالفلسفة الافلاطونية الحديثة او الفلسفة الافلاطونية الجديدة . ويقوم المذهب الاسكندراني على محاولة التلفيق بين الفلسفة اليونانية والآراء المسيحية بتشويه الفلسفة اليونانية في الاكثر وتفسير العقائد المسيحية تفسيرا رمزياً .

ان يتم ما دام هنالك « لغة واحدة » يتكلمها العرب و يعبر فيها العرب والمسلمون عن آرائهم ، وما دام هنالك « حرف عربي » يربط حاضر المسلمين الى تراثهم الماضي . فاذا حمل المبشرون والمستعمرون العرب، على الكتابة باللغة العامية اصبح لكل قطر عربي لغة خاصة به او لغات متعددة . ثم اذا هم استطاعوا ان يحملوا المسلمين على التخلي عن الحرف العربي و إحلال الحرف اللاتيني مكانه انقطعت صلة العرب تماماً بادبهم القديم و بالمؤلفات الدينية واللغوية والادبية والتاريخية والفكرية . حينئذ يصبح العرب « وحدات » لغوية فكرية غير متعارفة، ثم تتنافر هذه الوحدات مع الزمن فيسهل اخضاعها بجهد ايسر من الجهد الذي تحتاج اليه هذه الغاية الآن .

وكان زعيم الحركة الرامية الى الكتابة في العامية و بالحرف اللاتيني الاستعماريون الفرنسيون وعلى راسهم المستشرق الفرنسي والموظف في قسم الشؤون الشرقية في وزارة الخارجية الفرنسية لويس ماسينيون . ولقد حاول ماسينيون ان يبث دعوته هذه في المغرب وفي مصر وفي سورية ولبنان خاصة . وكذلك سعى لهذه الغاية مبشرون واستعماريون من امم اخرى .

اما فيما يتعلق بلبنان خاصة فهنالك محاولات عملية كثيرة لم تنجح — ولن تنجح ان شاء الله — من هذه :

— « قواعد اللهجة اللبنانية السورية ، تأليف الاب رافائيل نخلة ... ويحاول الاب رافائيل نخلة في مؤلفة هذا وضع قواعد ثابتة لهذه اللهجة ... والكتاب موضوع بالفرنسية والنصوص العربية منسوخة بالحرف اللاتيني » . والكتاب طبع في المطبعة اليسوعية ورقمه في قائمة المطبوعات اليسوعية ٢٩٦ (ص ٣٣ ، قائمة ١٩٥٠).

— التحفة العامية في قصة فنيانوس ، تأليف شكري الخوري ، نشرها الاب لاي اليسوعي ... مؤلفة بلغة لبنان العامية وتمثل ناحية هامة من حياة اللبنانيين » ، طبع المطبعة اليسوعية (قائمة المطبوعات اليسوعية رقم ٤٨٢ ، ص ٦٠ ، قائمة ١٩٥٠).

— في متلو هلكتاب ؟ تأليف الخـــــوري مارون غصن ، احد المدرسين في مدرسة عنطورا (لبنان) .

وهنالك محـاولات كثيرة مثل هذه . ومع ان جميع المحاولات الاولى قد خرجت من المدارس الفرنسية فيجب ان نستثني من حَمَلَة هذه الحركة نفراً من الاساتذة ليس هذا رأيهم . من هـؤلاء الاستاذ جورج الـكفوري مدير الدروس العربية في الـكلية العلمانية الفرنسية في بيروت سابقاً والذي تولى وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة في لبنان في اوائل عهد الاستقلال. للاستاذ جورج الكفوري كتاب قيم اسمه « اللغة العربية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها [1] ». ان للاستاذ جـورج الـكفوري نظرات صائبة في صلة اللغـة الفصحى بالعامية ، وهو يدعو الى تسهيل الفصحى ويرى منه فوائد كثيرة ، ثم يقول : ومتى سهلت اللغة واصبحت في متناول السواد الاكبر من الشعب اصبح من اليسير إحلالها (اى احلال اللغة الفصحى) مكان العامية.

*

وبعد ان نامت فكرة « الكتابة في العامية بالحرف اللاتيني » رجعت من جديد وتحت ستار «تسهيل اللغة» الى الاستيقاظ. وآخر ما ظهر في هذا الباب «تبسيط قواعد العربية وتبويبها على اساس منطقي جديد [2] » تأليف الدكتور انيس فريحة (احد اساتذة التاريخ واللغـات السامية في الجامعة الاميركية في بيروت) .

امـا الأساس الجديد الذي يقترحه الدكـتور انيس فريحة فهو موضع جدال كبير ، وانا اعتقد انه في بعض الاماكن يعقّد ما كان الى الآن سهلاً في الصرف والنحو . فنحن المتشددين نقتصر في ادوات الجواب على كلمتين : «نعم ، بلى» لما بينهما من الاختلاف في المعنى ولأن لهما فلا فـائدة عملية في قراءاتنا وكتاباتنا . اما الدكتور انيس فريحة فيدخل هاتين الاداتين في

---

١) صفحاته ١٢٧ ، بيروت ١٩٤٨ .
٢) جونية ١٩٥٢ .

الباب : «حروف تشترك بين الاسم والفعل» ، ثم يعدد منها ستاً هي : نعم ، بلى ، إي ، اجل، جير (مماتة) ، جلل (مماتة) [٢] — ويقصد بكلمة مماتة انها لا تستعمل اليوم .

ولكن يبدو ان الدكتور انيس فريحة يريد امراً آخر: انه يريد ان يجعل من اللغة العربية الفصحى والحرف العربي مشكلتين يستحيل حلهما، ولذلك هو يرى ان ينتقل العرب الى الكتابة في العامية و بالحرف اللاتيني. انه يبسط رأيه هذا على منحنى كبير و بشيء من التهكم كان يجب ان يترفع عنه من يدعو الى « اساس منطقي جديد » . انه يقول :

« يطالب مثلا ، بعض الناس بتبني الحرف اللاتيني تسهيلا للقراءة وتخفيضاً لنفقات الطباعة ... ونحن من المؤمنين بهذه النظرية ، ولا نرى حلاً للكتابة الا بتبني الحرف اللاتيني وضبط الكلمات فيه مرة واحدة ... واما الذين لا يرون مشكلة في الامر ، وهم من لم يمارسوا التعليم فيقولون : هؤلاء جماعة خارجون على العروبة والاسلام ! ويطالب بعض الناس بتيسير قواعد العربية لتقرب من العامية ، او لرفع العامية لتقرب من الفصحى ، فيتساءل البعض الآخر : وهل العربية معقدة لنبسطها او عسيرة لنيسرها ؟ انما انتم جماعة خارجون على العروبة والاسلام !

« لماذا يثور الناس كلما طالبنا بالتيسير ؟ لماذا يتهموننا بالخروج ؟ الامر بسيط : لا يدركون ان هنالك مشكلة ! ولماذا لا يدركون : الامر بسيط : الجهل ، الجهل عدو العرب الاكبر ! » .

وهنالك اخوان لنا في الجامعة الاميركية يرون رأي الدكتور فريحة ، ولكننا لن نثبت رأيهم هنا لأنهم لم يكتبوه بعد . فالدعوة الى العامية والى الحرف اللاتيني قد انتقلت الآن من اليسوعيين الى الجامعة الاميركية . اما تعليقنا المفصل على هذه الحركة الجديدة القديمة فهو قسمان : قسم هو صلة ذلك بالتبشير، وقد مر الكلام عليه في اماكن مختلفة . ثم هنالك قسم يتعلق بالاقتراح من حيث هو اقتراح وما فيه من مآخذ فليس موضعه هنا . على ان ملاحظة

---

١) تبسيط قواعد العربية ، ص ٧٧ .

واحدة ضرورية في هذا المقام : ان الدعوة الى العامية واو الحرف اللاتيني معناها ؟

١ً — خلق مشكلة لا حل مشكلة .

٢ً — قطع حاضر العرب ومستقبلهم بماضيهم .

٣ً — تنفيذ لمآرب تبشيرية استعمارية ، لأن الامر بدأ كذلك . ولا يمكن ان يكون سبب هذه الدعوة الآن غير سببها بالامس .

٤ً — ان كثيراً من كتاب الدكتور فريحة لا صلة له بتبسيط العربية على الاطلاق، كجداول ضمائر الاشارة مثلا . ان الدكتور فريحة يقترح لأسماء الاشارة (ص ٣٣—٣٤) عدداً اكبر من العدد الذي تثبته كتب النحو المدرسية . ان الدكتور فريحة يريد ان يبرز اشكالاً كثيرة لضمائر الاشارة ، كما يسميها هو ، لكي يجسم مشاكل اللغة العربية الفصحى ومشاكل الكتابة بالحرف العربي توصلا الى الدفاع عن رأيه في اتخاذ العامية لغة كتابة و إحلال الحرف اللاتيني محل الحرف العربي في الكتابة العربية .

*

إننا عرفنا في الفصول السابقة عدداً كبيراً من الوسائل التي يتوسل بها المبشرون الى الوصول الى الاسلام والمسلمين ، ثم ادركنا ان التبشير إنما هو في الحقيقة تمهيد الى السيطرة السياسية على بلاد الشرق للاستغلال الاقتصادي .

فالتبشير اذن خطر ديني بالغ فوق ما هو خطر سياسي واقتصادي : إنه خطر على كيان الامم الشرقية ، ان القضية بالنسبة الينا قضية بقاء او فناء .

٩ جمادى الاولى ١٣٧٢

٢٥ كانون الثاني ١٩٥٣

فهرست ابجدي لاعلام الاشخاص

هـ - و - ي

نخبة من دراسات وكتب

للدكتور عمر فروخ

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

عضو جمعية البحوث الاسلامية في بومباي

دراسات قصيرة		الثمن بالقرش اللبناني
١ – الحجاج بن يوسف	(الطبعة الثانية)	٤٠
٢ – عمر ابن ابي ربيعة	(الطبعة الثانية)	٧٥
٣ – عبد الله بن المقفع	(الطبعة الثانية)	٤٠
٤ – الرسائل والمقامات	(الطبعة الثانية)	١٠٠
٥ – ابن الرومي	(الطبعة الثانية)	٥٠
٦ – احمد شوقي	(الطبعة الثانية)	٦٠
٧ – ابن خلدون	(الطبعة الثانية)	٥٠
٨ – اثر الفلسفة الاسلامية في الفلسفة الاوروبية	(الطبعة الثانية)	٧٥
٩ – شعراء البلاط الاموي	(الطبعة الثانية)	١٢٥
١٠ – الفارابيان: الفارابي وابن سينا	(الطبعة الثانية)	١٠٠
١١ – اربعة ادباء معاصرون	(الطبعة الثانية)	١٠٠
١٢ – خمسة شعراء جاهليون	(الطبعة الثانية)	١٥٠
١٣ – بشار بن برد	(الطبعة الثانية)	١٢٥
١٤ – نهج البلاغة	(الطبعة الثانية)	٥٠

١٥ - اخوان الصفا (الطبعة الثانية)
١٦ - ابن باجه (الطبعة الثانية) ١٠٠
١٧ - ابن طفيل ١٢٥
٨١- التصوف في الاسلام ٢٠٠
١٩ - الفلسفة اليونانية في طريقها الى العرب ١٥٠
٢٠- موضوعات محللة في تاريخ الفلسفة الاسلامية ١٠٠

دراسات أخر

ابو نواس : دراسة ونقد (الطبعة الثالثة) ١٥٠
ابو نواس : مختارات ٥٠
ابو تمام ١٠٠
حكيم المعرة (الطبعة الثانية) ٢٠٠
عبقرية العرب في العلم والفلسفة (الطبعة الثانية) ٣٠٠
الاسلام على مفترق الطرق (الطبعة الثالثة) ١٥٠
نحو التعاون العربي ١٠٠
دفاعاً عن العلم (نفد)
دفاعاً عن الوطن ٥٠
الاسرة في الشرع الاسلامي ٤٠٠

600 — Das Bild des Frühislam in der arabischen Dichtung von der Higra bis Zum Tode Umars, I - 3 d. H. (622-644 n. Ch. Leipzig 1937.

الاسئلة الثلاثة (مشهد شعري تمثيلي للمدارس الابتدائية)	٢٥
الثقافة الغربية في رعاية الشرق الاوسط	١٠٠
سفينة الحيوانات (مغناة تمثيلية للاطفال)	نفدت

•

يمكن الحصول على هذه الدراسات من :

السيد محمد الخوجة

١٥ نهج باب المنارة — تونس